

نجيب الكيلاني

الطريق الطويل



الطريق الطويل

القصة الفائزة بالجائزة الأولى

بمسابقة وزارة التربية ١٩٥٧

بقلم

نجيب الكيلاني

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

الفصل الأول

كنتُ أسيرُ فى طُرُقات قريتنا وأنا فى فِكر عميق ، وكانت مشكلاتى التى تُربكنى تبدو فى نظرى أكثرَ أهمّيةً ، وأقسى تعقيداً من الحرب ومن « هِتْلرَ » . ولذلك لم أكن أعبأ بالأحجار التى تصطدِم بقدمى الحافية ، ولا أكاد أُحِس بها وهى تغوص فى رَوْثِ البهائم ، أو البُقَع الموحلة المتناثِرة هنا وهناك فى طرُقات القرية . . .

وَمددْت يدى إلى جيب جِلبابى لأستخرج الخِطاب الذى أرسلته المدرسة الابتدائيةُ إلى والدى ، وهو سبب الإشكال الذى تورّط فيه عقلى الصغير ، فالمدرسة تخبر والدى بأنها لن تقبلَنى فى السنة الرابعة إلا إذا عولجت علاجا تاما من مرض البلهارسيا والأنكلستوما ، وفى الوقت نفسِه تُحتِّم علىّ ألا آتىَ إليها فى العام الجديد إلا وقد ارتديت لباسا خاصا ، أُسْوَةً بباقى الطلبة وطبقا للنظام واللائحة .

كنت أعرِف أن أبي غارق فى الدُّيون حتى أذنَيْه ، وأن محصول القطن زهيد الثمن فى ذاك العام ، ولم يبق فى دارنا إلا قليلٌ من الذرة ، لا يكاد يفى بحاجة أسرتنا الكثيرة العدد ، وأمى هى الأخرى مسكينة . . . لاتفتأُ تشكو من آلامٍ حادة فى صدرها ، وهى حاملٌ فى شهرها السادسِ وفي مسيس الحاجة إلى عَرْضها على طبيب ، ومع هذا فقد كان أبى وأمى يعتبران الذَّهاب إلى الطبيب فى مثل هذه الحالة من الكماليّات ، أو ضربا من البذَخ لا تحتمله ماليتُنا الواهية إن صحّ أن تُسمَّى مالية . .

كل هذا كان يؤكِّد لى أن فكرة علاجى من البلهارسيا مشكلة عويصة ، ولِمَ لا تكون كذلك وأنا أحتاج لقرش ذهاباً ، ومثلِه إيابا ، حتى أستطيعَ الوُصولَ إلى مستشفى الأنكلستوما والبلهارسيا فى « مِيتْ غَمْر » ؟ ؟ هذا بالإضافة إلى قَطْع المسافة التى بين قريتنا و بين أقرب محطة نركب منها القطار ، وهذه المسافة لا تقِل عن خمسة كيلومترات .

وكنت فى قَرارة نفسى — برغم هذه العوائق — أتشوَّق إلى زيارة « ميت غمر » وخاصّةً مع رِفاقى من الأطفال الذين تعودوا أن يذهبوا إليها من عام لآخر ؛ لإعطائهم حُقَنَ « الطرطير

المقيء » حتى يوَفروا على أنفسهم آلام التبوُّل والدماء التى تنزف معه . . . لقد كانوا يصوِّرون لى جمال مبانى « ميت غمر » والـكوبرى الـكبير الواسع يصل بين « زِفْتَى » و « ميت غمر » ويقولون عنه إن اسمه « الـكوبرى الفرنساوى » ويتحدثون فى خوف ورهبة عن الإنجليز الذين يُعَسكِرون هناك ، ولا يكاد يمضى وقت دون أن يمروا بسياراتهم الحربية ، ووجوهِهم الحمراء عَبْرَ هذا الـكوبرى . . تُرى هل سـيكون أبى أسلسَ قِياداً هـذه المرة ، فيضحِّى بهذين القرشين فى كل يوم فيه حقنة كى لا يحرِمَنى من هـذه المتعة التى أتشوّف إليها ؟

ودلفت إلى حارتنا الضيقة وأنا أشق طريقى ذاهِلا بين البهائم العائدة من الحقول ، والحمير المحمَّلة بالبرسيم ، والمحاريث والطنابير ، واقتربت من منزلنا ، فلمحت أبى جالسا على المصطبة ، وبجانبـه « الشيـخ حافظ شيحا » أحدُ جيراننا ، ولم أكن فى حاجة لأُرهف السمع حتى أعرفَ فيم يتحدثان ؛ لأن الشيـخ حافظ شيحا كان كعادته يُرغى ويُزبِدُ ويتكلم بصوت مرتفع :

— وشرَفى يا عبدَ الدايم لينتصِرَنَّ « هتلرُ » على الإنجليز أولادِ الـكلاب .

— يا شيخُ حافظ دعنا فى حالنا . . لعنةُ الله عليهم أجمعين . .

— يا رجلُ خذ بالك . . . هتلرُ رجل شريف و يحترم الإسلام وحُرِّيةَ المسلمين والعربِ ، ولن يكون مثلَ هؤلاء الإنجليزِ الأنجاس .

— صحيح ؟ ؟

— طبعاً صحيح . . . من زمن طويل ، و « تشِرْشِلُ » راكب فوق أنفاسنا يسقينا الذّل والوَيْل . .

— من يدرى ؟ ؟ ربما كان هتلرُ أفظعَ وأضلَّ سبيلا . .

— سبحانَ الله ! ! ! أتظن يا عبدَ الدايم أن هتلرَ جوْعانُ وجربوع مثلُ هؤلاء الإنجليز ؟ ؟

— لا أعلم ، فأنا رجل من دارى لِغَيطى ، ومن غيْطى لدارى ، أسأل عن النَّوْرَج ، وأبحث عن ميعاد الرَّىِّ وما إلى ذلك .

— أبداً . . . هتلر يريد لنا الحرية والخلاصَ من هؤلاء النصّابين واللّصوص .

— هل قلبُه طيب لهذا الحد ؟ ؟ وما السبب فى دِفاعه عنا ؟ ؟

— يا حبيبى هذه سياسة . . . سياسةٌ عميقة وكثيرةُ المسالكِ مثلُ سكة « أبو زيد » تماماً .

— لا أفهم ما تقول .

— غدا تفهم . .

كان أبى والشيخُ حافظٌ يواصلان حديثهما ، وأنا أتسلّل متمسّحا بجدران منزلنا الجرباء الـكالحة ، حتى أبلُغَ أمى أولا ، فأحكى لها قصة الخطاب الوارد من المدرسة ، لأنها ولا شك ستكون أقدرَ منى على التفاهم والتصرُّف مع والدى ، لـكنه رآنى حينما كنت على وشك أن أتوارى داخل المنزل ، فهتف بى قائلا :

— تعالَ يا « سليمانُ » . . . علمت أن المدرسة قد أرسلت خطابا . . . خيرٌ إن شاء الله . .

فسارعت بإخراج الخطاب وقدمته إلى والدى ، لـكنّ يدَ الشيخ حافظٍ — جارِنا — كانت أسبقَ ، فتناوله ، وأتيت له بالمصباح « الصاروخ » كى يقرأه على ضوئه . . .

وصدَق ظنى ، فقد قال أبى ساخراً :

— بلهارسيا . . ؟ ؟ مدرسة مجنونة صحيح . . . هل هناك من يسْلَم منها ؟ ؟

إنها ترافقنا كطعامنا وشرابنا . . .

فردّ الشيخُ حافظٌ قائلا :

— لكنَّ سليمانَ تلميذ مجتهد ، ومن شباب المستقبل ، ولا بُدَّ من حفظ صحته من كل الأخطار .

— يا شيخُ حافظ . . الله يُصْلِحُها لك . . . هل أعالجه من البلهارسيا لتعودَ إليه بعد شهور ، أم أشترى له حذاء ؟ ؟

لقد صحّ ما توقعتُه . . . إن القرشين اللذين أحتاج إليهما كى أدفعَهما للمواصلات يوميًّا ، أمر صعب بالنسبة لأسرتنا ، وأيام الحرب كلّها إفلاس وضِيق، وحِرْمان ، و يبدو أنها ستضِنُّ علىّ بهذين القرشين ، . . وصَحوْت من أحلامى البائسة على صوت والدى وهو يقول :

— ادخُلْ لتتعشى . . . ستُفْرَجُ إن شاء الله .

قالها أبى وهو مُتضَايق متألم ، ولم يكن ذلك بغريب على ، فلقد عهِدته دائما كُلّما تكاثرت عليه الديون ، ووقع فى أزَمات مالية ، حائراً متألمًا . . . فمشَيت إلى الداخل وأنا فى كَرْب شديد ، فسوف أُحْرَمُ من مشاهدة الكوبرى الفرنساوى ، وميت غمر ومبانيها ، و بحرِها الواسع ، والإنجليزِ بوجوههم الحمراء المُخيفة و . . . و . . . ثم حانت منى التفاتةٌ إلى جاموستنا العَجْفاء التى تتلوّى من نقص البِرسيم ، وإلى الباب المكسور لإحدى الُحجُرات لا نستطيع إصلاحَه ، وإلى أمى

وهى تُعِد لنا طعام العَشاء المـكوّنَ من « الخبيزة » والخبز الجاف ، وقد بدت على وجهها تقلُّصات الألم ، وتندُّ عنها من آن لآخر تأوُّهات باكية : « آه يا قلبى » . . . ! ! ومع ذلك فيدها لا تـكُفُّ عن العمل ، إذ تملأ الأطباق « بالخبيزة » الساخنة ، وترُص الخيار المُمَلَّح ، وتُصفِّف أرغفة الخبز التى تاهت سُمرتُها فِى ضوء المِشعل المتهافِتِ الضئيل . . .

وطالت المباحثات بين أبى وأمى ، فكانت أمى تُلِحّ وتُصِرُّ على تهيئة الظروفِ المناسبةِ لعِلاجى حيث إن المدرسة أمرت فلا رادّ لأمرها ولا مُعقِّب لحكمها ، وليس من المعقول أن أتخلَّفَ عن دِراستى لضِيق ذاتِ اليد عن مثل هذا المبلغ ، ولـكن أنّى لأبى أن يهتم بالمعقول وغيرِ المعقول ما دام لا يملِكُ مليما واحداً فى جيْبه ؟ وسُرْعان ما وجدت أمى الحلّ ، إنها ستبيع نصفَ كيلةٍ من الذرة ، وما أكثرَ الباحثين عن الحبُـوب فى تلك الأيّام السوداء ، وسيكون ثمنُها كفيلا بقضاء ما أحتاج إليه .

وهَرْوَلْتُ إلى سعيد ابن عمى الشيخ حافظ شيحا وزميلى فى المدرسة :

— سعيد . . . لقد وافق أبى أخيراً . . وسآتى معك غدا إلى ميت غمر . . .

وكانت الدنيا لا تـكاد تَسَعُ سعيدًا من الفرحة ، فقد كنا مُنذُ

الطُّفولة حتى ذاك اليوم — ونحن فى الثالثةَ عشْرةَ من عمرينا تقريبا — أصدقاءَ أوفياءَ كالأخوين ، كثيراً ما نأكل معـا ، ونلعب معا ، ونذاكر فى مكان واحد ، قلت :

— اسمع يا سعيدُ . . أمن المُمْـكنِ أن أرى الإنجليز ؟ ؟

— طبْعا . . كلّنا نراهم ونحن ذاهبون أو راجعون من المستشفى .

— ألا نستطيعَ الـكلام معهم ؟ ؟

— يا خبرُ أسوَدُ . . ! ! ماذا جرى لك يا سليمانُ ؟ ؟ إن عربَاتِهم الصفراءَ تمر علينا وكأنها الريح ، ويا وَيْلَ من يغفُل عن نفسه لحظةً أو يتوانى فى مِشْيَته . . . ! !

— ماذا يحدُث ؟ ؟ . .

— يلفِظُ أنفاسَه تحت العجلات .

تركت سـعيدًا يصف ويُهوِّل ، بينما أخذ خيالىَ الخصيبُ يؤلّف لى نماذجَ شيطانيةً من هؤلاء الإنجليز الذين ينطلقون كالعاصفة وينقضُّون كالموْت ولا يعبأون بأرواح الناس . . . ثم قلت فجأة :

— ألا يستطيع أبى وأبوك أن يقصِف رقَبة أحدِهم ؟

فضحك سعيدٌ وقال :

— اسكت يا عبيط . . إن عندهم مسدساتٍ ومدافعَ وقنابلَ ودباباتٍ .

— مسدساتٌ ومدافعُ و . . . ؟ ؟ ؟

— أجل وسوف تراها بعينيك .

وفى اليوم التالى كان علينا أن نصحُوَ مع الفجر ، فأمامنا خمسة كيلو مترات حتى نصلَ إلى أقرب محطة نقطعها مشْيا ، وسارت قافلتنا — وهى تربو على العشرة عداً — ما بين بنين و بنات ، وصغار وكبار ، وكنا حُفاةَ الأقدام ، فأحذيتُنا لا نلبَسها إلا حين الذَّهاب إلى المدرسة ، ولم نكن نكترِث كثيراً بالتحذيرات التى نقرؤها فى كتب الصحة ، التى توصينا بعدم السَّيْر حفاةً ، لأنَّ ذلك مَدْعاةٌ للعدوى والأمراض ، ولكن معنى ذلك أن يحل موعد الدراسة ونحن لا نمتلك أحذية . .

وانطلقت أشباحُنا الذابلةُ تدِبّ فى الظلام ، ونحن نتعثّر ونَكْبُو وما زالت أجفانُنا الصغيرة تحاول الخَلاصَ من سُلطان النوْم ، وقد تعلق فى يمين كل منا منديلٌ يحوى رغيفا وقطعةَ من الُجبن ، لأننا لن نعود من سفرنا إلا آخرَ النهار . . . أما القرشان فقد ربطتْهما أمى ربْطا مُحكَما فى قطعة من القُماش ثم أحكمت وَثاقَها فى ذراعى اليمنى

تحت الكمّ بحيث لا يلمحها أحد ، وأوصتنى كثيراً أن أحترس وأحذر من اللصوص لأنهم ذوو دَهاء وعبقرّية فى السرقة ، و يستطيعون أن « يسرقوا الكُحْل من العين » على حد تعبيرها . . .

لم نكن نشكو أو نتألم من طول المسير المضنى ، ولم نكن نتبرّم من قَسْوة الحياة وبُخْلِها علينا ، فقد تعودنا هذا النَّمَطَ من الكِفاح والصبر ، بل كنا نحمَد الله على نِعَمِهِ « الكثيرة » لأننا نحظى بالذهاب إلى المدرسة ، بينما أضرابُنا لا هم لهم إلا الجرْىُ وراءَ الِحمار طول اليوم ، والكدْحُ المتواصلُ فى الحقل . . .

ولكن كان يحزّ فى نفسى أن جدتى — سامحها الله — قد تركت فى كم جلبابى رُقعة واضحة كبيرة ، ولشد ما كانت تؤلمنى هذه الرقعة ، إذ تبدو كعلامة للذِّلّة والفقر ، وشارةٍ على الِخزْى والعار ، ولطالما حاولت جاهداً أن أخفيَها أو أتخلصَ منها ، وخاصة عندما جاءنى حسنُ بن موسى أبو عفر — أحد أثرياء الحرب فى قريتنا — وكان يحقِد علىّ لنجاحى فى دراستى ، وقال لى فى شماتة :

— جلبابك مُرَقَّع . . . ألستَ خَزْيان ؟ ؟

ولكن لا مَفَرّ ، فقد كان هو الجلبابَ الوحيدَ الذى لا أملك غيرَه ، بل كنت أجلس فى بيتنا كالحبيس حتى تغسلَه أمى وتجففَه ،

ثم تلبسه لى ، وأنا أزمجر وأتذمّر ، بينما هى تهمس فى ثقة وإيمان :

— هذا رزقٌ من عند الله . . . ما أكثرَ من لا يجدون مثلهَ . . . البَطَرُ يُزيل النعمةَ يا ولدى .

ولقد كان تألمى من هذه الرقعة أشدّ وأقسى وأنا ذاهب إلى « ميت غمر » ، ولكنْ ما الحيلةُ ؟؟ إن أمى تقول : « الحرب » ، وأبى يقول : « الحرب » ، والشيخ حافظ شيحا لايفتأ يقول « الحرب » ، والإنجليز هم أساس البلاء . . لكن هتلرَ رجل شريف « ومُنَسَّب » ، حتى لكأن هتلرَ أحدُ أقربائه . . ! ! !

وكنا فى كل مرة نُرْخِى ونَجْذِب مع « محصِّل » القطار ، فتارة نقول له : إننا طلبةٌ ويجوز لنا أن ندفع نصف أجرة السفر . وتارة أخرى نخلعُ ما على رءوسنا — كما جرى العُرْفُ بيننا نحن الأطفال — كيما نبدو أصغرَ سنا فى نظره ، لكنّه كان يتحايَلُ أو يهدِّد أو يتوسّل حتى ينالَ نصفَ الأجرة ، وكنا نحن نعلم أن القطار لم يُصْنعْ للركوب مجانا مثل حمارنا ، لكن الركوب مجانا كان معناه أن نستمتع بإنفاق قرش أو قرشين فى « ميت غمر » حيث الحلوى والفواكه والخبز الطرى الذى يختلف كثيرا عن خبزنا الجافِّ الأسود ، وهذا ما كان يدفعنا للتمحك ومحاولةِ الإفلات من الدفع . . .

وحينما كنا على مَقرَبة من ميت غمر واحتشدْنا مع الناس عند فاتحة الجسر (السكوبرى) تساءلت : « لم لا يتركوننا نمر الآن ؟ » فرد صديقى سعيد حافظ مُبدِيا عِلْمَه ببواطن الأمور :

— علينا أن ننتظرَ دقائقَ ، فالمرورُ الآن ممنوعٌ ، والسفن الشِّراعية هى التى تمرُّ فى مثل هذا الوقت من كل يوم . . .

فقلت : ولم لا تمر السفن من تحتِ الجسر (السكوبرى) فى نفس الوقت الذى نمشى نحن من فوْقِه ؟ ؟

فقال سعيدٌ : هذا غيرُ ممكن . . .

وقطع حديثَنا صوتُ نفِير فى عربة صفراءَ تنطلق مسرعةً دون أن تعبَأ بأحد ، وسُرعان ما أَفسح لها الناس طريقا رَحباً ، وهرْوَل حارسُ بوَّابة السكوبرى ليفتحَها ، ويعطىَ إشارةً للذين يعملون على إخلاء السبيل أمام السفن الشراعية ، فأوقفوا عملهم بسرعة أيضاً ، بينما تهادت العربةُ الصفراء فى مِشْيتها ، ونحن ننظرُ إليها فى خُشوع ورَهْبة ، وهمَس سعيد فى أذنى :

— أمامَك الآن اثنان من الجنود الإنجليز فى عربتهم الصفراء ...

— إذن فهؤلاء هم الإنجليز ؟ ؟

— أَجَل .

— وأين القنابل والمدافع و . . . ؟

— المسدس فى جيْبِ السترة ، والمِدفع فى يد الجندىِّ الجالسِ فى الخلف ، ألا تراه ؟ ؟

— بلى .

— إنهم يملكون عرباتٍ ، ومخازنَ كثيرةً مملوءةً بهذه الأسلحة .

— ولماذا نخاف منهم يا سعيد ؟

— إنهم ناسٌ كفّارٌ يا سليمانُ ، وغِلاظُ الأكباد ، الموتُ عندهم أمرٌ هيِّن ، ومعهم سلاح كثير . . كثير جداً .

— ولم لا نصنع سلاحاً مثلهم ؟

— أبى يقول إنهم يمنعوننا من ذلك . .

— كيف ؟ ولماذا ؟ ؟

وهز سعيد كتفيْه وهو يتمتم : لا أدرى . . .

وقبل أن تنطلق العربةُ الصفراء ، سمعت من خلفى صوتاً عالياً يقول :

— هاتِ واحد « بياستر » (قرش) يا جونى .

ثم يُذيِبُها بقهْقهةٍ عالية ، وحينما التفت إلى مصدر الصوت وجدت غلاماً كثَّ الشعر ، ملوَّث المنظر ، حلّتُه مليئةٌ بالبُقَع الزيتية المتَّسِخة ، وحوله مجموعة من أصحابه ، ثم أخذوا يصفقّون ويردِّدون

فى صوت رتيب منغم : يا عزيز ، يا عزيز . . . كُبَّة تأخذ الإنجليز .

وبعد وقت فُتِحت البوّابةُ ، وجرينا وسط الحشْد المتدفِّق ، وكان زملائى وهم يجرون معى يستمعون للأصوات اللذيذة التى تنبعث من أثر ارتطام أقدامهم الحافيةِ بالأرض الخشبية فوق الجسر (الكوبرى) أو بحجر البَازَلْت فيما بعد الجسر (الكوبرى) ، وعربات الإنجليز تمر واحدةً فى إثْرِ الأخرى ، حتى لكأن الإنجليزَ قد ملئوا كل ناحية ، وسدُّوا كل مَنْفَذ . . .

وكنت ذاهلا عمّا حولى ، وأرسمُ فى عقلى علاماتِ استفهامٍ كثيرةً حائرةً ، ولم يكن عقلى الصغيرُ بقادر على أن يجدَ لها الإجاباتِ الشافيةَ . . .

كنت أتساءل : ما السبب الذى جعل الإنجليز يختارون ديارَنا بالذات منزِلا لهم ؟ ولماذا نهابُهُم ونرتعِدُ منهم برغم أنهم غُرباء ونحن أصحابُ الأرض ؟ وهل فى مقدورنا أن نكون شجعانا كهتلر ؟ ؟ أجل . . . هتلر ذلك الذى يطاردُهم ويذيقُهم الدّمارَ والفَناء كما سمعنا من الشيخ حافظ الذى يواظِبُ على قراءةِ الصُّحف والمجلات . . . إن هتلرَ جدير بالاحترام حقا ما دام فى استطاعتِه أن يحاربَ هؤلاء

الإنجليزَ بالرغم من أسلحتهم ونَظَارتِهم المُتغطرِسة المُخيفة ، ووجوهِهم الحمراء التي تبدو كوجوه الشياطين . .

وكنت أسمع في المدرسة وفي الشارع ومن الشيخ حافظ : أن الإنجليزَ والحربَ هما سببُ البلاء ، وعِلّةُ الفقر والجوع والضائقاتِ الماليةِ التي يَرْزَحُ الناس تحت وقْعِها ، وكنت أشعرُ بدوري أن هذا الكلام صحيح ، أما كيف يكون ذلك فلم أكن أعرف له تفسيراً . . المهم أن هاتفا في أعماقي يصرُخ مؤكّداً هذه الحقيقةَ ، وكنت واثقا أن اعتقادى صحيحٌ ، وإذا لم يكن كذلك فما السببُ في أن مصطفى كامل وسعدَ زغلول وغيرَهما كانوا في صِراع دائم ، وحربٍ لا تهدأ مع هؤلاء الإنجليزَ ؟ لا بُدَّ وأنهم أساس الشّقاء ، ومصدَرُ الجوع والحِرمان والمصائب كلها . . . ووصلنا إلى شوارع ميت غمر :

— سعيدُ . . . سعيدُ ، انظر . . . ما هذه المبانى ؟ أتُراها مخازنَ للغلال التي ينتزعونَها مِنّا — نحن الفلاحين — كل عام ليُطعِموا منها الإنجليز ؟

قَهْقَهَ سعيدٌ عاليا ، وشَعَرَ بشىء من الغِبْطَة والتّعالى الذى مصدرُه جهلى أو سَذاجتى ، وتوقعتُ هذه المرة أن ينعتَنى بالبَلَهِ ، لكنّه قال :

— هذه مخابىء . . . أفهمت ؟ !

— مخابىء ؟

— أجل لَيُهْرَعَ إليها النـاس فى وقت الغارات حتى ينجوا من قنابل هتلرَ . . .

— عجباً ، ماذا جنيْنا فى حقِّ هتلرَ حتى يُمْطِرَنَا بالقنابل ؟ . .

— فى الحقيقة أن هتلر — كما يقول أبى — يقصِد ضربَ الإنجليز ، لـكنهم مُنْبَثُّون فى أرضنا وديارِنا وفى كل ناحية ، فماذا يعملُ هتلر ؟ ؟

— أيضرب المذنِبَ والبرىء ؟

— نحن مذنبون أيضاً .

— ماذا تقول ؟

— طبعا ، لأننا سَمَحْنا للإنجليز بالْمُقَامِ فى أرضنا ، وأطعمناهم من قَمْحِنا ، وأمدَدْناهم بكلٍّ ما يحتاجون إليه . .

— ولماذا نفعل ذلك ؟

— قلت لك مرّة : إننى لا أعلم ، هكذا يقول أبى ، وهذا غاية ما أعرِفه . .

* * *

كانت مستشفى البلهارسيا والأنكاستوما موجودةً فى مِنْطقة زراعيّةٍ فى الطَّرَفِ الشمالىّ من ميت غمر — يحيط بها سورٌ خشبىٌّ من جهاتها الأربع ، والفلاحون يتكدَّسون داخلَها بوجوههم الشاحبةِ التى تُتَرْجِمُ عن فقر الدم الشديد ، بينما وجوهُ الإنجليز تكاد تنفجرُ وينبثِقُ منها الدمُ لشدة حمرتِها واكتنازِها ، ويظهرون بملابسهم الزرقاءِ الرَّثّة ، وبأقدامهم المتشقِّقة الحافية ، وأجسادِهم الضامِرةِ الهزيلة ، التى أكلتها البلهارسيا كما تأكلُ النارُ الهشيمَ ، وبطونِهم المنتفخةِ التى ثوَى فيها الداء وأرهقتْها العِلّة . . . إن الواحدَ منهم ليأخذُ العلاجَ ثم يُسارعُ إلى حقله ، ويُلْقِى برجليه فى ماء القناة ، ويقبضُ على يد الطُّنْبور بكفِّهِ الجافّةِ الخشِنة ، ويظل يُديرُه الساعاتِ الطِّوالَ ، وتبدأ البلهارسيا — بالطبع — دوْرتَها من جديد ، وكأنه لم يعالَج أو يشْقَ ويتعبْ فى الذَّهاب إلى بعيد حيثُ توجَدُ المستشفى . .

ولا أزالُ أذكرُ ذلك الممرض « التومرجىّ » الضخمَ الجُثَّةِ بسُتْرتِه البيضاء وطُرْبوشه الأحمرِ الذى يرتكِز على قِمّة عودِه الفارع ، وشوارِبه المفتولةِ فى عُنْجُهِيَّةٍ وكبرياء . . . ولن أنسى منظرَه وهو يُطِلُّ من نافذة الحجرة الخشبية التى تُعْطَى فيها الحُقَن ، ويصرُخ بصوْت عال صَوْبَ المرضى :

— تعالَوْا هنا يا بهائم . . . تعالوا اسمعوا الدرس . . .

وكنا نجرى ونتكفّأ ونتسابقُ فى الوصول إلى مكان الدرس ، وإلا فالسَّوْط الذى فى يد « الممرض » سيبعث فينا النشاطَ والهِمّة إن نحن تراخينا . . . وكان يدور فى ذِهْنى هذا السؤالُ : « هل يمتُّ الممرض بصِلةٍ مَا لهؤلاء الإنجليز ؟ إن هناك عامِلا مشتركا أعظمَ واضحاً كل الوضوح بينه و بينهم . وهل هذه المستشفى هى الدار التى تَفِيض برحمة وحنان ، وتخفِّفُ البَــلْوَى عن الإنسان كما تعلّمنا فى المدرسة . . ؟ ؟ » .

وكنت أفهم أن كلَّ ما يتَّصِل بالصِّحة والطبِّ نظيفٌ غايةَ النظافةِ ، لكن ما أكثرَ ما تقزَّزتْ نفسى كلما ذهبتُ إلى دَوْرة المياه بالمستشفى حيث الأقذارُ المكشوفةُ هنا وهناك بصورة لم أرَها فى حظيرة بهائمنا فى الريف . . .

وفى آخر النهار عُدْنا نجرجِر أرجُلَنا المنهوكةَ من أثر المشْيِ الطويل ، ووعْثاء السفر ، وعادت أقدامُنا لتضرب الأحجارَ والحصى من جديد فى طُرُقات القرية فتُذَكِّرُنا نُعومةَ الشوارع فى ميت غمر ، وخاصّةً طريقَ المعاهدةِ الذى رصفوه خصيصاً للإنجليز ، وقارنَّا ذلك بقريتنا المتواضعةِ ، ولم نستطع أن نواصل مقارنَتَنا فقد كان الشيخ

حافظ شيحا يهدد كالمعتاد ، و يتحدثُ في السياسة ، و يعلِّق على الأخبار التي يقرؤها في الجريدة ، ويُثْني بكل فخر و إعجاب على خُطَطِ هتلرَ الحربيةِ وانتصاراتِه في شتى الميادين :

— أُقْسِمُ باللّٰه العظيم أن هتلرَ لا بد أن ينتصرَ على الإنجليز الملاعين ، ويُلبِسَهم الخَيْشَ والمرقَّع ، ويجعلَهم عِبْرَةً لمن يعتبِر . . .

— نذرٌ عليّ يا شيخ حافظ لأذبحنّ خروفاً لأهل اللّٰه وأوزعنّ الشراب يوم أن ينتصر هتلر . .

كنا نسمع الحديثَ في بيت الشيخ حافظ ونحن نقترب من المنزل ، بينما قابلتْنا « بَسِيمَةُ » الصغيرة الحُلوة في مرحٍ ظاهر ، و براءةٍ محبَّبة :

— حمْداً للّٰه على السلامة .

فازْوَرَّ عنها أخوها سعيدٌ ، ولم يحاول الالتفاتَ إليها في جفوةٍ مُعتادة ، بينما ابتسمتُ أنا لها في حُبٍّ وعطف وقلت :

— اللّٰه يسلِّمُك يا بسيمة .

— ألم تأتِ لنا بشيء حُلْو . . ؟

— المرّة الثانية إن شاء اللّٰه . .

فبدا على وجهها شيء من الاكفهرار والتأثُّر وقالت :

— لا أريدُ منك شيئاً . .

— ماذا ؟ ؟ هل أنت غاضبة ؟ أنت تعلمين أن القرشين اللذين أخذناهما يكفيان فقط أجراً للقطار .

لكنَّ بسيمةَ ذاتَ الاثنَيْ عشَرَ ربيعاً لم تكن لتحتَفِلَ بمنطِق أو تكترِثَ لحُجَّة نبديها لها ، إنها تعلمُ أننَّا كُنا في ميت غمر حيثُ الحلوى والفاكهةُ وكلُّ شيء ، وأننا من الواجب علينا أن نُحضِرَ لها أيَّ شيء ، ولو بِضْعةَ أوراقٍ ملوَّنَةٍ ، أو قطَعاً من الأقمشة الخضراء والحمراء ، أو أغطِيةَ الزجاجات التي تحلَمُ بشُرْبِ مياهها الغازيّة ، ولكني رَبَّتُّ على رأسها في حنان ، وقلت في شهامة :

— وحقِّ مقامِ سيدى عيسى العراقيِّ يا بسيمةُ لأحضرنَّ لك ما تشائين بعد غدٍ إن شاء الله . . .

فاستنار وجهُها بابتسامةٍ عذبة ، وأشرقت ملامِحُها بالأملِ الجذَّاب ، الأمل الذى نحيا عليه جميعا ، وأمسكتْ بيدى ، ودلفت معى إلى منزلنا ، وفى قَلبى مشاعرُ متلاطِمةٌ مختلطة ، يخُصُّ « بسيمةَ » جزْءٌ كبير منها ، بينما فتحت أمى ذراعيْها حينما رأتنى :

— أهلا سليمانُ . . وصلتَ يا حبيبى . . ؟ ؟ تعال يا ولدى استرح . . .

وكانت بسيمة أسرعَ منى فى الارتماء بين أحضان أمى التى ضمتنا كلينا فى حنين وشغف ، وقبلتنا فى وجْنَتَيْنا قُبْلة طويلة ، بينما تسللت يدُها المعروقةُ إلى قدمى تتحسَّسُها ، وتنفُض عنها الغُبار والأقْذَار قائلة :

— لا بد أنك تعبْتَ كثيراً يا بُنَىَّ . . .

— أبداً . . . كان سفراً طيبا . . . . ورأينا الإنجليز .

— تحمَّل يا ولدى . . الصبرُ طيب . . . . غداً تصبح موظفاً كبيراً وتستمتع بحياتك ، طولُ العمر يبلِّغُ الأملَ يا ولدى . . .

وطافت بخيالى صورة طبيب المستشفى بمنظارِه الأنيق ، وسماعتِه البرَّاقةِ التى تتدلى من عنقه وكأنها طوْقٌ من المجد والفخار ، وسلسلةِ المفاتيحِ الفضيةِ التى يلفُّها على إصبَعَيْه ، وهو يحدِّثنا بلغة متأنقة رقيقة عن البلهارسيا وأعراضِها ، وعَدْواها ، وعن ضرورة اهتمامنا بالأغذية حتى نَشْفى سريعاً ، والفلاحون يجلسون أمامه على الأرض ، يستمعون إلى الدرس وكأن على رءوسهم الطيْرَ ، ويَهزُّون رءوسهم دون أن يفهموا تمـــاما ما يقول ، ومناديلُ الخبز الجافِّ معلقةٌ فى أذرُعِهم . . . ثم صورةُ الممرض ذى الشارب الطويلِ المبروم ،

وهو يلوِّح بسوطه الأزعر ، ويَخُبُّ فى سترته البيضاء وحذائهِ الأسودِ اللامع . . . ترُى أى الصور الثلاثّ سأكون عليها فى مستقبلى : الطبيب أم الممرض أم هؤلاء الفلاحين بنظراتهم الطيبة الفطرية ، ولحاهم غيرِ الحليقة تماماً ، والبشرةِ التى لوَّحتها الشمسُ وأضنتها العُشْرَةُ والكدُّ الطويل ؟

الفصل الثاني

لم تكن أسرتنا تضم غيرَ سبعةِ أفراد : جَدّتى وأبى وأمى وأخوين صغيرين — ليلى ومحمودٍ — وعمّى « فريدٍ » وأنا . . .

أمّا جارُنا الشيخ حافظُ شيحا فقد كان له أخت عانس فى حوالى الأربعين من عُمْرها بالإضافةِ إلى زوجته « خَضْرَةَ » و « سعيدٍ » و « بسيمةَ » . . .

وللشيخ حافظ قصةٌ طريفة لعلها تكشف لنا عن جانب هام من جوانب شخصيّتِهِ ؛ لقد كان الشيخُ حافظٌ يُعْتَبَرُ العدوَّ اللدودَ والخصْمَ الأول للإنجليز . . . صحيح أننا كلّنا يجمعُنا حِقْدٌ مقدَّسٌ ضدَّ هؤلاء الذين أفسدوا أمورَنا السياسيةَ ، والاقتصاديةَ ، وانحرفوا بالأخلاقِ والقِيَمِ إلى طريقٍ شائك حالك . . . لكنَّ الشيخَ حافظاً كان شُعلةً متّقِدَةً من غَضَبٍ وثورة ، وسواء أكان فى محل « الخرْدَوَات » الذى يمتلكه أو فى بيته أو فى سوق القرية حيث يعرض بضاعتَه ، فى أى مكان يسُبُّ ويلعَنْ ويسْخط على

الإنجليز ، بقدر ما يمتدحُ ويمجِّدُ هتلر ، حتى كانت ابنته « بسيمةُ » وابنُه « سعيدٌ » يشعران بكثير من الحَرَج والضِّيقِ حينما نقول لأحدهما : « يا ابنَ الشيخِ حافظ هتلر » .

لقدْ كان يمشي دائما وفي جيْبِه جريدةٌ ، ومعروفٌ عنه أنه إذا ما عثَرَ على جريدة قرأها من أولها إلى آخرها ، فإذا ضاقت به السبل ولم يجد جريدةً جديدة ، هُرِعَ إلى مخلّفاته ، يقلِّب في محتوَياتِها القديمةِ حتى يعثُرَ على أخبار قديمة تصوِّر انتصارَ الدكتاتورِ الألمانيِّ ، فيُعيد قراءتها مَثْنَى وثُلاثَ ورُباعَ ، ولقد ساعد على اندماجه في السياسة بديهةٌ حاضرة ، وعاطفةٌ متَّقدة ، وإلمامٌ كاف بالقراءة والكتابة ، فقد قضى في الجامع الأحمديِّ بطَنْطا ما يقرب من ثلاثةِ أعوام حفِظ خِلالَها بعضَ الفقه والأحكام بالإضافة إلى القرآن الكريم .

وكثيرا ما كانت تخرج زوجتُه خضرةُ هائجةً مائجةً وهي تقول :

— ماذا جرى لعقلك ياشيخُ حافظُ ؟ أليس وراءك غيرُ هتلر..؟ يا رجلُ حرامٌ عليك . . . قم واعمل لك عملاً تأكل منه لقمة عَيْش .

لكنَّ الشيخ حافظاً كان رجلا يعتزُّ برُجولته وكرامته ، ويرى أن تدخُّلَ الزوجة في أمرِ زوجها مُروقٌ وقِلَّةُ أدب ، ومنقصةٌ لشرفِه

وشجاعته ، فينهالُ عليها سبّاً وشتماً ، ويتوعّدُها ويزمجر قائلا :

— اسكتى يا حمقاء يا جاهلةُ . . . ومن أدراكِ بهتلر وبالسياسة ؟ لم يبق غيرُ أن تلبسى جلبابى وعمامتى وتقومى مقامى . قِلّةُ أدب .. !!

ويحاول الجالسون معه إسكاتَه ، ولـكنْ هيهاتَ ! إنه لن يَقرّ أو يهْدَأ له بالٌ إلا إذا أعطى زوجتَه درسا قاسيا فى واجبات الزوجية واحترام رُجولته ومركزه . .

وكان سعيدٌ وبسيمةُ يشعُران بالخجل لهذه المظاهر ، لـكن بمرور الزمن وتَـكْرار هذه الأمور ، أصبح لها حكمُ العادة . فلم تعد تثير فى نفسيهما هماً شديداً . . . أقول إن للشيخ حافظٍ قصةً غريبةً تكشف عن جانب هام من جوانب شخصيته ؛ فلقد كان أبوه — رحمه الله — مصريا صميما ، وضابطا فى جيش الخديوى توفيق ، واشترك مع عُرَابى جنبا لجنب فى الصِّراع الدّامى الذى خاض الشعبُ غِماره ضدّ الغزو الإنجليزى إبّانَ الثورة العُرابية . وطعن الخديوى الثورةَ من الخلف ، فوجد الإنجليزُ ثُغْرةً واسعةً ينفُذون منها إلى ديارنا ، إذ زعموا أنهم جاءوا مؤقتا لحماية الخديوى ، واستقرارِ الحـكم ، والقضاء على المتمرِّدين والثائرين . . وسُرعان ما أقيمت المحاكم ، وحوكم أنصارُ الثورة ، فأعْدِموا وشُرِّدوا ونُفُوا واضْطُهِدوا ، واستطاع والد الشيخ حافظ شيحا

أن ينجوَ بنفسه ، فهاجر من القاهرة متخفيا ، وأوى إلى قريتنا غريبا طريدا ، فأفسحوا له وحموْه ، وبمرور الزمن اتخذ له زوجة وداراً فأنجب الشيخ حافظاً ، وتلك العانِسَ التي ذكرناها ، وترك زوجه الأولى وأولاده منها في القاهرة للأقدار تتصرف فيهم كيف تشاء . . .

وهكذا اقتضت الظروف أن يعيش هذا الرجل — والدُ الشيخ حافظ — فترةً طويلةً من القلَق والتَّخَفِّي ومقاساةِ الأهوال ، بينما هيأت الخيانةُ لغيره من الأذناب عيْشا رغيداً ، وسوقا رائجة ، ومناصبَ عالية . . أما عُرابي والبارودي وغيرُهما فقد قضوْا ردَحا من الزمن رَهْنَ الغُرْبة القاتلة ، والوَحْدةِ الموئِسة في جُزُر المحيطات النائية . . .

فالإنجليز إذن هم الذين حكموا على والد الشيخ حافظ بالضياع والتشرُّد ، وهم الذين تسببّوا في أن يرتفع الأوغادُ والخوَنةُ ، وأن يُطارَدَ ويُضْطَهَدَ ذوو الرأى الُحرِّ والنزعةِ الاستقلاليةِ ، ورُوَّادُ التقدم .

فلم يكن غريبا أن يكون حِقْدُ الشيخ حافظٍ على الإنجليز أضعافَ حقدنا ، بل إن حقدَه هذا دفعه لأن ينشُدَ الانتقامَ والثأرَ منهم على يد أى إنسان مهما كان جنسُه ، وليكن هتلر مثلا . . . وقد يكون هتلر مستعمِراً مستغلًا مثلَ الإنجليز تماما ، لكنَّ الشيخ حافظاً كان يُبْعِدُ عن ذهنه أمثالَ هذه الخواطر ، فيصوِّرُ له وهمُه أن هتلرَ هذا قد أرسلته

العنايةُ الإلهيّة ليُذيقَ الإنجليزَ سوءَ العذاب ، فضلا عن أن دِعاية المِحْوَر ، وزعمَها بأن هتلر رجل يدعو إلى تحرير الشعوب من رَبقة الاستعمار ، وأنه شخصيا يحب الإسلامَ ويميلُ إليه ، ويشعرُ بشعور الوُد والإخاء للعرب . . . كل ذلك جعل الشيخ حافظاً يتمادى فى حُسن ظنه ، ويغالى فى ثِقَته بهتلر ، ويجعل من معارك الجيوش الألمانية أنشودةً يتغنى بها فى كل مكان . . .

وقد استطاع الشيخُ حافظٌ أن يجمع حوله عددا من الرجال فى القرية يؤمنون بما يؤمن به ، ويتفانَوْن فى حبهم لهتلر ؛ كان فيهم الشيخُ سلامةُ الأعمى فقيهُ المكتب ، والحاجُّ عبدُ الستار راسِبُ الكفاءة وزميلُ عمى فريد ، وزكى القبانِيُّ ، وعثمانُ الطرطورى كاتب الشَّكاوَى والعرائضِ ، وغيرُهم . . .

* * *

جلس الشيخ حافظٌ مع أصدقائه ، ثم تنهَّد وهز رأسه فى حسرة وأسى بالغٍ ، فرمقه الشيخُ عثمانُ الطرطورى وقال :

— ما بك يا شيخُ حافظ . . ؟

— والله يا عثمانُ ، الهمُّ فوْقى وتحتى . . .

— ولِمَ كلُّ هذا ؟

— تصورْ أن الدولَ العربيةَ كلها تمقت الإنجليز من كلّ قلبها ، ومع هذا فهم يحاربون جنبا لجنب معهم . . . حياةٌ كلّها ذلٌّ ونفاقٌ وخيانةٌ لضمائرنا . . .

— وماذا نعمل يا شيخُ حافظ ؟

— لو كان فى كل بلد عربى خمسةٌ مثلُ رشيد عالى الـكيلانى بطلِ العراق ، وعزيزِ المِصرى ، لما استطاع الإنجليز أن يسوقونا كالأغنام إلى ميدان الحرب ، ويستَغلوا أرضَنا ومطاراتِنا ، بل وينهبوا أقواتَنا على مثل تلك الصورة البشعة المُخْزية . . .

— وماذا كان مصيرُ رشيد عالى الـكيلانى . ؟

— يا حبيبى ليست العِبْرةُ بالمعايير الظاهرية للنصر والهزيمة ، المهم أن فى العراق رجالا أحراراً آمنوا بالاستقلال وبالتحرر ، وقذفوا بكلمة الحق دونَ خوف . . . وما دام الأمرُ كذلك فهـذا بداية الخير . . . يوم يقضى فيه على المفاسد والخيانات . . .

— واللهِ يا شيخُ حافظُ إنى ليحزُّ فى نفسى أن يقضِىَ عزيزٌ المِصرىُّ أيامَه معتقَلا ، ورشيد عالى يحيا مشرَّدا من بلد إلى بلد ، بينما الملوك والزعماء الذين يدّعون أنهم مع الحلفاء ومع العالم الحر تنحنى لهم الجباهُ ، وتُدَقُّ لهم الطبول . ! !

— أمرٌ مؤسفٌ حقًّا .

— هؤلاء مكانُهم فى المقدِّمة ، لأنهم خيرُ من يؤتمنون على مصائر الشعوب .

وهمّ الشيخ حافظ بالكلام ، لكن زوجتَه « خضرةَ » ظهرت بوجهها الغاضب وعينيها اللتين تنبئان عن ثورة وتحفُّز ، ولم يكد الشيخ يخاطبها وتخاطبه حتى بان الُحزْنُ فى ملامحه . . . وطأطأ رأسَه فى حُزن وأسى . . . ولم تكن هذه عادةَ الشيخ حافظ . . ترُى ما الذى أصابه بهذا الاستِسلامِ الطارئ فأخذ يستمع لكلام خضرة الذى يهوى على رأسه كالمطارق . . . ؟ ؟

لقد كانت تقول له بعيداً عن أصدقائه :

— ألستَ خزيانَ يا رجل . . ؟ ؟ ليس فى بيتك رغيفٌ واحد ، بل ولا حبَّةٌ واحدةٌ من القمح أو الذرة . . . أظن أننا سنطعم الأولاد جرائدَ و (خردواتٍ) . . طبعا . . أو هتلر سَيُحْضِرُ لهم العَشاء هذه الليلةَ . . ؟ ؟

وهز الشيخ حافظ رأسه ، وحك ذَقْنَه بظهر يده مُرتبِكا ، ولم يجد مَناصاً من أن يقول :

— إن الله سيفرِّجُها يا خضرةُ . . .

— البلد كله ليس فيه حبوب للبيع ... ابحث لك عن طريقة ... أو اذهبْ إلى أى بلد قريب لعلك تجد كيلة أو كيلتين من الحبوب .

— إن شاء الله . . .

— الفضيحةَ . . . ! ! الفضيحةَ يا شيخُ حافظ . . . الناس عيونُهم دائماً تحدّق فى بيوت الآخرين . .

وغلبَها الدمعُ فانحدر على وجهها ، بينما غمغمت تقول :

— استُرْنى ستَرَكَ الله ، ولا تُشْمِتْ بِىَ الأعَادِىَ . .

— عيْبٌ يا خضرة .. لا تبكى .. حالا سأُحْضِر لكِ ما تطلبين .

واستجمع الشيخُ حافظٌ شجاعتَه ، وصرَفها ، مؤكِّداً لهـا أنه سيَحصُل لها على كل ما تريد ، وعاد إلى مجلسه والعرقُ الباردُ يُبلِّل وجهَه ، وأطيـافٌ من الدموعِ الحائرةِ تتراقصُ فى مِحْجَرَيْه . . عاد ليغْرَقَ فى صَمْتِه ، ويَسْرَحَ ببصره ذاهِـلا ، تارِكا أصدقاءه يتجاذبون أطراف الأحاديث . .

« أكانت حالتُه تصير إلى هذا المآل لو كان أبوه بقِيَ على وفائه للخديوى وتنكَّر لضميره ومُثُلِه العُليا ؟ ؟ ؟ » ولم يكد هذا الخاطرُ يطوفُ بذهنه حتى بادر بطرْدِه سريعاً ، واستعاذ بالله من الشيطان

الرجيم ، وحَوْقَلَ وكبَّر واستغفر ، ودنْدَنَ ببعض أبياتٍ من الزَّجَل عن العِزّة والشرف وما إلى ذلك من معانٍ طيبةٍ نبيلة . .

* * *

وكان اليومُ التالى كسابقهِ مليئاً بالمتاعب والأحداث . . .

خرجْنا كالمعتاد فى الفجر قاصدين ميت غمر ، ولم تكن أيام العلاج تَزيدُنا إلا ضَعفاً فوْقَ ضَعف ، ووهْنا على وَهْن . ولا شك أن الإنهاك الذى يلازمنا فى سفرنا ، مع قِلة الغِذاء ، بالإضافة إلى المضاعفات التى تُخلِّفُها حقنُ « الطرطير المقيىء » زادت من هُزالنا وشُحوب وجوهنا ، ولكنَّ سلوانا الوحيدةَ هى أننا سنحصُل على شهادة بخلوِّنا من الطُّفَيْليّات، وبذلك تفتحُ المدرسةُ لنا أبوابَها فى العام الجديد . .

وبينما كنا نخترق « طريق المعاهدة » سمعنا أصواتَ فرْقعةٍ عالية ، لقد كان من خلفنا جندىٌّ إنجليزى يقود دراجته النارية « موتوسيكله » فى سُرعة جنونية ، كأنما كان يستعرض سَطْوَته وقوته ، ووجدتُنى على حينِ غِرّةٍ أقف على جانب الطريق وأتجه إليه فى تَحَدٍّ وجُرأة لست أدرى كيف هبطَتْ علىَّ ، وصرَخْتُ فى وجهه وأنا ألوِّحُ بيدى : « ملعونٌ أبوك ياجونى . . » ولست أدرى أسمعنى أم لا ، أفهِم مَقْصدِى أم لم يفهمه ، لأنى لم تُتَحْ لى الفرصةُ كى أفكِّرَ

فى ذلك ، إذ رأيت الجندىَّ يندفعُ نحونا دون اكتراث ويوشك أن يصطدِمَ بنا ، لكنْ سُرعان ما انحرفتُ بعيداً عن طريقه كى أنجوَ بنفسى ، فانزلقت رجلى ووقعتُ فى مجرّى ماءٍ صغير يحازى طريق المعاهدة ، فقهقه الجندىُّ فى سعادة عارِمة ، وفاضت أساريرُ وجهه بالبِشْرِ ، وهو يرانا بينَ هارب ومَذْعُور ، وساقطٍ فى المجرى ، ومرتبكٍ قد تعثَّر فى خُطاه فلا يقوم إلا لِيقع ، والهَلَعُ قد سيطرَ علينا جميعاً . . .

واندفع هو فى طريقه ، بعد أن نَعِمَ بهذا المنظر المُسلّى مع أنه يشبه إلى حدّ كبير منظرُ الفئران الخائفة التى تَعْبَثُ بها القطةُ قبل التِهامِها . . .

وأخذتُ أجاهدُ حتى خرجتُ من المَجرى ، بعد أن تلوث ثوبى بالطين وتشبَّع بالماء ، ووقفت حائراً لا أدرى ماذا أفعل ، والشتائمُ والنقمات تنبعث من فى متلاحقةً على الرغم منى ، وكأنى بذلك أطفئُ لهيبَ غيظى ، وأخففُ بعضَ الشىء من حقدى المضطرِم بين أحنائى ...

يا لَهؤلاء الإنجليز من أقذار . . . ! ! ! لم يَكْفِهِمْ أن ينتزعوا اللقمة من أفواه الجائعين ويستعبدونا ، بل يتسلَّوْا بمنظر البؤس والشقاء ، الذى يلوّنُ حياتَنا التَّعِسةَ . أجل . . . كان يوماً قاسيا مؤلماً . . .

فعندما انحرفْنا ناحية المستشفى ، وتركنا طريق المعاهدة ، رأينا مشهداً يُدْمى القلوب ؛ لقد جلس عمى « سالم » بائع الجُمَّيز تحت الشجرة العالية يبكى و يندُبُ حظَّه قائلا :

— يا روحى يا ولدى « يا سيد » . يا ميت ناقص عمر . . . يا سندى يا بنى . تركتنى لمن يا « سيد » ؟ . . أنا عجوز ومِسكين ووحيد يا حبيبى . . . الله يُجازِيهم حرقوا قلبى عليك . . . آه يا مسكين يا ابن المسكين . . . كنت أتمنى أن أموت بدلا منك يا سيد . لكن الأمرُ أمرُ الله . . .

وهكذا كان العم سالم يتأوَّه و يتألَّم ، وحواليه بعض معارفه الذين يحاولون تهدئَتَه ، وترضيتَه بقضاء الله وقَدَرِه ، كان أحدهم يقول :

— ربُّنا كريمٌ يا سالمُ ، لابد أنه سيعوِّضُك خيرا كثيرا .

— يعوِّضنى ؟ ؟ عاجزُ النظر . مريض الجسم يا ناس . لا أرى ولا أقدِرُ على العمل . . يا طولَ عذابى بعدَك يا ولدى ! ! ! كنتَ يا سيدُ عينى وذراعى وأملى فى حياتى .

— الله يُجازى من تَسبَّب فى هذا .

ثم ينفجرُ العم سالم باكيا من جديد ، وتخرج كلماتهُ موجِعَةً محزِنة تكاد تُمزِّقُ نِياطَ القُلوب . . .

إذن فقد مات سيدٌ ذلك الشابُّ الطيِّب ، السمحُ المعاملةِ الذى كان يبيع لنا الجُمَّيْزَ فى الصباح أمام المستشفى ، وكنا جميعاً — نحن الزبائن — من ذوى الملاليم ، ولـكن « سيد » كان سعيداً بتعامُلِنا معه ، رحيبَ الصـدر لمساوماتِنا ، ، وها نحن أولاء اليوم نراه قد ودَّع الحياة . .

لقد كان الواقفون يَرْوُون كيف أن أحد السائقين الإنجليز كان يقود عربته وهو مخمور ، وتمضى به العربةُ مترنِّحةً ذاتَ اليمين وذاتَ الشِّمال وكأنها هى الأخرى قد فقدت توازُنَها من أثر الخمر ، وكان ترنُّحُ العربة يزداد كلما تصادف وجودُ فتاةٍ جميلة أو غيرِ جميلة — فى الطريق ، فلا يسع الإنجليزى « الخفيف الظل » إلا أن يظهر إعجابَه وحسنَ ذوقه بهذا الأسلوب السمج من الغزل ، وكانت النتيجة — أن اختلَّتْ عجلةُ القِيادة واندفعت العربة ناحيةَ اليسار ، فسحقت « سيِّدَ » ابن العم سالم تحت عجلاتها ، بينما تدحرجت سَلَّةُ الجميز بعيداً دون أن تُصابَ بسوء . .

وهكذا ودَّع « سيِّـدٌ » الحياة ، ودعها وهو فى شَرْخ شبابه المـكافح ، وترك أباه الشيخ يَهْذِى ويَخْلِط فى كلامه ، ويُرْسل عباراتِ التوجُّع والتفجُّع التى تُذيب القلوب . . . ولست أدرى هل

ابتسم سيدٌ للموت الذى أنقذه من شقاء الحياة وهوانها ، أم ترك الحياةَ وهو ناقم أسِفٌ من أجل أبيه الحائر المسكين . . ؟ ؟ أسئلة لم أستطع الاهتداء إلى الجواب الشافى عليها حينَـذَاك . . . ! ! ! وسَـكبْنا بعضَ العبَرات . .

ثم واصلنا سيْرَنا إلى المستشفى حيث المرض الضخمُ الُجثَّةِ ، وحيث الطبيبُ بسَمْتِه المتأنِّق ، وحركاتِه المتأففة ، وحيث أكداسُ الفلاحين فى أسمالِهم ينتظرون الدرس ، ومن بعـده عمليةُ الحقن كالمعتاد . . .

وعند عودتنا من المستشفى قلت :

— ألا نجلس لنأكل ؟

فتسابق الزملاء فى حَلِّ عُقدِ مناديلهم واستخراجِ الأرْغِفَة ، واللِّفْتِ ، والفُلْفُل ، بينما لاحظت أن زميلى سعيد بن الشيخ حافظ قد انتحى جانباً ، وجلس بعيـداً عنا فى صَمْت مكتئب ، فصاح به أحدنا :

— تعالَ كُلْ يا سعيد .

— شكراً ، ليس لى رغبةٌ فى الأكل .

وهمَس أحدُ الزملاء فى أذُنى قائلا :

— سعيدٌ لم يُحْضِرْ معه طعامَه اليوم .

فاندفعتُ فى غضب وحِدَّة :

— وما شأنُك أنت ؟

— لأنى لم أرَه يحملُ مِنْديلا اليوم ، فماذا أزعجَك إذن ؟ ؟

— كُنْ فى حالك ، وكفى كلاما فارغاً .

قلت هذا وأنا أَهِمُّ واقفا حاملا طعامى معى ، قاصداً صَوْبَ سعيد . .

لقد كنت أعلم أن أباه فى ضائقة أشدَّ وأقسى من الضائقة التى تأخذ بخِناق أبى . لأننا كنا نملك حدًّا أدنى من الحبـوب يكفينا بقيَّةَ العام ، أما الشيخ حافظ فهو تاجر « خردوات » من يده لِفَمه كما يقولون . وقد تعذر عليه بالأمس الحصولُ على قوت أسرته .

— لم لا تأتى كى تأكل معى يا سعيد ؟

— لأنى شَبْعَانُ . . . وأنا فى الحقيقة قد نسِيتُ أن أحْضِر طعاماً معى اليوم .

— لا فرْقَ بينى و بينك يا سعيد .

— طبعا طبعا يا سليمانُ .

— إذاً فهيا نأكل .

— أعتذرُ لأنى — كما قلت لك — لست جوعان .

— إذا لم تأكل معى فلن أمسّ لقمةً واحدة .

— لا تُلِحّ علىّ فى ذلك . . . أرجوك .

لقد كان أمرُ سعيدٍ غريباً حقا ، يستطيع أن يكبَح جِماح مَعِدتِه لهذا الحد ، ويسيطِرُ على شَهْوَةِ الطعام التى تحتدِمُ فى أعصابه ؟ « يا لَكَ من عزيز مترفع يا سعيد ، أفعن جدِّك الضابطِ الثائرِ ورثت هذا الإباء ، أم عن أبيك بائع الخردوات ؟ أم هو طبع فيك أثاره عنادُك وكبرياؤُك اللذان اشتهرْتَ بهما بين أقرانك ؟ » ولم أكن أعرِف آخِرَ مرّة أكل فيها سعيد ؛ قد يكون منذُ يوم أو أكثر أو أقل ومع هذا فقد أصررْت أن نأكلَ معاً ، وأصرّ سعيدٌ على عدم الأكل ، ولما رأى تشبُّثى واستِمساكى بذلك وامتناعى عن الطعام ، أكل لقيماتٍ قليلةً معى فى زُهْدٍ وأدب ، وكان يبدو عليه أنه يُغالب دموعاً توشِك أن تنفرِط من عينيه ، لكنه استطاع أن يضغَط على عاطفته ، ويكبِتُ مَشاعره فنجح فى ذلك . . . « يا لَكَ من كبير شريف يا سعيد ! ! كبير على الأقل فى نظرى . . » .

ما إن وصلنا إلى « المحطة » حتى وجدنا أن القطار قد فاتنا ، فكان علينا أن نتسكّع ساعتين على الأقل حتى يأتىَ القطارُ الذى يَليه ، وفى أثناء تجْوالِنا لمحتُ رجلا يلعبُ بالورق ، وحوله زُمْرةٌ

من الغِلمان هواةُ القِمار ، بشعورهم الطويلة ، وأرْدِيَتِهِم المغَبَّرة ، وسِحَنِهِم الـكالحِةِ ، ودفعنى حبُّ الاستطلاع أن أندسَّ بينهم ، وأستمتِعُ بمشاهدة هذا المنظرِ الفريد . . . كانوا يلعبون الورقات الثلاث ، وكان أحدهم يضع القِطعةَ ذاتَ خمسة القروش فوق إحدى الورَقات ، ثم تعودُ إليه وقد صارت عشرةَ قروش كاملة . . . « يا إلهى يا لَه من مكسب هيِّنٍ سريع . ترُى ماذا يحدث لو وضعتُ أنا قرشاً واحداً . ؟ ؟

حتما سيعودُ إلىَّ قرشين والقرشان تتحولان إلى أربعة ، والأربعة إلى ثمانية و . . . و . . . و . . . وبذلك أستطيعُ أن أملأَ جوْفى بالطعام والفاكهةِ وأشرب العِرْقِسُوسَ ، وأجلس فى القطار واضعا رجلا على رجلٍ ، والأهم من ذلك أنى سأحمل هديّةً من الحلوى إلى بسيمةَ التى سيُشْرِقُ وجهُها سعادةً و بشراً ، وستعلم مدى رُجولتى وكَرَمى . . .

يا لَهَا من لُعْبة مُغْرِية . . . ! !

لـكنَّ أمى كانت تقول لى إن لِعب القِمار حرام ، وأنه يَخرِبُ البيوت ، وكانت تحذِّرُنى من ذلك كثيراً . . . لـكن ماذا يحدثُ لو خالفتُها مرَّةً واحدةَ وجرَّبْت هذه اللعبة ؟ ؟ إنها تجذبنى إليها جذبا

لا هوادةَ فيه ولا رِفْق . . .

وكانت صورةُ الـكسب المتوقَّع تُلِـحُّ على عقلى ، وتجعله شيئا مؤكداً ، فلم يراودْنى قطُّ شبحُ الخسارة ، لـكن قلبى كان يدُقُّ دقا عالياً متواصِلا ، وأنا أقدِّمُ رجلا ، وأؤخر أخرى . . . كانت أعصابى تَصْخَبُ وتحترق ، والعرق يتفصَّدُ من جبينى ، وضميرى يُلْهِبُنى بسياط من اللّوْم والتقريع ، إذ كيف أخالِفُ أمرَ أمى وأقترفُ هذا الوِزْر الأكبر ؟ ؟

وفى هذا اليوم نفسه كان معى قرش إضافى ، قلت : فلْأُجرِّبْ حظى بقرش واحد ، فإذا ما فقدته بَقِىَ لى الثانى ، وتـكون هذه الحادثةُ خاتمةَ المطَاف . . . لـكن كَلَّا ، لن أفقِدَه مطلقاً . . . هيَّا تشجَّعْ . . تشجَّعْ . قرش واحد فقط سوف يجلِبُ لك الـكثير . . يالِى من متردِّد عاجز . . . ! ! فيم التردد وفيم النُّـكوص ؟ ؟ .

وأخذت أجيل بصرى فى الثلاث الورقات ، وهى تتطاير بين يدَىِ الرجل فى خِفّة وسُرعة مدهشة ، وكثيرا ما خمَّنْتُ وقدّرت ، فـكان تقديرى فى الغالب مصيباً لا يخطئ فى الورقة التى أختارها . . .

وأخيرا صممت على خوض التَّجرِبة ، وليـكُنْ ما يكونُ ، وتلفتُّ يمْنةً ويَسْرةً فتأكَّدتُ أن زملائى قد تفرّقوا بعيداً ، ولم يبقَ أحد

منهم بجانبي ، فوجدتها فُرْصةً ثمينةً من الواجب أن أغتنِمَها حتى لا يراني أحدٌ حينما أخسَرُ نقودى . . . ومن يدرى ؟ ؟ لعلى أعود إليهم وجيبي مكدَّسٌ بالنقود . وتناهى إلى سمعى رنينُ القطعِ المعدنية المنتظرَة ، فدفعت يدى فى جيبي وأخرجت أحدَ القرشين ، واستجمعْتُ قوَّتى وقذفتُ به فوق إحدى الورقات الثلاث ، وقلبى يدُقُّ دقاتٍ عاليةً ، يخيَّل إلىَّ أنها كانت توشك أن تُصِمَّ أذنىَّ . . . يا لها من لحظة رهيبة . قاسية . ! ! برغم أننى لن أفقد ســـوى قرش . . . قرش واحد . . .

ورفع الرجل الورقةَ التى وضعتُ قرشاً عليها وهو يقول :

— قرش واحد فقط ؟ ؟ أنت فقير جداً . .

وأمسكت بأنفاسى فى انتظار النتيجة ، وركَّزْت كِيانى وسمعى وبصرى فى يَدَىِ الرجل اللتين تقلبان الورقة ، وهنا زاغت عيناى ، وأوشكتُ أن أفقِدَ وعيى حينما تبيَّن لى خسارَتِى ، وانتزع الرجل القرش ووضعه فى جيبه وكأن لم يحدث شىء . . .

لـكن كيف أترك هذا المـكان دون أن أثْأَرَ لنفسى ، وأستردَّ قرشى الضائعَ على الأقل ؟ ؟ وهكذا الخسارة قد تدفع إلى التمادى فيها ، وبعضُ الخطأِ قد يدفعُ إلى الإدمان . . .

ومرت فترة لستُ أدرى أطالتْ أم قصرت ، ووجدتُنى على الرغم منى أترك يدى تعبَثُ فى جيبى كى تخرجَ لِى القرشَ الباقى ...!!؟ كانت مُغَامَرَةً إذ لم يعد يبقى معى سوى هذا القرش ، فهل معنى ذلك أننى سأخسره ؛ وبالتالى أقطع المسافة من هنا إلى بلدِنا سيراً على الأقدام وهى تربو على الخمسةَ عشَرَ كيلو مترا ؟ ؟ ؟ لم أكن أخضع للتفكير المنطقىِّ السليم ، ولم أعمِدْ إلى استشارةِ عقلى فى هذا الوَضْع الحرِج ، كنت مدفوعاً بعاطفة قوية ، وبالثأر الذى أشعلَه فى قلبى ذلك القرش الضائع ، وبالسخرية المُرَّة التى لذعنى بها هذا الرجل صاحبُ الورق حينما قال لى : « أنت فقير جداً » .

كانت هناك قوةٌ خفيةٌ توهِنُ من عزمى ، وتبعث الشكَّ فى نفسى ، وتلعب بعواطفى . . . إذا لابد أن أقذف بهذا القرش الباقى وأُريحَ أعصابى وليكن ما يكون . . . ! ! عجباً . . ! ! أين القرش ؟ ؟ وأخذت أبحث فى جيبى وأقلبه ظهرا لبطن ، وأبحث هنا وهناك ، وأسأل هذا وأسأل ذاك . . . لكن دون جدوى . . ؟ ؟ أخذت أصيحُ وأتوعَّد وأتهِم ، ولكنَّ الجميع كانوا لا يعبئون بى ، و يضحكون منى ومن حزنى الشديد ، ودموعى التى توشك أن تنفرط وحَيْرتى وارتباكى . . .

واتجهتُ إلى أحدهم وكان يقف بجانبي :

— أنت أخذتَ القرش من جيبي . . .

وأمسكتُ بطرَف كمه في إصرار ، لكنه رمَقنِي بنظرةِ استِخْفافٍ وازْدِراء وقال :

— دع كمي وإلا كَنَسْتُ بك الشارع .

— لن أتركَكَ . . . أنت الذي أخذتَه . . . سأنادي الشرطيَّ .

ولم أكد أكمل جملتي حتى شعَرْتُ بيده المتسخةِ الملوثةِ بالشَّحْم والغبار تهوِي على وجهي في عُنف ، وتُلْقِي بي على الأرض بينما عاد هو إلى مُراقَبة لَعِب الورق ، وكأن لم يحدثْ شيء . . .

لقد عقدتْ الدهشةُ لساني ، وأفَقْتُ إلى نفسي على أثَرِ هذه الصَّفْعة ، وكأنما صحَوْتُ من حُلْم مخيف ، وهمْتُ بالوقوف ، فشعَرْت بيدٍ ترَبِتُ على كتفي في مودَّة . . . لقد كانت يدَ « سعيد حافظ » . . .

— الله . . . أأنت هنا يا سعيد ؟

— ماذا جرى ؟

— لا شيء . .

— قل . أتخفي عني سراً ؟

فأطرقتُ برأسي دون أن أجيبَ والأسى يملأني ، والحسرةُ

تعتصِرُ قلبي ، بينما ردّد سعيد بصره بين حلقة القِمار ومن فيها و بين وجهى المحتقِن من أثرَ الصفعةِ وهتف قائلا :

— يا نهار أسود . . هل لعِبْت القِمار يا سليمان ؟ ؟

ولم أجِب إلا بدموعٍ صامتة تحدَّرَتْ على وجنَتِي المحُمرَّة ، فاحترم سعيد قُدسِيَّة هذه الدموع و بلاغتَها وقال :

— حقُّك على يا سليمان . . . لا تحزن . . طبعا القرش راح . . لا تهتم ، فى ستين داهية القرش .

— بل القرشان ، فلقد سرق أحدُهم القرشَ الباقى .

— ليكن ذلك . . . هيَّا واترك هؤلاء الأوباشَ ، فليس عندهم غيرُ الخسرانِ والسَّرقةِ والضَّياعِ وشتى أصناف المهازل . . .

لقد صدقت أمى : إنهم يسرقون الكُحل من العين ، يسرقونه بطُرُق كثيرة بالإضافة إلى الطريقةِ المباشِرة . . . لن أعودَ إليها مطلقا ، حتى ولو كان اللعبُ لمجرَّد التسلية . . . أبداً . . أبداً لن أعود إليها . . .

وهذا ما حدث فعلا ، فقد عِشتُ طول حياتى كلما وجدت حَلْقةً من حَلَقَات القِمار عرضاً فى الطريق ، تسللت يدى تلقائيا لتتحسس جيبى وتطمئنَّ على أن ما به من النقود لن يحاوِلَ أحدٌ أن يسرقَه ، وأشعر بلَمَسات الحزن اللاذعةِ التى انتابتنى فى تلك المرة المشئومةِ ،

وأُحِسُّ بالرجفة التى كانت تهزُّ كِيانِى كلَّه ، وتجعل نبضاتِ قلبى مدوِّيةً متلاحِقة . . .

وكان علىّ فى هذا اليوم أن أبحث عن أحد زملائى من الفلاحين — وقد كان يأتى للعلاج راكبا حماره — لعلّه يعطفُ على ويدَعُنى أركبُ معه ولو لمنتصف الطريق وأتحمّلُ الباقىَ مشيا على الأقدام . . . وهذا ما حدث فعلا . . وعُدت إلى منزلى ألهثُ من التعب . . .

ولمحتُ بسيمةَ تجرى وتتواثبُ فى خِفّة العُصفور الطليق ، فانزَوَيت فى مكان لا ترانى فيه حتى تمضى لحالِ سبيلها ، لأنى لم أحضِرْ لها ما طلبته منى . وكنت أحاول نسْجَ قِصَّةٍ خيالية أَرْويها لأمى ولأبى عن سبب تأخيرى ، وعدم ركوبى القطار ، بعد أن توسَّلت إلى سعيد ألا يُفْشِىَ شيئاً مما حدث . . لعنةُ الله على شيطانى ، لم يكفه أن يعذِّبَنى هذا العذابَ ، فعمد إلى يستحثنى على اختلاق الأكاذيب حتى أنقذَ نفسى من اللَّوْم والتقريع ومن ضرْبِ العصا أيضا . . . ولم يشأ اليوم أن يمُرَّ هكذا بهذه النكبات — أعنى وقوعى فى المجرى ثم مَوْتَ سيد ابن بائع الجميز ، وثالثة الأثافى حكاية القمار — بل أبلغتنى أمى فى غاية الألم أن « بسيمةَ » ستسافر غداً أو بعد غد إلى الإسكندرية ، وقد تغيبُ فى سفرها مدَّةً ليست بالقصيرة .

– ماذا تقولين يا أمي ؟

– ستسافر بسيمة .

– لكنَّ هذا لا يمكن . . . ولم السفر ؟

– أنت صغيرٌ ولا تفهم الحياة كثيراً .

الفصل الثالث

أجَل ، كنت لم أزل صغيراً ، لـكنى شعَرت بأن قطعة من جسمى تُنْتزع انتزاعاً أو أن قلبى الصغيرَ قد انخلع من مكانه . . ربما كنت أتعلق بأذيال الطفولة ، لـكنَّ « بسيمة » كانت كالدُّمْية اللطيفة التى تتعلق بها روحُ الطفل فيظَلّ يناجيها ، ويداعِبُها ، ويبكى بكاءاً مُرًّا إذا اختطف أحدٌ منه هذه الدمية .

وتسللت عَقِبَ غروب الشمس إلى حيث لقيت « بسيمةَ » الصغيرةَ بوجهها المستديرِ الدقيقِ الملامح ، ونظراتِها الحنونِ البريئةِ ، وقالت لى وهى تُشِيح بوجهها عنى فى حركة نِسَوِيَّة فطرية متقنة :

— أنا لست مبسوطةً منك يا سليمان .

— صحيح يا بسيمة ؟ ؟

— طبعاً لأنَّك بخيل .

— ما ذنبى ؟ ؟ غصب عنى . . . الظروفُ صعبـــة جدًّا . وأنت عارِفة .

فنسِيَتْ بسيمةُ تأثرَها وغضبها على . ثم تاهت بنظِراتها فى السماء

وكأنها تحلَمَ أحلاماً وردية يوشّيها خيالُها الساذجُ بكل جميل من الظلال والألوان ، وقالت :

— أنا مسافرةٌ إلى الإسكندرية يا سليمان . .

— أصحيحٌ هذا يا بسيمة . . ؟

— طبعاً ، فأنا لا أكذِب عليك .

وأصابني غمٌ شديد لأني لم أكن أتصور أن تنأى بسيمةُ عني لأي سبب كان ، لأني كنت أشعر بسعادة بالغة ونحن نلهو معاً .

وأفقت من همومي على صوتها الرقيق الحالم وهي تقول :

— كنت أتمنى يا سليمانُ أن تكون معي . . . أمي تقول لي إني سأرى البحرَ الواسعَ الكبير . . . البحرَ المِلْح . . . بحر بضِفّة واحدة . . .

ولم أكن بحاجة لكي أُفْهِمَها — كما تعلمت في المدرسة — أن للبحر ضِفَّةً أخرى لكنها بعيدةٌ جداً بحيث لا تراها العينُ ولا يَحُدُّها البصر ، فاستطردت قائلة :

— وأبي يقول إن فيه رجالا ونساء عرايا يسبحون فيه طولَ النهار بلا خَجَل أو حياء . . .

قلت لها : لعلك تقصدين المَصيف ؟

لـكنَّ بسيمةَ لم تـكن تدرك معنى لهذه الـكلمة — المصيف — ولا تعيرُها التفاتا ، لذلك ابتسمت مِلْءَ شِدْقَيْها والتمعت أسنانها فى ضوء القمر وهى تقول :

— وفى الإسكندرية حلوى كثيرة . . . وخبزٌ طرى . . . ولحمٌ وبرتقالٌ . . . وفيها بيوت عالية . . عالية جداً مثل قصور الملك .

— وأنت ، أتعرفين قصور الملك ؟

— جدتى كانت تحدثنى عنها طويلا بالليل وهى تحكى عن جدى الضابط الذى كان يُعادِى السلطان ، ولما أحبُّوا أن يمسكوه هرب منهم .

وصِحْتُ على حينِ غِرة :

— ولم تذهبين للإسكندرية يا بسيمة ؟ ؟

— كى أتفسحَ وآكلَ حلوى وفاكهةً وحاجاتٍ كثيرة . .

— أنا فاهم . . لـكن من سيعطيك هذه الأشياء كلَّها هناك ؟

— عمى .

— عمُّك ؟

— طبعاً ، ألم أقل لك إن جدى كان ضابطا كبيراً وله أولاد غيرُ أبى فى مصر والإسكندرية ، ولا يَلْبَسون العِمامةَ والجِلْبابَ مثل أبى لـكن عندهم طرابيش وحلل . . . وأمى تقول إنهم أغنى منا ، وعندهم قروش كثيرة . .

لم أكن فى حاجة لأن تخبرنى أمى — حين عدت فى المساء — بأن حالة الشيخ حافظ شيحا تنحدر من سيئ إلى أسوأ ، وأنه يحصُلُ على لقمة العيش وكأنه ينحتها من الصَّخر الصَّلد ، لهذا أمعن فى التفكير ، وتخلى حيناً عن حديث الحرب وهتلر . . . لكن ماذا يعمل ؟ ؟ لم يعد حاله خافيا على أحد ، إن ملابسَ أفرادِ الأسرة الممزقة لتُفصِحُ عن حاله ، وسُهومَ سعيد ووجومَه ينِمَّان عما يختفى وراء جدران بيتهم من مأساةٍ بطلُها الغلاء وضيقُ ذاتِ اليد ، والمعاركُ الكلاميةُ التى لا يهدأ لها أوار أبداً بين الشيخ حافظ وخضرةَ زوجتِه لم تعد سرًّا مستتراً ، والجرائد التى لم يكن يتخلف عن شرائها إلا نادراً أصبحت شيئا مستحيلا بالنسبة للشيخ حافظ ، فكان عليه أن يُرِيقَ ماء وجهه ويذهبَ إلى هذا وإلى ذاك من هُوَاة قراءة الصحف ، ويتزلَّفَ ويتودَّدَ كى يقرأها ، ويطمئِنَّ على أخبار هتلر وهزيمة الإنجليز . .

لهذا قرر الشيخ حافظ أمراً لا رجعةَ فيه . . .

صحيح أن هذا الأمر آلمه كثيرا وحرمه لذّةَ النوم ، ومنعه العيشَ ، أو قل أدْمى فؤادَه ، وهزّه هزاً عنيفاً ، فشعَر أن الأقدارَ التى طاردت أباه الضابطَ ، وقطعت حبْلَ آماله ، هى بعينها التى تُناصِبُه العَداء اليوم وتحاولُ أن تخلقَ من حياته جحيما لا يُطاق . . لقد قرر الشيخ حافظ

أن يرسل ابنته بسيمة لتشتغلَ خادمة فى الإسكندرية عند أحـدِ أثرياء الحرب . ومما خفّف وطأةَ آلامه ، وأدخل إلى قلبه شيئا من الهدوء ، أن إحدى معارفه أكدّت له أنها تشتغلُ عند الأسرة نفسها ، وأنها ستعتبر بسيمةَ كابنتها ، وترعاها وتحميها من كل سوء ، وستبيت معها ، وهى التى ستسقيها وتُطعمها ، ولن تجعلها تشـكو من شىء مطلقا ، فضلا عن أن أجرَ بسيمةَ سيربو على جنيهين اثنين . . . إنه مبلغٌ كبيرٌ حقًّا ، يستطيع الشيخ حافظٌ به أن يَسُدَّ به مطالبَ سعيد فى المدرسة ، وأن يشترىَ بعضَ الحبوب . ومن يدرى ؟ لعله يعودُ لشراء الجرائد من جديد . .

إذن فالحياةُ قاسيةٌ ، وبرغم قسوتها لابد أن نعيشَها ، ونوائمَ بيننا وبينها ، ونصبرَ ونتحمَّلَ حتى تعودَ المياهُ إلى مجاريها وينصلحَ الحال .

كنت أحِبُّ بسيمةَ حبا يتناسب مع عمرى وعمرِها ، وكانت تبدو فى نظرى كبيرةً عاليةَ القدر ، برغم أن أباها هو الشيخ حافظ الخردواتى وأن أمّها حضرةُ ذاتُ الشهرةِ الذائعةِ الصيت فى العِراك ، وبرغم أنى طالب بالسنة الرابعة الابتدائية ، وياَلها من منزلة كبيرة فى قريتنا الصغيرة المنزوية ، لـكننى هبطتُ من سماء خيالى وأحلامى حينما صدمتْنى تلك الـكلمةُ البشِعةُ فى نظرى ، ألا وهى «خادمة» . . .

أتُصبِح بسيمةُ خادمةً تؤمَرُ فتطيعُ ، وقد تُ ... كلُ وتُهان ، وتعيشُ على فتاتِ الموائد ، وعُنْجُهيّةِ السادة وغَطْرَسةِ أثرياء الحرب . . . ؟ ؟

يا إلهى . إن الحياةَ تكشِفُ عن كثير من أوهامى كلما امتدت بى الأيام . يا لها من مسكينة ساذَجة . . ! ! تُساقُ كالذبيحة بينما تُغنّى وتبتسم وتتحدَّثُ عن عمِّها المزعوم الذى ستذهب إليه فى الإسكندرية ... فماذا تكونُ حالتُها حينما تطأ رجلُها أرضَ الإسكندرية لأول مرة ، حيث الألوانُ والأضواء والصَّخَب ؟

وما موقفُها حين تدخل بيْتَ سيِّدِها ، وبدلا من أن يداعبها ويربت على كتفها ينهرُها ويصيحُ فى وجهها كى تُحضِرَ هذا الشىء أو ذاك ؟ وما شعورُها حينما ترى أولادَ سيدِها ينعَمون بالملابس الزاهية الثمينة ويحظَوْن بالدلال والرِّعاية والعطف بينما هى تتلقَّفُ ما يقذِفون به إليها من ثياب مُستعمَلةٍ وما يوجهونه إليها من تأنيب وازدراء ؟ ؟ فهل ستبكى بسيمةُ وتقول لهم : أرجعونى لأمى وأبى ؟ ؟ وهل سيرِقون لضَرَاعَتِها ونَحيبِها ويحقِّقون لها رغبتها ؟ أم يُلهِبونها بالعِصِىِّ والزَّجْرِ والصَّفعات ، فتستغيث بأخيها سعيدٍ كما هى عادتُها :

— الحقنى يا سعيدُ الأولادُ يضربوننى .

فلا يغيثُها سعيدٌ ولا يلتفتُ إليها ؟ ؟

مسكينة يا بسيمة . . . . !!!

قد يُتاحُ لها البرتقال والحلوى وغير ذلك من الطعام ، ولكن سيكونُ ذلك كله مُرَّ المَذاقِ عديمَ اللَّذَّةِ ، وكأنه مخلوطٌ بالسُّمِّ . وستعلم بسيمةُ حينذاك أن هناك أشياء أهمّ من الأكل ، وأعظمَ من الفواكه . ولن تنسى أبداً حنانَ أمِّها ورقةَ أبيها ، وعطفَ أخيها سعيد ، وهو يدفع عنها الأولاد . . . وقد تجد الفرصة أيضا فترى البحر الكبيرَ الواسعَ ذا الضِّفة الواحدة ، لكنها آنذاك ستشعرُ بالوَحْشة القاتلة ، والوَحدة الأليمة ، وستبدو أمام نفسِها وكأنها قطرةٌ حقيرةٌ ضائعةٌ فى مثلِ هذا البحرِ العريض . وقد ترمُق هؤلاء الذين يسبَحون على الشاطئ بعينٍ حائرة ، وتعجَبُ منهم إذ كيف لا تسترون أجسادَهم ، ويختبئون بعيدا عن أعيُنِ الناس كما يحدثُ فى القرية . . . قد يكون الزمنُ جزءا من العلاج ، وقد يَسْلَسُ قيادُ بسيمةَ بعد مرور بضعة أيام بحكم العادة ، وبالتالى ستخف عواطف أبيها وأمها رويدا رويدا فلا حيلةَ لها فى الأمر ، فاللقمة المغموسة فى العسل قد تتبعُها لقمةٌ أخرى بلا إدام ، وقد لا يخلُفُها شىء على الإطلاق .

وسافرت بسيمة . . . !!

كانت فرحةً منشرِحةَ الصدرِ ، لكن أمَّها كانت تبكى ، وأبوها

توارى عن الأنظار يعالج أحزانه فى خَلْوَته ، وسعيد كان ذاهلا شاردَ البال ، أما أنا فقد شاءت الظروف أن ترانى أمى وأنا أبكى فسارعتْ لتجفِّفَ لى دموعى وهى تقول :

— إن قلبَك طيبٌ مثلَ أمِّك تماما . . . كلُّ شىء يهون يا بنى . . . لا تبكِ .

لكنى لم أجد ما أُجيب به ، وبقِيتُ طولَ اليوم سابحا فى عالم حالك السواد ، لا أكاد أفرُغُ من تهاويلهِ وخيالاتهِ وآلامِه . . .

* * *

ولست أدرى ما العلاقة بين سفر بسيمةَ وإصابتى بالتهابٍ وحرَقان فى الزَّوْر فى اليوم نفسه ، إذ ارتفعت درجةُ حرارتى وأخذت تنتابُنى نوباتٌ شديدةٌ من السُّعال ، ولم يأت الليل حتى كنت أهذى من أثرِ الُحمى . وجلست أمى بجانبى بالتعويذات والمأثورات المعروفة كيما تُذْهِبَ عنى أثرَ الحسَد الذى ظنت أنه هو سببُ دائى ، وكان أخواى الصغيران — ليلى ومحمود — يحومان حولى ، ويتفحَّصان فى وجهى ، بل كانت ليلى تقبل نحوى حاملةً كِسْرةً من الخبز وهى تقول لى : « خذ وكل يا سليمان » .

فإذا ما عجَزْتُ عن الردِّ بكت أمى ، وتناست ألَمها الشديدَ الذى

يسكنُ صدرَها ، وجلس أخواى الصغيران يبكيان مثلها ، أما جدتى فقد جاءت وجسَّت نبضى ، وتحسَّست جسدى لتختبر حرارتى شأن المجربة الواعية ، والحِكمةُ الشعبيَّةُ تقول : « سل مجربا ولا تسل طبيبا » ، لكنْ يبدو أن جدتى كانت مجربةً وطبيبةً فى نفس الوقت ، إذ سُرعان ما شخَّصت الداء وقرَّرت أن زَوْرى قد سكنته « الديبة » . . . الديبة ؟ ؟ ؟ ما شأنها هى الأخرى بزورى وبالحمى التى تُرْعِشُ كيانى كله ؟ ؟ لم أسمع ولم أقرأ فى حياتى مطلقا أن الذئابَ تسكن الأزْوَار كما تزْعُم جدتى الآن ، فهذا شىء لا أصدِّقُهُ ، حتى ولو رأيت الذئبةَ تعوى فى فمى ، لكنَّ جدتى أكَّدت هذا فى هدوء وثَبات لا يدَعان مجالا للشكِّ أو الترددِ ، وكأنما كان قرارُها وحيا مُنَزَّلا ، وإنجيلا لا يقبل النقد أو التحويل . . . وكنت أفكر أن أقولَ لجدَّتى إن زوْرى أصغرُ من أن تسكنه عُصفورة وليدةٌ ، فما بالك بالذئبة ، ولكنَّ الكلماتِ ماتت على شفَتَيَّ حينما سمعتها تقول :

— بسيطة جداً يا أم سليمان . . اسمُ النبيِّ حارِسُه لا يحتاج إلا إلى جزَّارٍ ابنِ جزار يخرج له الديبة من زوره . .

فانتفضتُ فى فراشى كمن لدغته عقربٌ وهتفت :

— جزار ؟ ؟ هذا لا يمكن . . كفى تخريفاً . . الجزار للذبح

البهائم فقط وليس لإجراء العمليات الجراحية . .

فابتسمت جدتى فى ثقتها المعهودة ، ورَمَقَتْنى فى إشفاق . ولعلها كانت تضحك من كل قلبها لسذاجتى الصِّبيانية وقالت :

— لا جِراحةَ ولا أىَّ شىء . . اطمئن . . مجرد تمرير السِّكين على رقبتك .

— يا نهار أسود . . مستحيل . . دعونى أموتُ ولا داعِىَ لهذه المَهْزَلة .

فمرت جدتى بكفِّها الباردةِ العجفاء على رأسى و بدنى ، ثم قبلت جبينى الملتهِبَ وهى تقول :

— لا تخفْ أبداً . . لن تمسَّكَ السكينُ سِوَى بعضِ المس الخفيف الرقيق ، و بذلك تخرجُ « الديبة » ، وتُشْفَى تماما .

فانهمرت الدموع من عينى وأجْهَشْتُ بالبكاء ، ورأسى يكاد ينفلِق من الصُّداع ، وصحت :

— دعونى . . . دعونى . . . لا أريد أن أشفى .

ولن أنسى ما حييتُ ذلك الرجلَ الأشْـيَبَ الذى أربى على الثمانين من عمره الجزار ابن الجزار وهو يدخل علىَّ مُسْتَلًّا سكينا طويلا صدئا ، ثم ينحنى علىَّ بِسحْنَتِه المغضَّنة السَّمراء ، وعينيـه

الغائرتين ، وأنفِه الكبير ، ويدِه المرتعشةِ التي كانت تقبض على السكين . ثم يقتربُ من عنقي ويحاول تمريرَه عليه ، ولكنني انتفضت محاولا التمرد . . . ولكن هيهات . . . فقد أمسكت عدةُ أياد بي ، فاستسلمتُ مُرْغَماً ، لكن جدتي كانت عند وعدِها ، فقد مر السكين الصدئُ مرا سريعا رفيقاً ، بينما كان الرجل يزمجر بصوت أجشَّ كأنه ينبعث من كهف سحيق :

— اخرُجي يا ديبة . . . أنا جزار ابن جزار أذبحُك يا ديبة . . . اخرجي يا ديبة .

ولم يكد ينتهي من عمله — أعني تطبيبَه — حتى وثبت فزعاً من فراشي مُحاوِلا أن أتنسَّم الهواء ، أو أبللَ فمي بقليل من الماء ، فتبسمتْ جدتي ابتسامةَ المنتصِرةِ وقالت :

— بالسلامةِ إن شاء الله . . ألفُ صحة وعافيةٍ تلبَسُ بدَنَك يا سليمان . .

لقد ظنت جدتي — عفا الله عنها — أنني قد شُفِيتُ من جَرَّاء هذا العمل ، فلم أحاولْ أن أخبرَها بأن جسدي ما زال يتقدُ بالحمى ، وأن زَوْري ما زال يلتهب من شِدَّة الألم ، وأن السُّعال لا يبرحُ يهزُّني بشدة . . . لم أحاول أن أخبرَها بكل ذلك ، لأنه ليس في حاجةٍ

إلى تأكيد ، لأنها لن تصدقنى أبداً مهما زعمتُ ، بل ستتهمُنى بالتمارُض والتخنُّث . فمجىء الجزارِ وإخراجُ الذئبة — وإن كنت لم أر ذئبــة تخرج من زورى — كل ذلك دلالةٌ واضحةٌ على شفائى التام . . .

وتسلّل النومُ إلى أجفانى ، فرُحْتُ فى سبات متَقَطِّع ، إذ صحوْتُ فى منتصفِ الليل لأرى أمى قد ارتمت نائمة بجوارى ، وعلاماتُ الإنهاك والألم ما زالت تظهرُ فى تقلّصات وجهها ، وبَصُرْتُ بليلى ومحمود وقد تــكوّرا عند قدمى ، وأنفاسُهما الرتيبةُ تصل إلى سمعى فى غطيط ضعيف ، وأما أبى فقد لمحتُه بطرَف عينى وهو يجلس على الــكرسى الخشبى اليتيم وقد أسند خدّه على راحته ، وهو يهمس فى صوت يشبه النّجْوَى ويقول : « يا رب سُدّ ديونى . . . يا رب لا تذلّنى لأحد . . . يا ربِّ ارزُقْنا واشفِ مرْضانا . . . افرجْها يا ربِّ يا كريمُ . . »

مسكينٌ أبى . . . إنه يفــكر فى ديونِه ليْلَ نهارَ . وصدق من قال إن الديون ذُلٌّ بالنهار ، وهمٌّ بالليل ، وعلة فى القلب والشرايين والأحشاء . . . كان أبى يتعذّب كثيراً بسبب تلك الديون ، فلا يحلو له مأكلٌ ، ولا يصفو له مَشربٌ . لقد أتعبه التفــكيرُ ، فــكثر عددُ

الشعراتِ البيضاءِ فى رأسِه الحليقِ ، ولحيتهِ المهملةِ ، وشار بِه ، وازدادت التغضُّناتُ وضوحاً وعمقاً فى جبهته ، حتى لفائف التبغ التى كان يصنعها بيديه قل عددُها وأصبحت رفيعةً جدا بحيث إنه لم يكد يجذب منها نفسين أو ثلاثة إلا و يجدُها لفظت آخرَ أنفاسها . . .

والشاىُ الذى لم يكن ينساه بين لحظة وأخرى أصبح لا يناله إلا كلَّ بضعةِ أيام ، وهكذا علمنى أبى كيف أتألم وكيف يئن ضميرى تحت وطأة المسئولية منذُ الصغر ، وعلّمنى أن تحتَ ستارِ الليل كثيرين ممن لا يذوقون النومَ إلا غرارا . بل كثيرا من المرضى والجائعين والبائسين . . والحقيقةُ أنِّى كلما تذكرتُ قصةَ ديون أبى ، وجدتُها مقترنةً بصوْت عمى « فريد » ، فما صلةُ عمّى بهذه الديون ؟ ؟

إن عمى الذى كان يعيش معنا فى تلك الأيام ، إنسانٌ عاطِفِىٌّ طيبُ القلب ، لا يكترِثُ كثيرا بمستقبلِ أيّامه ، بل يعيشُ ليوْمِه ، ويحظَى وينعَم بالساعة التى هو فيها دون النظر لأى اعتبار ، وهو أزهرِىٌّ فاشلٌ ترك الأزهر إبان ثورة سنة ١٩١٩ ، فلقد رأى عشراتٍ من إخوانه يسقطون صَرْعَى الرصاصِ البريطانى ، لأن الشعبَ كان ينادى بالحرية والاستقلال . . .

وكان لعمى بالرغم من هذا فلسفةٌ خاصة فى الحياة ، إذ كان يعتقد

أن واجبَ الطالبِ الأولَ هو العلمُ والتحصيلُ ، وليس المظاهراتِ والتجمهرَ والهتافاتِ الصاخبةَ ، فيوم نـكون أمةً متعلمةً واعيةً سنعرف كيف نسير ، ونتجنبُ العثراتِ والزللَ . وكنت أنا شديدَ التأثر بهذا الرأى ، وساعدنى على ذلك ما جُبِلْتُ عليه من وداعة ، وميلٍ للمسالمة والهدوء ، على عكس سعيد حافظ ، لأنه كان ثائرا متمردا مشاغباً طول حياته ، سواء أكان ذلك فى الشارع أم فى المدرسة . . . .

وما أكثر ما كان عمى يسكُب فى أذنى مواعظَه ، ويأخذه الحماسُ الشديدُ وهو يحذرنى من أوهامِ الحب حينما سأكون غريباً فى إحدى المدن لطلب العلم ، ويحذرنى من المغالاة فى عواطفى ومن الإفراط أو التفريط ، لأن ذلك سيكون على حسابِ مستقبلى ونجاحى ، وهذا لا يليق بابن رجلٍ فلَّاح يشقى ويكدح من أجل ولده . . .

وكان عمى يتنهد فى شىء من الألم وهو يجذب نفساً من لِفَافة تبغٍ بين أصبعيه ويقول :

— ابتعد يا سليمانُ بكل قوتِك عن التدخين ولا تقع فى الخطأ الذى وقعتُ أنا فيه ، لقد كنت أشعرُ وأنا أضعُ اللِّفافة بين شفتى أنى صِرْت رجلا حتى لـكأن شارةَ الرجولة هى سحائبُ الدخان التى تتصاعد من فمى وفتحتَىْ أنفى ، وكنت أشـعر أن ذلك أَدْعَى إلى

إكبارى فى أعيُن الناس ، وخاصّة تلك التى كنت أحبها ، وكم كان الفخر يملأنى وأنا أقدم لِفَافة لأحد أصدقائى . . . كانت عواملُ نفسيةٌ غريبةٌ تسيْطِرُ على عقلى يا سليمان وكنت مستسلماً لها ، وكأنَّ إرادتى صارت هباْء ، وأخذت أنحدر قليلا قليلا قليلا بعاملين هامين : أولهما لأنى أعيش غريبا بعيدًا عن القرية بلا رَقابة أو عِناية ، وثانيهما فِرْقَةٌ من إخوان السوء ، حتى أصبحتُ لا أستطيع أن أفارقَ التدخينَ والأفيونَ والحشيشَ ، وهنا علمت بعد فواتِ الأوانِ أن الرُّجولةَ الحقّة هى ألا تستعبدك عادةٌ مهما قويت ، وألا تستذلّك نزوةٌ أو شهوةٌ مهما احتدمت ، بل كن إنساناً فى حدودِ الإنسانية الطبيعية السليمة لا فى غِمار الشُّذوذ والانحراف . . .

ثم يبدو الحزن على وجه عمى ويقول :

— قم يا سليمان وقل لوالدتك إنى أريدُ فنجاناً من القهوة .

ثم يتحسس جيبه ، ويخرج ورقة صغيرة مفضضة ويحاول فتْحهاَ بعناية بالغةٍ ، ويستخرجُ منها شيئاً بُنِّى اللون ليلوكه فى فمه ، وأعتقد أن هذا الشىء ما هو إلا قطعةٌ من الأفيون . . .

لم يكن مع عمى نقودٌ لينفق على التدخين والأفيون فكان يلجأ إلى أبى ليقترِضَ منه ، أبى كان محدودَ الطاقة ، فقيرَ الموارد ، فعمَد

عمى آخرَ الأمرِ إلى بيع بضعةِ قراريط من أرضه — وكان يملك فدانًا ونصف فدان — وارتبك والدى أشدّ الارتباك . .

فالعارُ كلُّ العارِ فى أن ينزلَ غريبٌ على أرضنا أو يشتريَها ، وأبى يظنُّ أن الأرضَ قطعةٌ منا ، وجزءٌ من شرفنا وكرامتِنا ، أو حرمٌ مقدّسٌ لا يصح أن يطأه غريبٌ ، بل إن الموت أهونُ من ذلك عند أبى ، فماذا يقول أهلُ القرية حينما يُشْطَرُ حقلُنا إلى شطرين ، ويشاركنا فيه دخيلٌ على الأسرة ؟؟؟ إنهم يُسَمُّون ذلك عقوقًا وإهمالا وفضيحةً . . . لقد وقع أبى فى حيْرة قاتلة ، فعمى « فريد » يريد مالا وأبى ليس معه جنيهٌ واحد ، وعمى لا بد أن يحصُلَ على المال ، لذلك عوّل على عرض بعض الأرض للبيع ، وقرر أبى شراء الأرض حفظًا لكرامة الأسرة ، ووفاءً لتقاليدها للمحافظةِ على كل شبر من أرضنا ، وامتدت يدُ أبى إلى الناس كى تقترضَ منهم المال بالربا الفاحشِ ، وكان موسى أبو عفر أسرعَ هؤلاء جميعا لمد أبى بما يشاء من مال . . وموسى هذا تاجر كان يخزُن بعض البضائع قبل الحرب وفى أثنائها ، فما إن تأزّمت الحالةُ ، وانتشر الغلاء ، وراجتِ السوقُ السوداء حتى أخرج مخزونَ بضائعه فارتفع من رجل فقير مغمور إلى تاجر كبير يملك ثلاثة آلاف جنيه أو أربعة ، وظلت الديون تُلْهِبُ أبى بسياطِها ، ويتراءى

له شبحُها المخيفُ ليلَ نهارَ فلا يكاد يفرُغ من شىء منها ، حتى يأتىَ عمى — سامحه الله — ويعرضَ بضعة قراريط أخرى للبيع ، فإذا لم يشترها أبى فستكونُ من نصيب عشراتٍ غيرِه ، فلا مَناصَ إذاً من الاستدانةِ من جديد ، ولا إفلاتَ من مُقاساة الآلامِ المختلفة . . .

وكان عمّى برغم هذه الآلام التى يسببها لنا عطوفاً كريما ولا يحاولُ إنكارَ ما يقترفُه فى حقنا ، بل كان يبكى أحيانا ويقول :

— ماذا أعمل ؟ ؟ هذه إرادةُ الله . . ربُّنا يتوبُ علينا .

وكانت جدتى تأتى إليه وتقول :

— يا ولدى يا حبيبى ارحم أخاك . . . ارحم عبدَ الدايم صاحبَ العيال . . . وارجِــعْ لنفسِك . . . غداً تندمُ يا فريد حينما تروح السَّــكْرةُ وتأتى الفِــكْرة .

فيطأطئ عمى رأسه فى غم شديد ، ويبدو وكأنه غارق فى بحر لُجِّىٍّ ، عاصفِ الريح مضطرب الأمــواج لا أملَ له فى النجاة ، ويهمس مهموماً :

— أنا أشدُّ منكم حزناً وأسفاً .

فتقول جَدَّتى : وكيف تعيشُ بعد أن تأتِىَ على كلِّ ما تملكُ من قراريط ؟ لم يبق لك إلا القليلُ .

— سأخرُج من هذه القرية ولن أعودَ إليها أبدا . . سأبحثُ لنفسى عن عمل . . أى عمل مهما كان لونه ومركزه .

— وإذا لم تَجِدْ عملا يا فريد . .

— المهم أنى لن آتِيَ إليكم مهما كان الأمر . . . سأموت شريداً جائعا ولن أُرِيَكُم وجهى ، فقد تسببتُ لكم فى متاعبَ كثيرةٍ ويكفيكم هذا . . . إنى أستحق كلَّ ما سيحدث .

وبرغم كل هذا فقد كان عمى يعيش فى البيت كواحد منا ، يأكل ويشرَبُ وينامُ فى البيت مع تضاؤلِ ميراثِه وحقوقِه يوما بعد يوم ، وقد فعل عمى خيرا بعدم موافقته على الزواج مع أنه تجاوَز عامه الخامسَ والثلاثين ، إشفاقا على مستقبلِ أسرته الغامضِ الشائِك . .

الفصل الرابع

— السلامُ عليكم يا عبدَ الدَّايم .

— وعليكم السلامُ ورحمةُ الله وبركاتُه . . . تفضل ادخُلْ يا « مرسى » . .

ودخل « مرسى أبو عفر » المرابى المعروف ، وقد رسَم على ثغره ابتسامةً مفتعَلة صفراء ، وأخذ يتهادى فى مِشيته التى تُنبِئُ عن حَذَر ، وتمَّن ودهاء ، يؤكد ذلك عودُه القصيرُ النحيف ، ونظراتُه التى تَعيثُ هنا وهناك ، وتنحنُحُه التقليدى . . . وكان أبى كلّما رأى مرسى ازداد وجهُه شحوباً وغماً ، واختلجت عضلاتُ وجهه من الغضب المكبوت ، وانتفض جسدُه كلُّه من الغَيْظ الدَّفين ، وبان فى عينيه الضِّيقُ والتبرُّم . . . كان مرسى كالحنْظَل الشديدِ المرارة ، وكان أبى مُرْغَماً على تجرعه . . .

— سلامات يا عبد الدايم .

فرد أبى فى إيجاز : اللهُ يسلّمُك . .

— الدفع وجب يا زينَ الرجال .

— أبداً . . باقى شهر .

— حرامٌ عليك يا عبدَ الدايم . . والله والله مال ناس ، ولا يخصنى منه مِليم . . .

ورمَقه أبى بنظرات مُشتعِلة ، لـكنّه كظم غيظه وسكت ، وأخذت تتردّد فى ذهنه تلك الـكلمة التى نطق بها مرسى : « حرام عليك يا عبدَ الدايم » . . . يا للسخرية والمهزلة ! ! ! أحرام على أبى ؟ ؟ أحلال على مرسى أن يمتصَّ دماءنا ، ويُقرِضنا بالربا الفاحش ، ويطارد أبى من وقت لآخرَ حتى يكدِّرَ عليه عيْشَه ، ويؤرِّقَ له نومه ؟ ؟ وماذا أجرم أبى ؟ ؟ ألأنه مستسلم كالضحِيَّة ، وصابرٌ برغم ما به ، متحمل لمرسى وكلام مرسى . . . ! !

ومن مرير السخرية أن مرسى يزعُم أن المـال ليس مالَه ولـكنه مال ناس ! ! ! والأدهى من ذلك أنه يُقسم بالله ثلاثَ مرات ليؤكد قسَمَه ، أو على الأصح يؤكد كذِبه . . . وبعد فترة صَمْت قال أبى :

— لا داعِيَ لمثل هذا الـكلام . . . سواء أكان مالَك أو مالَ النْاس ، فأنا لا أماطِل أحداً ، وسأردُّه لك بالمِليم الواحد ، فالقطنُ ما زال متكدِّساً كما ترى ، والحرب شَلَّت حركة التجارة ، والإنجليز خرَبوا بيوتنا . . .

— اللهم خرّب بيوتهم . . .

كان مرسى يلقى بهذه الجملة الأخيرة على سبيل المجاملة والمجاراة لا على سبيل العقيدةِ والإيمان بها ، فهو يعلم أن الحربَ كانت خيراً وبركة عليه ، فقد هيّأت له السوقَ السوداءَ ، وعلمته أفضلَ وسائلِ الاحتكار ، وعرفته كيف يصل إلى ذوى السلطان ممن يُشرفون على توزيع التموين فى البلاد ، فيرشوهم ويُهاديهم ويبنى ثروةً على الخداع والسُّحْت ، وعلى أشلاء الضحايا . فليس من المعقول أن يتمنّى مرسى — صادقاً — خرابَ بيوت الإنجليز ، لأن فى ذلك خراباً لبيته ، وانقطاعاً لمكاسِبه وموارِده . .

وكثيراً ما حدَّثتُ نفسى قائلا : « ماذا يحدث لو أن كلَّ إنسان فى مصر رفض أن يمُدَّ يده للإنجليز أو يتعاونَ معهم على الإطلاق ؟ ؟ أكانوا يقيمون القواعدَ العسكريةَ ، ويطيبُ لهم المُقام بيننا ، ويتخذون منا حُلفاء ، ويجعلون من بلادنا سوقاً رائجة لتجاراتهم ومنتجاتهم ؟ ؟ أكان من الميسور أن يجد المستغلون — أمثال مرسى — واللصوصُ الحمايةَ والتشجيعَ فيُثْرون ، ويتربَّعون على القِمّة ؟ ؟ » أسئلة تراودنى وأنا جالس مع والدى ومرسى ، فأجد أن الإجابةَ عنها مملوءةٌ بالصُّعوبة والإشكالات . . .

– على كل حال يا عبدَ الدايم . . . إذا لم تستطعْ بيْعَ القطن فأعتقد أن بيعَ الجاموسةِ قد يساعدُك كثيراً .

فضغط أبى على أسنانه كمن يحاول أن يُوقِفَ تياراً عارماً من الغضب ، وقال :

– أشكرُك على نصيحتِك . . لكنْ لى أن أتصرّف كيف أشاء ، وخصوصاً أن بيننا و بين الميعادِ شهرًا كاملا كما قلت لك . .

– هل تضايقْتَ منى يا عبدَ الدايم . . ؟ ؟ أنا لا أقصد إيلامَك واللهِ العظيم . .

– انتهينا . . . لا داعِيَ للكلام فى هذا الموضوع .

وكان معنى ذلك أن وضع ختاما للزيارة ، فانصرف مرسى والابتسامةُ المتصنّعة الصفراء ملتصقةٌ على ثَغره ، والمكر والدهاء يُطِلّان من مِحْجَرَيْه . . . لم تكن هذه الزيارةُ بالأولى من نوعها ، بل إن مرسى لا يفتأ يتردّد علينا من وقت لآخر كالشَّبَح الممقوت ، لتذكّرَنا طلعتُه البهيةُ بما تراكم علينا من ديون ، وليقلبَ أويقاتِ الراحةِ والمسرّةِ التى نختلسها اختلاساً إلى نَكَدٍ وحزن . وكان هو يشعر بهذا فيما أعتقد ، لكن لعله كان يجد من اللذةِ والسعادةِ ما لا يستطيع مقاومَتَه ، ولقد كرر على سمع والدى أكثرَ من مرّة

حكايةَ بيع الجاموسة ، فقد كان من المعروف أنها تُدِرُّ كَمِّية كبيرة من اللبن ، وكانت أمى تبيع الجُبْنَ والسمن ، فتجد بذلك مصدراً طيِّباً للقروش القليلة التى لا غنًى عنها . لكن يظهر أن مرسى قد مالت نَفسُه لحرماننا من هذه الجاموسة والاستمتاع بلبنها الكثير ، ولم يكن يكفيه ما نحن فيه من دُيون ، حتى لكأن الطمعَ والشراهة أصبحا من مُسْتَلْزَمات حياته الجديدة . . .

كان الله فى عَوْن أبى ، فقد كَظَم غيظَه ، ولم يرفعْ فأسه ليحطمَ بها رأسَ هذا المرابى الطامعِ الذى لا تعرف الرحمةُ إلى قلبه سبيلا ، ولا الذوقُ إلى حياته طريقاً . . . لكن لا بدَّ أن يطأطئ أبى رأسه للعاصفة حتى تمُرَّ بسلامٍ ، لعل الله يتداركهُ بعنايته .

* * *

وحان موعدُ افتتاح الدراسة ، وكان على أبى أن يُعِدَّ لى الملابس المدرسية المطلوبة ، وكان الأمر أصعبَ من أن تَحُلَّه نصفُ كيلة حبوب تبيعها أمى أو كمية من الجبن أو السمن نعرضها فى سوق القرية ، لأن ما بقى من الحبوب لا يكاد يكفى ، ولأن شِراء حُلّة جديدة ليس بالشىء الهيِّن . . .

وأخذ أقرانى فى القرية يذهبون إلى المدينة واحداً بعد آخر ،

ويعودون وفى يدهم الملابسُ الجديدة ، فكنت أتحاشى النظرَ إليهم وأفلِتُ منهم كلما سألونى : هل اشتريتَ ملابس أم لا ؟ لكنى أصبحتُ بين نارين ، فحالتنا الماليةُ غيرُ خافية على ، وفى نفس الوقت ما ذنبي أنا حتى أُحْرَمَ من الملابس وأتعرَّضَ للغَمْز والتجريح والألمِ النفسى بين زملائى ؟ . .

وخُيِّلَ إليَّ أن حزنى كان أشدَّ من أيِّ إنسان آخر ، فالنار لا تحرق إلا القابضَ عليها ، ولكنى كنت مخطِئا فى ظنى ، فقد سمعت أمى تقول فى تأثر :

— يا عبدَ الدايم . . . سليمانُ يظهر أنَّه متأثر . . . ألن تُحْضِرَ له بدلة ؟

— كيف أتصرَّف ؟ ؟ قولى . . . أأبيع نفسى ؟ ؟ أأخنُقُ المال ؟

— مسكينٌ يا ولدى . إنه لا يتكلم ، لكن يظهر على وجهه الألم الشديدُ .

— رَبُّنا لا ينسى عبيدَه يا أمَّ سليمان . . . . ستُفْرَجُ إن شاء الله.

وجاء اليوم الأول للدراسة ، وقَبَعْتُ أنا فى البيت أبكى بشدة ، وهل كان فى استطاعتى أن أفعلَ غيرَ ذلك ؟ ؟ . . كنت أشعرُ بالألم يمزِّقُ نِياط قلبى ، والحزنِ يفْرى كبدى بلا رحمة . . . فزملائى قد

خرجوا أفواجاً فى طَرَب ومَرَح إلى المدرسة . كنت أقف فوق سطح منزلنا فى مكان بحيث لا يرانى منه أحد ، وأراقبُهم وهم منطلقون خارجَ القرية فى الطريق الموَصِّل للمدرسة ؛ لأن المدرسة كانت تقع فى قرية مجاورة لنا . وشعَرْت حينذاك بالِحرمان ، و بشىء من التمرُّد على حظِّى العاثر .

وقد كان لهذه الحادثةِ العابرةِ أثرٌ كبيرٌ فى نفسى ، فقد جعلتنى أقدر الوقت وأنتهزُ الفُرَص ، وأغالى فى تقديرى لقيمةِ كلِّ عمل مهما كان ، فلن يخالجنى أدنى شكٍّ بعد ذلك فى أن أبذلَ غايةَ جهدى ، فلو أتيحت لى ظروف طيبة اليوم فمن يدرى ؟؟ لعلها تنقلبُ إلى النقيض فى اليوم التالى . ولا شكَّ أن الشىء الذى يُنَالُ بالعرق والكِفاح يكون أدعى إلى التقدير والاعتزاز مما يأتى سهلا ميْسورا ، ولذلك تعلمت أن أقدِّر الأشياء ، لا بما تعارف عليه الناس من ثمن لها ، ولكن بما بذَلْتُ من طاقةٍ فى سبيلها . . .

أمّا أبى فلم يكلمْنى مطلقاً فى ذلك اليوم ، بل ولم يأت من الغيْط ليتناولَ طعام الغداء ، ولعله احترم عواطفى ودموعى ومشاعرى اليائسة ، فآثر ألا يرانى لأنه لم يكن فى حاجة إلى مَزيد من الألم لنفسه ولى أيضاً .

وفى المساء عاد عمى « فريد » . . .

عاد وفى يمينه شيء مكوّر لم أتبينه فى غبش الليل .

ودخل ، ثم فتحه أمام أعيننا ، لقد كان سروالا طويلا من الصُّوف الممتاز ، لـكنه مستعمَلٌ ، ويصلُح لرجل كبير لا لطفلٍ صغير مثلى ، لـكن كانت خُطَّةُ عمى فريد واضحةً بلا غموض . . .

لقد أخذونى إلى أحد « الخياطين » فى القرية ، و بقدرة قادر خلق الرجلُ من السروال الطويل سِرْوالَيْن قصيرين . . . و برغم أنه لم يكن على دِراية بحِياكة مثلِ هذا النوْع من الملابس — لأنه يشتغل فى الجلابيب البلدى ومثيلاتها — إلا أنه أعمل فيه المِقَصَّ ، و بقليل من التحوير أخرج لى ما أراد أبى وعمى . . .

ألم أقل إن عمى رجلٌ طيّب برغم ما هو متورِّط فيه من أفيون وحشيش و إفلاس مُطَّرِد . . ؟ ؟

لـكن هل حل إشكالُ البدلة بما يتناسب مع الحقيقة ؟ ؟

إن المدرسةَ تشترِطُ زِيّاً معيناً . .

ثم أنا . . . ! ! ! إن هناك شعوراً قاسيا يعتصِر فؤادى ، لأنى أعيش على الإحساناتِ والتسوُّل . وماذا يكون موقفى حينما أقابل ذلك الذى جاد علىَّ بِسِرْواله حتى أستخرجَ منه سروالين ؟ ؟ هل

أمشى شامخَ الأنفِ رافعَ الرأس كما هى عادتى ؟ ؟ وهل أفخرُ بملابسى الجديدة شأنَ كل الطالبة ؟ لا شك أن الخجل سيغمرنى من قمة رأسى إلى أَخْمِص قدمى ، وكلما نظر إلى أحدٌ سيبدو لى أنه يحقق ويمعن النظر فى سروالى ، وأنه يعرف حقيقته ، وكلما تهامس اثنان لن يكون موضوع الهَمْس — فيما أحسب — إلا هذه السبة التى لا مفر منها .

سامحك الله يا عمى . . . ! ! ! ألم تجد حــلا غيرَ هذا ؟ ؟ أكل ما فى الأمر أن تتصيَّد لى سروالا ، لتَسُدَّ حاجتى بهذه الطريقة التى أفضِّل العُرْىَ عليها ؟ ؟ ألا تعلم أن لى قلباً وإحساساً ، ونفسا تتألم . . تتألم بشدة وتبالغ فى ذلك ؟ ؟ لــكن الحمدُ لله . . . هذا كلٌّ ما نستطيعه ، لتوافقْ المدرسة أو لا توافق على هذا الزى ، وليسخرْ زملائى أو لا يسخرون ، ولتتمردْ نفسى الأبيةُ أو تخضع ، فلابد أن أذهبَ إلى المدرسة ، وأواصلَ دروسى وأبنى مستقبلى الذى يريدُه لى أبى ، وينفقُ من أجله ما يستطيع من جهد .

* * *

ومرت الأيام كشأنها عندنا — نحن معشر القرويين — مزيجاً من الـكفاح والصبر والأمل ، وكان حديثُ الحرب فى كل مكان ، ولا كلامَ للناس إلا عن الغلاءِ الفاحش والقطنِ الذى بارت تجارتُه ،

والمهاجرين الذين يفرّون لِوَاذاً عن المدن التى أقضت مضاجِعَها الغارات ، والشيخ حافظ شيحا عاد إلى سابق عهده من اهتمام بالسياسة وبأخبار هتلر وغزواته المونقة . سمعتُه وهو يدردِش مع أحد أصدقائه وكان يقــول :

— لست أدرى من أجل أىِّ شىء نحارب ؟ ؟ هل نحن نــكره الألمانَ حقاً بحيثِ يدفعنا الــكره والحقد لِشَنِّ الحرب عليهم ؟ ؟ إن كان الأمر كذلك ؛ فالإنجليزُ أجْدَرُ بكل مَقْت وكُره .

— يزعم زعماؤنا أننا ندافع عن العالم الحر ، ونقف فى وجه النازية والديكتاتورية الألمانية . . إن بناءَ الديموقراطية فى خطر ويجب أن نحمِيَه . .

فيثور الشيخ حافظ ويضرب كفاً بكف ويقول :

— أحوالٌ تُجَــنِّن . . . أين هذا العالمُ الحر ؟ ؟ هل فى مصر حرية حتى ندافعَ عنها ؟ إن الإنجليز هم كلُّ شىء فى البلد ، وهل العراقُ التى أرادت انتهاج سياسة حرة فأعلن تشرشل عليها الحرب — هل هى الأخرى تستمتع بالحرية ؟ ؟ والجزائر ، وسوريا ، ولبنان ، وإيران ؛ كل هذه الدول ، هل تنعم بالحرية ؟

ويرد صديق آخر فيقول :

— صدقت يا شيخ حافظ ، نحن لا نحاربُ من أجل أى شىء ، لا نعرف لنا غاية .

— بل ندفع ضريبةَ الذُّلِّ والاستعباد . .

ويَبْلَعُ الشيخ حافظ ريقَه ، ويجففُ عرقه ، ويتلفت يَمْنةً ويسْرةً مخافة أن تكون « خضرةُ » آتيةً إليه فتنغص عليه مجلسه ، ثم يقول :

— وأين هى الديموقراطية . . ؟ يا حبيبى البلد كلها إقطاعٌ ، وتُجّار ، وسادَةٌ وعبيدٌ . . ! ! ، مفهوم ؟ ؟

ثم يضحك فى سخرية مُرَّة ويستطْرِد :

— « أحبُّ الحُسَيْنَ ولكنَّما لسانى عليه وقلبى معه »

فيرد آخر قائلا :

— أتقصد أن المصريين يُحبُّون هتلر ؟

— طبعاً . . إذا جاء رجلٌ ليخلِّصَنى مما أنا فيه من بؤس ، هل أكرهه ؟ ستكون حماقة منى . . . وعلى كل حال لم يعد خافيا على أحـــد أمرُ تلك المظاهرات التى قامت فى القاهرة تهتِف لهتلر تستنجد به . . .

— آه يا شيخ حافظ وألف آه . . . ما زال هناك بعضُ الأغبياء

الذين يؤمنون بوُعود الإنجليز ومحالفتِهم ، لـكأن ثمنَ المحالفة أن نـكون أذناباً و بقرةً حلوباً لهم ، وسياجاً لإمبراطوريتهم التى لا تغربُ عنها الشمس . . .

— أتعرف يا صاحبى متى يعرفُ الناس عدوَّهم من صديقهم ؟

— متى ؟ ؟

— حين يفتحون تاريخَهم ويقرءون ويعرِفون من جَنَى على وَحْدتهم ، ومن حطَّم كتلتَهم العربية ، وجعلها دويلاتٍ صغيرةً مُبَعْثَرَةً ، من السهل التهامُها ، ولا تقوى — مفردةً — على صدِّ عدوان .

— لعنةُ الله على الإنجليز . . . لقد رمَوْنا بكل داء وَبيلٍ فى شتَّى مرافق حياتنا . . .

وهز الشيخ حافظ رأسَه فى أسَفٍ عميق ، وبان فى عينيه شبحُ دمعةٍ حائرة وهو يقول :

— وشرَفِنا . . . وأعراضِنا التى أصبحت مغمزاً لـكل غامز ، وعُرْضةً للقِيل والقال ؟

فقال أحدُ السَّامعين :

— ماذا تعنى يا شيخُ حافظ ؟

— أقصد نساءنا اللاتى يبعْن و يشترينَ لدى جنودِ الامبراطورية التى تدافع عن الحريات . . . كم من خادماتٍ وراقصاتٍ داعراتٍ خلبهن الإغراء ودفعهن العوزُ فوقعْنَ فريسةً سهلة للفُجور . . . وهكذا تتغلغل مفاســدُ الإنجليز فى صميم خصُوصيِّاتنا وأخلاقِنا وتقاليدنا العريقة .

كنت أستمعُ إلى الشيخ حافظ بكل مشاعرى ، وكان الغيْظُ يأكل قلبى أكلا حينما يبسط الشيخ حافظ مؤامراتِ الإنجليز ومفاسدَهم فى بساطة ويُسْر ، وكنت أعجب من سر سكوتِنا عنهم ، وإيوائنا لهم ، بل وتفاخرِنا بصداقتهم ، ولم أكن أدْرِكُ تمـاما الخطَّة الخبيثة التى يسيرون عليها لهدم معنوياتِنا وقوميتِنا وحرياتنا وحمايةِ الملك والإقطاع ، ولـكن عندما سمعت عن جنايتهم على الأعراض ، وعن قِصص بائعات الهوى من الراقصات والخادمات ، انتابتنى رَجْفَةٌ شديدة ، وعلى الأثر وثبَتْ إلى ذهنى صورةُ « بسيمة » . . . ! ! !

بسيمةُ التى أصبحت خادمةً هى الأخرى ، وتساءلت بينى وبين نفسى فى لهَفة : أيكون مصيرُها الانزلاقَ والزللَ كما حدث لعشراتٍ غيرِها . . » إنه خاطرٌ حالكُ السوادِ يخيفُنى جداً ، بل يملأ قلبى بالبشاعة والفظاعةِ . . إذن لا فرقَ بينَ البشر والذئاب ، كلا النوعين

حيواناتٌ شرِهَةٌ لا همَّ لها إلا العبثُ وقضاء المـآربِ واللذاتِ . .

بسيمةُ . . البريئةُ . . . الصغيرةُ . . . الحلوةُ ، أتصبح عُرْضَةً للضعة ؟ ؟ لشد ما يثيرنى ويؤلمنى هذه القسوةُ التى يضطرم بها قلب الحياة . . . ! ! ولم أستطع أن أواصلَ استماعى لأحاديثِ الشيخ حافظ وأصحابه ، بعد هذه الخواطرِ التى عصفت بى ، واجتاحت كيانى كلَّه ، فتركت فى جسدى ما يشبه وَخْزَ الإبر ، وفى روحى ما يشبه جَمْرَ النار . وتمنيت آنذاك أن تقذفَ الأقدارُ بأى انجليزىّ بين يدىّ ، كى أَشْفى غليلى فأمزّقَه إرباً إرباً ، وأنثر لحمَه وعظامَه للـكلاب . . . وما أعجبَ أحلامَ الطفولة التى تتخيل وتُهَوِّل فى الخيال ، وتبنى وتهدِم ، وتَصُول وتَجُول كما كان يفعل أبو زيد الهلالى ، وسيفُ بن ذى يَزَنَ اليمانى . . لقد كانت الظروفُ تأبى أن نُزاوِل ما يعتمِل فى صدورنا ، فنهربَ من الواقع إلى دنيا الخيال كى نَشْطَحَ فيها حسْبما يحلو لنا ، لأن ذلك يجلِب لنا شيئاً من الراحة وقليلا من الهدوء ، وحينما يمَّمْتُ وجهى شَطْرَ منزلنا سمعت الشيخَ حافظاً يقول :

— الفاتحةَ يا جماعة أن يأخذَ الله باليدِ ، وينصرَ هتلر . . . الفاتحةَ . . . فتمتم الجميعُ قائلين : « الفـاتحةَ على أولاد الحرام والظَّلَمَة . . . » .

* * *

كنا عائدين من المدرسة فقلت لسعيد :

— ما بك يا سعيد ؟ أراكَ سريعَ الغضب ، شديدَ الثوْرة هذه الأيام ؟

— إن طبعى هكذا .

— لكن لم تكن بهذه الصورةِ العنيفة !

— فِعْلا ، أنا تعبان . . . متضايقٌ . . . لم أعُدْ أحتمل كلمةَ من أحد .

— ولم كلُّ هذا ؟

فمصمص سعيد شفتيه ، واكتسى وجهُه بنِقابٍ من الحزن ، وحاول أن يتكلَّمَ ، ولكنَّ لسانَه تعثَّر ، واحتبست الكلمات فى فمه وأوشك على البكاء ، فقلت :

— تكلمْ يا سعيد ، ألسنا أخوين لا فرقَ بيننا ؟

فتشجَّع سعيد وكوَّر قبضتَه مهددا وقال :

— حسن بن مرسى أبو عفر قال لى بعضَ الكلام الفارغ هذا الأسبوع .

— ماذا قال بالحرف الواحد ؟ ؟

— كلامٌ لا يقال ولا يصحُّ أن أنطِقَ به . .

— ألهذا الحدِّ يا سعيد ؟

— نعم ، لقد طعننى فى الصَّميم . . لا بدَّ أن أربيِّه مهما كان . . سأقتلعُ له عينيه وأجعلُه قعيدا كفيفا . . إنه إنسان قذر .

كانت ثورةُ سعيد من العنف بحيث أشفقتُ عليه من التمادى فيها ، فقلت :

— لابد أنه غيران منك لأنك أولُ الفصل ، أما هو فراسبٌ المرة الثالثة فى الابتدائية . . . يجب أن تدعَه يأكل نفسَه وينفجرُ من الغيْظ .

— لقد صفعنى يا سليمانُ صفْعةً شديدة . . . لابدَّ من الانتقام منه .

— صفعك ؟ ؟ كيف ذلك ؟ ؟ إنه لا يجرؤ مطلقا ، أنا أعرِفه جبانا رِعديدا لا يستطيع أن يرفَعَ يده فى وجه أحد .

— لا أقصد أنه صفعنى بكفه . لـكنه فعل ما هو أقسى من ذلك فى نظرى ، لقد مادت بى الأرض ولم أعرِف كيف أتصرفُ ساعتئذ .

— ماذا جرى ؟ ؟

— قال لى : ما هــذه النفخةُ الـكذَّابة . . أنت أختُك خدَّامة . . . ! ! !

فصِحت فى دهشة : ماذا تقول ؟ ؟

فقال سعيدٌ فى أسف : هذا ما حدث . .

ولأول مرة أخالف طبيعتى الهادئةَ الوادعةَ ، و يُفْلِتُ منى زِمامُ نفسى ، فتموج رأسى وتفورُ بشتى الانفعالاتِ والأفـكارِ فأقول :

— لا بُدَّ من تأديبه فعلا . . . بل سأقطعُ رقبتَه . . إنه نذْلٌ جبان مِثْلُ أبيه .

أما سعيد فقد سكت فترة قصيرة — و يبدو أنه هو الآخرُ خالف طبيعتَه الثائرة — فقال فى نبرات حزينةٍ مختلِجة :

— لا يا سليمانُ . . لن نمُدَّ يدنا عليه ، ودعه هذه المرة حتى لا يفتضِحَ أمرُنا . . ماذا لو ضربناه ؟ ؟ سيعرف من لم يكن يعرِف أن أختى خادمةٌ ولن يغفِرَ لى كونى أولَ الفصل . بل سيكثرُ عددُ الشامتين والكائدين . . . سأقبل المذَلَّة هذه المرة . . . وسأتركُهَا تمر ، ولعلى يوما مَا أستطيعُ أن أعطِىَ حسنَ بنَ مرسى درسا قاسيا . . . درسا لا ينساه . .

كان كلامُ سعيد منطِقيا معقولا ، بل كان أ كبرَ من سنه وفهمه ، لـكن يبدو أن الأحداثَ والمُلِمّاتِ كانت تعمل عملَها فتهبهُ الرأىَ الصائبَ والحُـكم السليم ، فلم أملِكْ إلا أن أطأطىء رأسى موافِقا ، ثم أحاولَ أن أواسِىَ « سعيدًا » وأخفِّفَ عنه بعضَ ما نزل به من

إهانات ، وأمسحَ ما علق بكرامتـه من أذى ، وهَيْهات . .

وحاولتُ أن أغيرَ دَفَّة الحديث فقلت :

— يجب أن نجتهد هذا العامَ يا سعيد ، ولا بد أن نحصُلَ على درجات عاليةٍ حتى نضمنَ التعليمَ الثانويَّ بالمجَّان .

— التعليمُ الثانويُّ ؟ ؟

— أجل . .

— إنك واسعُ الأحلام .

— ماذا ؟ ؟ هل تحولتَ عن هدفك ؟ ألم تقل إنك تريد أن تـكونَ ضابطا مثلَ جـدِّك الذى أراد أن يطردَ الخديو — هو وعرابى — ووقف فى وجه الإنجليز ؟ ؟

— يظهر أن أبى ينوى اختصارَ الطريق بالنسبةِ لى ، وربما لا أجـدُ مناصا من ذلك ، بل تستطيع أن تقول إنى أميل إلى هذا . . .

— إنك تُدْهِشُنى بما تقول . . .

— لن يستريحَ ضميرى ما دمتُ أُرهِق أبى وأُثقِل على أسرتنا بهذه الطريقة ، فإذا نجحتُ فى الابتدائية هذا العام فسأذهب توًّا إلى المحلة الـكبرى ، ويقول أبى . . إن حاملى الابتدائية يأخذون

مرتباً لا بأسَ به ، قـد يربو على عشْرَةِ جنيهات .

— لا تتـكلمْ مثلَ هذا الـكلام .

— وهل يعجبُك أن تبقى أختى بسيمةُ خادمةً ؟ ؟

وهكذا كان يتحدث سعيدٌ وكأنه ليس أمامه أن يختار ، بل عليه أن يدخل باباً واحدا فيه النجاة وفيه الخلاصُ لسُمعته وسُمعة أسرته وأخته ، و إنى لأفـكر فى سعيد — أوّلِ الفصل — الذى قد تُرغِمه الأقدار على قطع تعليمه ، وأفـكرُ فى حسنِ بنِ مرسى أبو عفر صاحبِ الرسوب المتوالى ، فيدور رأسى من العجب فأقول : « لعلَّ لِلهِ فى ذلك حِـكَماً تخفى علينا » . وأطوى قلبى على همومى وأمضى فى طريقى .

قلت لسعيد : لا تفـكرْ فى ذلك الآن ، علينا أولا أن نجتهدَ كسابق حياتنـــا الدراسية ، ونحاولَ تحقيقَ أقصى ما يمكن من النجاح . .

— نظرُك فى محله . سيكون لك ذلك إن شاء الله .

ولستُ أدرى ما الذى جعلنى أتذكر فى مساء هــذا اليوم « بسيمة » وأتذكر غضبَها منى ، ونفورَها حينما لم أُحْضِرْ لها الحلوى من ميت غمر ، وأخذت أستعيد الصورةَ بكاملِ خطوطها وظِلالِها ، وأنا أجد فى ذلك راحةً عجيبة . والذكرياتُ قد تـكون مصدراً للراحة

مثلَ الأحلام حينما نَفِرُّ إليها هرباً من آلام الواقع ومآسيه . لكنى قلت مُحاوِلا خداعَ نفسى :

« لا بد أنها الآن قد عافت الحلوى من كثرةِ أكلها فى الإسكندرية » وقبل أن آوِىَ إلى فراشى ، تهادى فى خاطرى سؤالٌ :

« متى تعود بسيمة ؟ ؟ كم اشتقت إليها و إلى غضبها منى . . . ! ! ! »

الفصل الخامس

وكان لابدَّ لاستهتار عمّى من نتيجة . . . نتيجةٍ مؤلمة يدفع فيها الثمنَ غالياً جداً ، لقد جاء عمى إلى أبي وقال :

— أنت تعلم يا عبدَ الدايم أنه لم يبق لى غيرُ ستةِ قراريط .

— نعم اعلم هذا .

— وأعتقد أن إيرادَها لن يسُدَّ حاجةَ شخص مِتلافٍ مثلى .

— لا داعِيَ لمثلِ هذا الكلام ، أنت أخى ولا فرقَ بيننا ، وسواء أكان لك ستة قراريط أم أكثرُ أو أقلُّ فهذا لا قيمةَ له عندى بالمرة ، سنظلُ نأكلُ ونشربُ ونعيشُ معاً ، ونشترك فى تحمُّل السَّرَّاء والضرَّاء .

فهز عمى رأسه وقال :

— أنت إنسانٌ نبيلٌ طيبٌ يا عبدَ الدايم ، لكنَّك صاحبُ عِيال . ولا يمكن أن أُحمِّلَك ماهو فوق طاقتك من نفقات ، يكفى جداً أننى كنت السببَ فى ارتباكاتك الماليةِ وتراكمِ هذه الديون عليك ، لكنْ الحمدُ لله فإن عزائى الوحيد أن أرضنا أصبحت فى حوْزَتك ولم يستولِ عليها غريب .

— اسكت . . . أنا أخوك الأكبرُ فى مقام أبيك فلا تَشُكَّ فى هذا .

— على أية حالةٍ انتظر حتى أُتِمَّ كلامِى . . . إن كرامتى وخُلقى يأبيان علىّ أن أعيش كَلاًّ عليك ، متعطلا خاملا . . . صحيح أنا عبد ذليل للمخدرات ، لكن ما زال فِىَّ بقيةٌ من خيْر ، وفضلٌ من نَخْوَةٍ ، يجب أن أتحرك وأبحثَ لى عن عمل ، وأرجو أن تُكْمِلَ عونَك لى وتشترِىَ منى هذه القراريط الستةَ ، وتُعطينى ثمنهَا دفعةً واحدة ؛ لأنى سآخذُ هذا المبلغَ وأذهبُ إلى القاهرة وأبحثُ لى عن عمل ، أىِّ عمل . . . فما رأيك فى ذلك ؟ ؟

— هذه مغامرَةٌ وأنا مشفِقٌ عليك منها .

— لا بدَّ أن أتحمَّلَ وأبدأَ من جديد .

— يعِزُّ علىّ ماستقاسيه .

— سوف أذهبُ إلى « س . بك » نائبِ الدائرة ، ولعله يساعدنى فى الحصول على وظيفة كتابيةٍ بسيطةٍ ، أو يستطيعُ تعيينى فى سِلْك التدريس ولو فى إحدى المدارس الأهلية ، فأنا كما تعلم « راسبُ كفاءة » ولن يكون أمامى عقبةٌ سوى عدم لياقتى الطبية ، وربُّنا لن ينسانى .

وسار الكلام بين أبي وعمي « فريد » على هذه الوتيرة ، والدي يُفسِحُ صدرَه و يستجيبُ لمنطق العاطفة والأخوة ، ويُلِحُّ على عمي في البقاء بالقرية ، وعمي يُصِرُّ على ما اعتزمه لأن بقاءه هكذا نوعٌ من التنطُّعِ والعار لا يليقُ بالرجال ، برغم أنه كان يغالبُ أهواءه ويَكبِتُ رغباتِه ، فقد كان يحب قريتَنا ، ويكره من كل قلبه أن يفارِقَها ، لكن لم يكن له أن يختار .

بقيت مسألةٌ هامة وهي : من أين يأتي أبي بالمال اللازم لشراء ستة القراريط ؟ ؟ ؟ أيعودُ أبي إلى مرسى أبو عفر يسترضيه و يستعطفُه ليُقرضَه مبلغاً جديداً بالإضافة إلى المبلغ القديم ؟ ؟ إن أبي لم يَسُدَّ ما عليه حتى الآن ، ومرسى ما زال يوالينا بزياراته السَّمِجة بمبرِّر و بلا مبرر ، والضَّنْكُ الذي نعيش فيه يتضخّم و يزدادُ يوماً بعد يوم ، وأبي قد أغرقَ الشيبُ سوادَ رأسه وأنهك من قواه ، وعمي لا بد له أن يبحثَ عن مستقبله بعد أن أصبح في حكم المُفْلِس . . .
هل يُصِمُّ أبي أذنَه هذه المرة ويتركُ عمي ليبيعَ هذه القراريطَ لأيِّ إنسان ، ولا داعِيَ لهذا التمسكِ الشديد ، ولا لهذه الفِقْرة التي تقول « لن ينزل أرضَنا غريبٌ » ؟ ؟ ؟

لكن أبي قد تحمل الكثيرَ وقاسى ما قاسى ، فلم لا يُكملُ بقية

الشوْط ، ويتحملُ ما يستتبع ذلك من تكاليف . . . قالوا للقرد سيمسَخونك فقال : هل سيجعلوننى غزالا ؟ ؟ فلن يسوء وضعُ أبى أكثرَ مما هو عليه ، وكأن كثرةَ ما لاقاه أبى من آلام قد أكسبه شيئاً من المناعة والتمادى فى ما كان بصدَدِه . . . لم يكن أبى فى حاجة لأن يذهبَ إلى « مرسى » لأن مرسى — كما أسلفت — زياراتُه لنا لا تفترُ أبداً . جاء مرسى هذه المرة ولعله كان مندهشا لأن أبى يَبَشُّ فى وجهه أكثرَ من ذى قبل ، بل ولم يحاولْ أن يَتعِضَ منه و يرد عليه فى اقتضاب كما كان يحدث . ولا أظنُّ أن مرسى قد فاته معنى ذلك ، فهو رجل خبيرٌ بمثل هذه الحالة .

قال مرسى :

— لقد فرَغ صبرى يا عبدَ الدايم ، والشهرُ الذى كان ميعاداً لسداد المبلغ أصبح شهرين ، وأنت تعلم أنه لولا العِشْرَةُ والجيرَةُ وطولُ المعاملة لما ترددت فى رفع الأمر للمحكمة .

لقد نسى مرسى أو تناسى أنه لم يرحم أبى من عَرْضِ القضية على المحكمة ، إلا بعد أن وقَّع له أبى على صَكٍّ بمبلغ إضافى مقابلَ انتظاره شهراً آخر وبِرغم هذا الجشع والقسوة فهو يزعم أنه يُراعى العشرة والجيرة ولم يَعتَدِ على حُرْمَتِهما ، لكن كان على أبى أن يُغمِضَ

الطرْف عن هذه الوَقاحةِ لأنه بصدد صفقة جديدة . . صفقة دفعته إليها الظروف دفعا مباغِتا . وبعد فترة قال مرسى :

— يعلم الله أنى لا أمتلك مِليما واحداً من هـــذه الأموال يا عبدَ الدايم . . . الناس يظنون أنى أُحضِرُ هذه الأموالَ من بَحْر أو أزرَعُها فى الغيط . . . ألا يعلمون أنها أموال أيتام وأرامل ، وأنى مَدِينٌ مثلـكم تماماً ؟ ؟ ما أنا إلا وسيط . . .

كان مثلُ هذا الـكلام — لما فيه من كذب لا داعى له — يُضايق أبى أشدَّ المضايقة ، ويثيرُ أعصابَه لدرجةٍ كبيرة ، ويكاد يُخرجُه عن طَوْرِه لولا اعتصامُه بالصبر . . .

واستطرد مرسى قائلا : والناس يا عبدَ الدايم لا يستقرُّ لسانهم فى فمهم دقيقة واحدة . . . دائما أبدا يزعمون أن معى ألوفاً مؤلَّفَةً من الجنيهات ، وأنى سأشترى « عزبةً » وعرباتِ ركاب . . . ومِطْحَنَة (ماكينةَ طحين) . . . لست أدرى ما سِرُّ هذا وأنا لم تساعدْنى الظروفُ كى أرى ليلةَ القدْر ، كما أنى لم أعثرْ على كَنْز من الذهب .

كان أبى يتجرع هذا الـكلام تجرُّعا برغم أنفه ، وكان صامتا لا يرد حتى ينتهى مرسى من كلامه المـكرَّرِ المحفوظِ الذى لا يتغيَّرُ إلا قليـلا .

وقال أبى فجأة :

— اسمع يا مرسى ، أنا فى حاجة ماسّة إلى مبلغ جديد .

— من أينَ يا عبدَ الدايم ؟ ؟ أتظنُّ أن يكونَ معى مالٌ ثم آتى لأطاردَك هذه المطاردةَ وألح عليك فى الطلب ؟ ؟ إنه لعيب كبير .

— تصرّفْ كيف شئت ، المهمُّ عندى هو إحضارُ المبلغ ، وسأعطيك الربحَ الذى تريده ، مفهوم ؟ ؟

— لكن أنت عالمٌ بكل الأحوال .

— ومن أجل هـذا أنا متأكد أنك تستطيع الحصولَ على ما أريد .

— أصل الـ . . .

فقاطعه أبى قائلا : لا أصْلَ ولا فَضْلَ . . . هيَّا بنا . سأعطيك الجاموسةَ التى طلبتَها مراراً ، وتمنيتَ شراءها . فهل هذا يسرُّك ؟ ؟

— ماذا تقول ؟ ؟

— الجاموسة ... الجاموسة ... !!! سأبيعُها لك . ألا تُصدِّق ؟ ؟

وسكت مرسى حتى يستجمعَ شواردَ فكره ويُحكمَ خُطَّتَه ، ثم قال :

— لا مانعَ عندى ، لكنْ المبلغُ القديمُ ، ما الحلُّ بالنسبة له ؟

— سنضيفه إلى المبلغ الجديد بعد خصم ثمن الجاموسة .

وتنحنح مرسى قليلا وحك ذَقْنَه بكفِّهِ ، ففهم أبى ما يعتمل في مُخِّهِ فبادره قائلا :

— وسنضيف عليه نسبةً جديدة من الربح . . . لا تخَفْ . .

وهكذا تمت الصفقةُ الجديدة على هذا الوجه . . .

ولن أحدثك كثيرا عن أبى حينما جاء ابن مرسى أبو عفر وأخذ الجاموسة . . كان يبدو وكأنه فقدَ عزيزا لديه ، أو أن الجاموسة كانت أحدَ أفراد الأسرة ثم اخْتُطِفَتْ اختطافا ، وكانت ليلى — ومعها محمود — يتشبّثان بها أيّما تشبُّث ، ويقفان بباب البيت ويمنعانِها من الخروج بسَذاجة وبَراءة ، أما جَدّتى فقد كانت تقول لى :

— يا سليمانُ يا ولدى ، البهائم عندها وفاء كثير ، وتعرِف صاحبَها ويعِزُّ عليها فراقُه ، أمَا رأيت جاموستَنا وهى تَزْعَقُ في استغاثة وألم والدموعُ تنسكِبُ من عينيها ؟ ؟ . . .

ولما رأت جدتى التأثرَ البادىَ على وجهى قالت : لا تحمِلْ هَمًّا يا بنى . . المالُ والبهائمُ في انتقالٍ دائم ، تروح اليوم وتأتى غداً ، لا بدَّ وأن ربّنا سيُفْرِجُها ونشترى أخرى وأخرى ، اذهبْ أنت واستذكر دروسك . .

ثم ترفعُ عينيها إلى السماء وتمُدُّ كفَّيْها فى ضَراعة وتوسُّل وتقول :

— ياربِّ خذ بيدِ سليمانَ بنِ عبد الدايم ابنِ بطنى ، واكتبْ له النجاح والوظائفَ العاليةَ ، بحقِّ علمِك بحالى . . »

أما أمى فلم تنطقْ بكلمة واحدة ، وكان فى صَمْتِها حزنٌ بليغ ، وأسَفٌ عميق ، لأنها آثرَتْ أن تختزِنَ آلامها فلا تبوحَ بها لأحدٍ ، وهذا هو السبب فى أن آلامَ القلب التى كانت تعاودُها من وقت لآخر قد اشتدَّت وطأتُها فى هذه الآونة ، فلم يعُدْ يهنأُ لها نومٌ ولا يطيبُ لها مَطْعَم ، حتى ازداد شحوبُ وجهها ، وتَدَهْوُرُ قواها ، فإذا ذهبتْ للصلاة أرى سجودَها قد طال . فأحسَب أنه زيادةٌ فى التبتُّل والضَّراعة ، لكنه يطول لدرجة تبعث على الشكِّ والريبة ، فأذهبُ وأحركها فأجدُها فى إغماءة ، وأجرى هنا وهناك لأحضرَ ماء فأبللَ به وجهها ، أو أبحثَ لها عن بَصَلَةٍ تَشَمُّها أو . . . أو . . . وكانت أمثالُ هذه الإغماءات تكادُ تُذْهِبُ عنى عقلى ، فأعيشُ ساعاتٍ طويلةً أقاسى الآلامَ والخوفَ من آثارها . . . كنت أخاف أنْ تروحَ أمى ضحيةَ هذه الإغماءات فيسقطَ قلبى عن موضعه ، لكنَّ جدتى كانت تأتى فى مِشيتها المُتَّئِدةِ ، وتُقبِلُ نحو أمى قائلة :

— بسم الله الرحمن الرحيم . . . يا هادِى يا ربِّ . . . مدَدْ

يا سيدى عيسى العراقى . . . همتك يا قطبَ الرجال . . ثم تحاول تحريكَ أمى وتدليكَ أطرافها ، وتتمتم ببعض التعاويذ ، وبعد قليل تحاول أمى أن تفتحَ عينيها فى بطء شديد وتتساءلَ عمَّا حدث ، وتتنهدَ بعمق ، بينما تُرَدُّ إليها الروح من جديد وأشعرُ أن أمى قد مرَّت من الأزمة بسلام ، فأحمَدُ الله من كل قلبى ، وأُهْرَعُ إلى المسجد فأسجدُ لله شكراً ، وأُطيلُ فى سجودى . . . ولا تمر هذه الحادثة فى كل مرة دون تعليق من جدتى ، إذ توجه اللوْمَ إلى أمى قائلةً : ارحمى نفسَك يا أمَّ سليمان . . أنت مريضة وضعيفة ، والراحةُ يا بنتى لازمةٌ لبدنك ، والدنيا لم تُبْنَ فى يوم واحد . .

ثم تمطُّ شفتيها قائلة :

« لكن من يقرأُ ومن يسمعُ . . . ؟ ؟ كلامى كله ذاهبٌ مع الريح » ، وتقول فى لهجة التأكيد . . « ثم إنَّ حَمْلَ الهُمومِ يُقَصِّرُ العمر . . . اسمعى كلامى يا أمَّ سليمان واعملى معروفاً . . »

* * *

كان الناسُ فى ذلك الوقت يفرُّون من المدن ليتقوا شرَّ الغارات وينجوا بأرواحهم ، وكثُرَ عدد لابسى الملابس الأفرنكية فى أقاليم مصر ، بينما أخذ عمى « فريد » يشدُّ الرِّحال إلى القاهرة لا يعبأُ بموت ،

ولا يهابُ غاراتٍ ، لقد كان طولُ حياته هكذا دائما يتبسم بغير قليل من اللامبالاة ، و يعتبرُ أن أمرَ الحياة أو الموتِ مَوْكول للأقدار ، ويُؤمِنُ أعمقَ الإيمان بالمَثَل الذى يقول : ليس من المكتوب مَهْرُوب . .

هل سرت فى طريق مجهولا لا تُعْرَفُ له معالم ، ولا تَتَبيَّنُ له غاية ؟ ؟ هكذا كان شعورُ عمى « فريد » حينما عزم على مغادرة قريتنا ، ففى جيبه بضْعُ عشرات من الجنيهات هى كلُّ ما يملكه ، وأمامه دنيا القاهرة الواسعة الصاخبة ، ويأمل أن يجدَ له مكاناً — ولو ضيّقاً — وَسَطَ هذا الزِّحام ، ترى ماذا يكون مصيرُه ؟ ؟

هل سترحمُه الأقدارُ فتتحققَ له أمنيتُه ، ويرتاحَ ضميرُه ؟ أم سينفق ما معه من جنيهات محدودةٍ فى بحثه عن العمل ، ثم يتلفت بعد ذلك فيجد نفسَه فى الشارع بلا مال ولا سكن ولا طعام ؟

لكم يزعجنى هذا الخاطرُ المخيف ، ويعكِّرُ علىَّ صَفْوِى ، لا من أجل ما سيقاسيه عمى من متاعبَ فى سبيل لقمة العيش ، لكن من أجل شىء آخرَ أعرفُه تمام المعرفة ، فهو لن يَمُدَّ يده لأحد ، وسيفضلُ الموت جوعاً وتشرُّدا على الذهاب إلى أحد معارفه ليَبيتَ عنده ليلة ؛ أو يتناولَ عنده شربة ماء . .

لكَ اللهُ يا عمى . . . فإنى أحبُّه برغم كلِّ هذا لأنه طيب كريم لينُ الجانب معى . فأنا أعرف أن مُدْمِنى المخدرات يحظَوْن بقسط غير قليل من سُرْعة الغضب ، وفُحْشِ الأخلاق ، حتى إن صورتَهم كانت مقترنةً فى خيالى بالشوارب الكَثَّة ، والأسنانِ الصَّدِئة ، والعيونِ التى يتطاير منها الشرَرُ ، والعِصىِّ الغليظةِ والدمِ السائل . . .

ولن أستطيعَ نِسيان اليوم الذى سافر فيه عمى إلى القاهرة . . .

فقد كنت جالساً فى الفصل ، أستمع إلى مدرس اللغة العربية وهو يشرحُ لنا موضوعاً إنشائيا عنوانه : « صف النهضةَ الصناعيَّةَ فى مصر » ، وكان الأستاذ فى أثناء شرحه يحاول أن يوجِّه أنظارَنا إلى نقطةٍ هامّة حينما كان يقول : إن المستعمرين أفهمونا أن بلادَنا أراضٍ زراعيةٌ فحسب ، ولكنَّ الحقيقةَ يا أبنائى أنَّ مصر ذاتُ استعداد ضخم لأن تكون مصر الصناعية أيضاً ، فعندنا الحديدُ والبترولُ وكثيرٌ من المعادن ، ومصادرُ الكهرباء التى هى أساس النهضات الصناعية . .

فقاطعتُ الأستاذَ قائلا :

— ولم لا تعمل الحكومةُ على النُّهوض بالصناعات إذن ؟ ؟

فابتسم الأستاذ ، ولعله وجد أن الإجابة الصريحةَ على هذا

السؤال قد تجرُّ عليه ما هو فى غنى عنه من متاعب فقال :

— إنْ شاء اللهُ سيأتى اليومُ الذى يتحققُ فيه ذلك . . والبركةُ فى هِمَّتِكم يا شبابَ المستقبل . . .

وهممْتُ بالكلام مرة أخرى ، لكن « المشرف » قرع باب الفصل قرعات خفيفة وقال :

— سليمان عبد الدايم . .

— نعم . . .

— تعالَ كلمْ حضرةَ الناظر . . .

وذهبتُ إلى حضرةِ الناظر لأرى عمى فى الانتظار ومعه بعضُ أصدقائه الذين جاءوا لتوديعِه عندَ المحطة . . .

لقد أراد عمى « فريد » أن يرانِيَ قبل أن يرحلَ إلى القاهرة .

— لا أحدَ يعلم يا سليمانُ هل سترانى بعد ذلك أم لا .

هذا ما قاله حينما انتحى بى جانباً ، وأخذ يكرر على سمعى نصائحَه والدمعُ يترقرقُ فى عينيه ، وواصلَ حديثَه قائلا : هذا العامُ ستنال الشهادةَ الابتدائية ، وفى العام المقبل إن شاء الله ستكونُ فى الثانوى . . . ستصيرُ رجلا ، وأنت تعرفُ معنى الرُّجولة . . . أعنى أنك ستكون ذا مسئولية أكبرَ ، وآمل أن تكون أسعدَ حظا منى ،

وأقْــوَمَ سبيلا ، ولتهتمّ بدروسك أولا وآخراً ، ودعِ المظاهِرَ الـكاذبة ، وابتعدْ عن الشر ، ولى رجاء يا سليمانُ وهو أن توافِيَنى بخطاباتِك دائما .

وهممت أن أسأله عن العنوان ، لـكنى أدركت أن عمى على باب الـكريم ولا يعرفُ له مستقراً حتى الآن ، فاختنقَ السؤالُ بيْن شفتيّ . وانحنى عمى وقبّل رأسى في حنان وعاطفةٍ جيّاشة ، ولمّا صافحَنى أراد ألا يتركنى وأنا مبهوت شاحِبُ اللون . فقال مداعباً :

— أما زالت أناملُك تتسخُ من أثر الحبر ؟ ؟ لم تعُدْ صغيراً يا سليمانُ . على كلّ حال أنا أعلم السبب ، ولذلك سوف أرسل لك قريبا قلمَ حبر نظيفا جميلا على شرط أن تـكون من الناجحين ، ومن المتقدمين أيضا .

وقبل أن يَمضى لحالِ سبيله أسقط قطعةً فضيَّةً من ذات خمسة القروش فى جيبى ، ولم يجد كلامى أذناً مصغية منه حينما هممت بردِّها . ومضى عمى ، ووقفت مبهوتاً لِعدَّة لَحظات ، وسمعت الناظرَ ينقُرُ على المِنضدة و يقول :

— سليمان عبد الدايم . . . إلى الفصل .

وما إن غادرتُ حجرةَ الناظر حتى فقدت السيطرةَ على أعصابى ،

فقد تدفقتْ دموعى دون أن أستطيعَ لها حبساً ، وصدر عنى بالرغم منى نشيجٌ مكبوتٌ أخذ كيانى ينتفض له انتفاضاً ، فقصدت من فَوْرى إلى دورة المياه ، وكانت خالية نظرا لأن الوقت وقتُ دراسة ، وأطلقت لنفسى العِنَان ، فانهمرتْ دموعى ما شاء لها أن تنهمِر ، وكنت أحِسُّ أن قلبى — وليس عيناى وحدَها — هو الآخر يكاد يتفطر ، وكلما هممت بغسل وجهى بالماء وأوشكت أن أنتهىَ تذكرته وهو يقول : « لا أحدَ يعلمُ يا سليمانُ هل ستراني بعد ذلك أم لا » ، فأعودُ إلى البكاء من جديد حتى أشفقت أن يُكتَشفَ أمرى ، فغسلتُ وجهى للمرة الأخيرة ، واندفعت صوْبَ السُّلَّم قاصدا الفصلَ ، وأثناء صعودى فلتت من عينى دمعةٌ أخرى ، لكنى سارعتُ وجففتها بكفى لأنى لم يكن معى منديلٌ ، واستأذنتُ ودخلت ، وحاولت ألاّ أنظرَ إلى المدرس حتى لا يعلمَ ما بى ، لكنَّ عينَه الفاحصةَ لم يغب عنها احتقانُ جفونى وانتفاضُها ، ومِسحةُ الحزن التى بدت واضحةً علىَّ وضوحاً تاماً ، فقال :

— ماذا بك يا سليمان ؟ ؟

فوقفت احتراماً للمدرس وأنا أركِّزُ بصرى فيما تحت قدمى ، ويظهر أنى كنت على وشك الانهيار مرة أخرى ، لكنَّ المدرسَ

سارع وأمرنى بالجلوس ، ثم واصـــل شرْحَ الدرس .

عدت إلى البيت فى آخرِ اليوم ، والقطعةُ الفضية ذاتُ خمسة القروش التى أعطانيها عمى ما زالت تسكن جيبى ، وكلما لمستُها انتابتنى رَجْفَةٌ شديدة ، وتذكرت عمى التَّعِسَ الحظ ، وأخذ ضميرى يُلْهِبنى بسياطه المعهودة ، إذ كنت أحس أن عمى فى مسيس الحاجةِ لـكل قرش فى جيبه ، وخُيِّلَ إلىَّ أنى قاسٍ وغْدٌ لا وفاءَ لى ، والشعورُ بالإثم أخذ يُلِحّ على حتى فـكرت فى أن أقذفَ بالقروش الخمسة فى إحدى الترع التى نمر عليها ، لـكن عزَّ علىَّ ذلك . . . وما إن وصلت إلى دارنا حتى وجـدتها وكأنها فى مأتم ، وجوٌّ الـكآبة مخيمٌ على أركانها ، ووجدت جدتى لأول مرة ، وقد غاض مرحُها وثباتُهـا وانهمرت دموعُها ، وأبى يجلسِ غاربَ النظرات ، وأمى كعادتها تشكو من آلام قلبها ، فقذفتُ بالقطعة الفضيةِ فى حِجْر أمى ولم أنطق بكلمة . . .

وكان « سعيد حافظ » طوال الوقت يحاول تسليتى والترفيهَ عنى ، وإن كنت قد فقدت عمى اليوم إلى وقت قد يطول ، فهو قد فقد أختَه بسيمةَ بالأمس ، والمصائبُ يجمعْنَ المصابينَ .

* * *

وفى اليوم التالى بينما كنت أنا وسعيد حافظ ننحدر ناحيةَ المدرسة لمحنا رجلا كبيرَ السن يدفع أمامه « عربةَ يد » وعليها خليطٌ من الكتب والمجلاتِ والصحفِ القديمة ، وروايات الجيب ، وكان الرجلُ يدلِّل على بضاعته ويذكر الأثمانَ الزهيدةَ لها ، فدفعنا حبُّ الاستطلاع لأن نلقىَ نظرة على ما عنده ، ووقع فى يد سعيد كتيِّبٌ صغير كتبه أحد المحامين عنْ حوادث دنشواى ومأساتها الدامية ، وأبدى سعيدٌ رغبةً فى شراء هذا الكتيب ، لكن المشكلةَ كانت فى الحصول على الثمن ، فقال سعيد : « ليس معى غيرُ ثلاثةِ مِليمات » . . فقال الرجل : « سأقدِّم لك خدمة بإعطائك الكتابَ مقابلَ نصف قرش » .

ولمحت الحزنَ على وجه سعيد فبادرت قائلا :

— من حسن الحظ أن معى مليمين ، و بهذا نستطيع أن نشتريَه.

فطربَ سعيد لهذه الفكرة ونال الكتاب .

كان سعيدٌ يميل دائما لقراءة هذا النوع من الكتب ، وذلك راجع لتوجيه أبيه الذى لا يَكِلُّ ولا يَمَلُّ من النقاش فى السياسة ، وراجعٌ أيضاً إلى ماضى جَدِّه الضابط الذى قاسى الأمَرَّيْن ، ولاقى الأهوال فى هذه السبيل . . .

ولم يدخلْ فى حُسْبانى أن هذا الـكتيبَ سيكون له قصة طريفة ، تلقى ضـــــوءاً على خواطر سعيد وأفـكارِه وعاطفتِه التى تلتهب فى حناياه . . .

دخل مدرس الصحة فهبّ الطلبة وقوفاً إلا سعيداً ، لـكنّ المدرس لم يلحَظْ ذلك فمر الموضوع بسلام ، وفى أثناء الدرس كان المدرس يرسُم صورة مبسَّطة لقلب الإنسان ، ويوضحُ الرسمَ بالألوان حتى نستطيعَ تمييز الشرايين من الأوردة ، وعقدت الدهشةُ لسانَ المدرس حينما سمع أنيناً خافتاً ، فأخذ يتفحَّصُنا ويُجْرِى نظراته بين وجوهنا ، فى حين أننا بدورنا تلفتنا هنا وهناك ، فرأى المدرس « سعيداً » وهو مُنْزَوٍ فى المقعد الخلفى ، كمن يختبئُ خلفَ القِمْطْر ، ورأسُه قد قارب فَخِذَيْه ، بينما أمسكتْ يداه بشىء غيرِ ظاهر لنا . وخطا المدرس خُطُوَاتٍ ناحيةَ سعيد . وحاول أن يرى ما بيديه ، لـكنه سارع وأخفاه فى القمطر ، ويظهر أن « سعيداً » أفاق إلى نفسه ، وكف عن البكاء ، فمدّ المدرسُ يدَه فى عصبية إلى داخل القمطر ، فأمسك بنفس الـكُتَيِّب الذى اشتريناه اليوم ، والذى يحـكى حوادثَ دنشواى . . . وتبسم المدرس . . . لقد تصفّح الـكتابَ وفهم كلّ شىء . . .

لقد انهمك سعيدٌ فى قراءة الكتاب وغاب عن كل ما حوله ، وأخذ يستطرد فى قراءة القصة ، ويعيش فيها بروحِه وقلبه منذ أن ذهب الجنديان الإنجليزيان لصيدِ الحمام ، ثم إحراقِ القمح الذى بذل الفلاحُ من أجله طولَ العام عافيتَه وقواه . . . وحادثة قتل المرأة التى كانت عند القمح المتكوّم ، وخروج أفواج الأهالى ثائرين محتجين ، وموت أحد الجنديين من شدة الحرارة وإلحاح المطاردين فى طلبه ، ثم يوم الانتقام . . . يوم الثأر الأحمر حينما نُصِبَت المشانق فى عرض الطريق ، وتدلَّى على أعوادها الأبرياء من أبناء دنشواى . . .

وزهران البطلُ الشهيدُ الذى كان مَضْرِبَ الأمثال فى شجاعته ، وحوادث الجلد بالسياط ، دون احترام لآدمية ، أو توقير لإنسانية . . . وأخيراً أولئك الذين قَذَفُوا بهم داخل السجون ظلماً وعُدْوانا . . .

قرأ سعيد هذه التفاصيلَ ، فألهبت مشاعرَه ، وهزتها هزاً شديداً ، وجسَّم له الوهمُ الدماءَ المراقةَ ، والظهورَ التى مزقتها السياط ، والحزنَ الشديدَ الذى هبط على القرية — قريةِ دنشواى البائسة — وبكاءَ الأطفال وصُراخَ النساء ، فلم يتمالكْ سعيدٌ نفسه فبكى ، وتصاعدت منه الأنَّاتُ التى سمعها مدرس الصحة ، والتى قابلناها

نحن بالدهشة والعجب ، لأن ذلك لم يسبِقْ له وجود فى فصلنا . . .

لم يعاقبِ المدرس « سعيدًا » من أجل انصرافه عن درس الصحة ، بل إن المدرسَ نفسَه ترك القلْبَ والأوعيةَ والشرايين ولم يُكْمِلْ رسمها ولا شرْحَها ، وأخذ يحدثنا باستفاضة عن يوم دنشواى ، وعن تعسف الإنجليز ، وصيحات مصطفى كامل ، وتحرُّك الضمير العالمى لهذا الظلم الفادح ، وسيطرت علينا — نحن الطلبةَ — الرهبةُ والخشوعُ فاستمعنا وكأنَّ على رءوسنا الطيرَ لتلك الحِقْبة من تاريخ بلادنا ، لا لأننا سنُمْتَحَنُ فيها آخر العام . ولكن لما هو أسمى من ذلك وأكبر . . .

وصلْصَلَ الجرسُ معلناً انتهاءَ درس الصحة ، أو بمعنى أصح درس التاريخ الوطنى ، ولم يخرجِ الْمدرس من الفصل إلا بعد أن أثنى على وطنية سعيد ، وشجَّعه على قراءة أمثالِ هذه الكتب حتى يُلِمَّ إلماماً كافيا بقصة الصِّراع العنيف بين شعبنا و بين الاستعمار . .

وفى أثناء العودةِ إلى البيت قلت :

— لقد أخجلتنى يا سعيد . . . أتبكى هكذا وتدعُ الطلبةَ يتغامزون عليك ؟

— حدث هذا بالرغم مِنّى يا سليمانُ . . لم أستطعْ أن أمنعَ نفسى من البكاء .

— هل أحزنك أمرُ زهرانَ لهذه الدرجة ؟

— الإنجليزُ مُجرمون . . . مجرمون جدًّا يا سليمانُ . . . ليس فى قلوبهم رحمةٌ ولا يعرفون عدلا .

— إن اللهَ قد سلّط عليهم من هو أقوى منهم .

— أتعنى هتلر ؟

— نعم .

— لكن لن يَقرَّ قرارى إلا إذا ثأرتُ منهم بنفسى . .

— هذا مُجَرَّدُ حَماس . . . لقد كنتَ تخاف منهم فى ميت غمر ولا تجرُؤُ على النظر إليهم . . .

— لم أعد أخافُهم منذ اليوم .

— هل انقلبْتَ بين عشيةٍ وضُحاها إلى عنتر بن شداد ؟

— لا تهزأْ بى يا سليمان .

— آسف . . . هاتِ هذا الكتابَ لأنى سأقرؤه مثلك .

— لا ، لن تأخذَه .

— ولمه ؟ إنى دفعت فيه مليمين .

— ولو ! ! سأقرأه مرة أخرى . وبعد ذلك سأعطيه لك .

ودلف سعيد إلى بيته ، وحقيبتُه فى يمينه مكتظَّةٌ بالكتب والكراسات ، أما كتاب « دنشواى » فقد أمسك به فى شِماله ، قابضا عليه بقوة كمن يخاف أن يختطفَه أحد منه . . .

الفصل السادس

مر شهران على سفر عمى إلى القاهرة . . .

وفى صبيحة يوم جاء « الفراش » ثم قدَّم خطابا إلى المدرس ، وانصرف . . . وجالت عينا المدرس فى الفصل حتى وقعتا علىَّ ، ثم قدم الخِطاب لى ، وشعَرْت حينذاك بكثير من الزَّهْو والسرور ، فهذه أولُ مرة أتسلَّمُ فيها خطاباً باسمى . . . . إذاً فقد أصبحتُ ذا أهمية بحيث تَصِلُنى خطاباتٌ خاصَّةٌ ، وأحسَسْت أن زملائى الطلبة يَحْسُدوننى على هذه المنزِلة . .

ولم يكن من المستطاع أن أفتحَ الخِطاب وأقرأه فى أثناء الدرس ، لذلك دسسْتُه فى جيبى وأنا أنتظرُ انتهاءَ الحصة بفارغ الصبر ، وكأنى جالسٌ على الجمر . . . . والحقيقة أنى كنت فى عالم آخرَ بعيدٍ كلَّ البعد عن الدرس ، أضع يدى من آن لآخرَ فى جيبى كى أتحسسَ الخطاب ، وأنتشى بمَلْمَسه الناعم الحبيب ، وأخالسُ المدرس فأخرجُه من جيبى بسرعة ثم أُنعِمُ النظر فى اسمى والفخرُ يملك علىَّ أقطارَ نفسى . « سليمان افندى عبد الدايم » يالها من سعادة كبيرة . .

ولم يكن لدَىَّ أدنى شكٍّ فى أن هذا الخطابَ من عمى .

انتهت الحصة ، ففضضت الغِلافَ وأخذتُ فى القراءة :

« . . . .

« هأنذا فى القاهرة منذ شهرين رأيت فيهما الكثير ، وتعلمت الكثير . ولا تعجبْ حينما أقول لك ذلك . . . فالإنسانُ يظَلُّ دائماً فى حاجة إلى الكشفِ عن أسرارِ الحياة ، وكلما تبدَّت لى عن وجه من وجوهها وحَسِبْتُ أنى بلغتُ الغاية ، كشفتْ لى عن وجهٍ آخرَ أكثرَ غرابةً ، وأشدَّ امتلاءً بالحقائق والأسرار . الناسُ هنا يا سليمانُ فى سِباقٍ مجنون ، وفى صِراع فظيع ، إنهم يُشْبِهون إلى حدٍّ كبير وحوشاً فى غابة لا بشراً ذوى حضاراتٍ ومدنيات . . . وحُمَّى الحرب قد دفعتهم إلى الهَذَيان والانحرافِ والجشَعَ ، وكان أحرى بهم يا بنىَّ أن يأخذوا العِبْرة من فظائع الوقائع ؛ وألوانِ الموت والدماء . . .

« وغُول الغلاء يُطِلُّ بوجهه الكالح المُخيفِ فى كل مكان ، تراه يبدو فى أسمال المشرَّدين والعاطلين ، وتُبْصِرُه فى الأزِقَّة والشوارع ، ولا تخطئه فى المستشفيات والميادين العامة . . . الجميعُ فى ذُعْر من المستقبل ، يُشفقون على أنفسهم من الغدِ كلَّ الإشفاق . والمصالح الشخصية هى المِقْياس أو المِعْيار الذى على أساسه تقوم

المعاملات والعِلاقات . . . ولا تعجبْ من ذلك يا بُنَيَّ . فالحربُ التي اشتعلت في العالم كلّه لم تقم إلا من أجل هـذا . . . أعني السباقَ على المطامع ، والعملَ على الاستعمار والاستغلال . . .

« قد يكون هذا الكلام غامضاً عليك بعضَ الغُموض ، وقد تحسبُ أن في ذلك ضرباً من المبالغة ، لأن ما ارتسمَ في خيالك عن القاهرة وجمالِها وآثارِها وحُكّامِها شيءٌ غيرُ ما أخبرُك به الآن . ولكنْ صدِّقني . . فهذه هي الحقيقة : احتكارٌ . . . جشَعٌ . . . ماديّةٌ طاغيةٌ . . . أنانيّةٌ . . انحلالٌ ، والحرب والاستعمارُ هما أساس ذلك كلّه .

« والإنجليزُ هنا في كلِّ مكان . . سُكارى لا يكادون يستطيعون الوقوفَ على أقدامهم . . لست أدرى هل يحدث ذلك هرَباً من دنيا الواقع وآلامِ الحرب ، أم إمعانا في الاستهتار وعدمِ الاكتراث . . ؟؟

« والإنجليز — برغم ما في المدينة من جوع وبؤس — ينْعَمُون بالغذاء الجيِّد والنزْهاتِ الطيبةِ والمالِ الوفير ، لأن مصر — كما يظهر — بلدٌ كريمٌ جداً . . . حتى مع الغاصبين . . .

« لكن لماذا أستطْرِدُ هكذا في حديثي لك عن الحرب والناس ؟ ؟ . هل أفعل ذلك لكي أحمِّلَك عبئاً بالإضافة إلى

أعبائك . . . ؟؟ مَعْذِرَةً يابنى ، فأنا لم أكن أستعذبُ الكلامَ عن مثلِ هذه الموضوعاتِ فيما مضى ، لكنى وجدت نفسى مدفوعاً هذه المرة ، لأن ما أسجلُه لك هنا أصطدِمُ به حيثما ذهبتُ فيثيرُ فى نفسى الشيءَ الكثيرَ ، فلا مفرّ من أن أتخفّفَ مما يُثْقِلُ ذهنى بالحديث إليك فيه ، لعلى أشعُرُ بقليل من الرّاحةِ والعَزاء . .

« أما من ناحية موضوعى الخاص ، فقد ذهبت إلى نائب دائرتِنا (س . بك) فقابلنى بابتسامةٍ حُلوة ، فتحتْ أمامى طريقَ الأمل ، وبدّدَتْ مابنفسى من ظلام الشُّكوك والخوْف ، ووعدنى بمقابلته مرة ثانية . . .

« وتكرّر التأجيلُ . . . وتكررت المقابلاتُ دون أن أحْصُلَ على بُغْيتى أو أعثُرَ على عمل أرتزِقُ منه . ولقد همسَ أحدُ المتصلين به اتصالا وثيقا فى أذنى قائلا :

— أليس معك ثلاثون جنيها . . . ؟

— كلاَّ ، ليس معى إلا ما يكفينى شهرين على الأكثر .

— ولا خمسة وعشرون . . ؟ ؟

— لقد أخبرت سيادة « البك » بحقيقة حالى . . . وهو يعلم ظروفى تمامَ العلم . . . .

فهز الرجلُ كتِفَيْه فى ازْدِرَاء وقال :

— يظهر أنك لا تريدُ أن تنجزَ أعمالَك وتُنهِىَ شُغْلَك . . . على أى حال أنت حرٌّ . . وتركنى ومضى .

« لقد استبعدت فى بادئ الأمر أن يكون « س . بك » وأعوانُه تجاراً على هذه الصورة . . لم أكن أظنُّ أنه سيطلب منى رِشْوَةً جزاءَ ما يقدِّمُ لى من خدمة . . . لم يسألنى عن مؤهِّلاتى ، ولا عن مدى كفايتى ، لـكنه أراد أن يطمئن أولا على « المبلغ » الذى فى جيبى . . .

« لقد كنت ساذجاً حينما صدقت نائبَ الدائرة فى أثناء المعركة الانتخابية الماضيةِ ، وهو يتحدثُ عن الشعْب والشرَف والحرية والوطنية و . . . و . . . الخ . هذه المترادفاتُ الطنانةُ المطَّاطة التى أصبحت تجارةً رخيصةً سمِجةً ، وسِلَعاً مُزَوَّقة لا تُقَدَّمُ إلا للبسطاء والمخدوعين من أمثالنا . . .

وذهبت إلى « مفتش تموين » يمت بصلة لأحدِ معارفى — لـكن للأسف وجدتُه مشغولا عنى بعَقْدِ صفقَاتٍ مُرِيبةٍ ، ولا يكاد يخلو دقيقةً واحدة من أعماله ، ومع ذلك فقد كان أحسنَ قليلا من نائبنا « المحترم » ووعدنى جادًّا بالبحث عن عمل لى ، وهأنذا أنتظر . .

« ولدى سليمان . .

« لم أكن أظنُّ أن الحيـاةَ ستناصبُنى العَدَاء على هذه الصورة ، ولو علمتُ أنى سألقى نصفَ ما لاقيتُ لما ترددْتُ لحظةً واحدة فى أن أجْبُرَ نفسى على السير العاقلِ المنتظمِ و إلا لكان الموتُ أروَحَ لى من هذه الحياة ، أما ما مضى فلن يرجِـعَ ثانية ، فلا مناصَ من أن أصْبِرَ ، وأدْعُوَ الله أن يوفّقَنى هذه المرة . . .

« وأعرّفُك يا سليمان أنى لم أَعُدْ أتعاطى شيئا على الإطلاق من الحشيش أو الأفيون ، وقد تعجبُ من ذلك . . . والحقيقةُ أنى أشدُّ منك عجباً لأن هذه المخدرات داءٌ عُضَالٌ ليس من الميْسور التخلى عنها بسهولة . . . لم يبق معى غيرُ خمسةٍ وعشرين جنيها ، لن تبقى فى جيبى طويلا ، وليس من المعقول أن أنفقَها على المخدرات وعلى الـكماليّات التافهة . . . حقا يا سليمانُ إن الأحداثَ والمآسىَ تعلّمُ الإنسانَ الشىءَ الـكثيرَ ، وإنى لأذكرُك بالالتفات إلى دروسِك والاهتمامِ بها ، مع تبليغ تحيـاتى إلى والدِك ووالدتِك وإخوتِك والست والدتى حفظها الله . . . »

« عمك »

ومرت مدة أخرى ليست بالقصيرة انقطع فيها عمى عن مراسلتنا ، ولعله آثَرَ ألا يزعِجَنا بأنبائه التى لا تَسُرُّ ، فحاول أن ينطوِىَ على نفسه ، ويَنْكَبَّ على آلامه يجترُّها كئيباً حزينا فى غربته القاسية . . .

لكنْ مع هذا كانت تصِلُنا عنه أخبارٌ مُبْتَسرَةٌ أو مُشوَّهةٌ فى فترَاتٍ متباعدةٍ ، فقد جاء أحدُ زُوَّار القاهرة وزعم أنه رأى عمى يحمل على رأسه لَوْحا خشبيا قد تراصَّت عليه بضعُ عشرات من الأرغفة ، وآخرُ جاء وقال إنه رأى عمى بعيْنَىْ رأسه يحمل الأخشابَ اللازمةَ لعملياتِ البناء تحت إمرةِ أحدِ المُقاولين ، وكانت ثيابُه متسخةً ممزقةً ولحيتُه مهملةً منفِّرَةً . . وكانت هذه الأنباء تبعث الأسى العميقَ فى نفسى وتترُكُ جروحاً غائرةً فى قلبى . . . إنها صورةٌ تعسةٌ حقا أن يحيا عمى هذه الحياةَ النَّكِدَةَ ، وهو الذى يحفظ القرآن ، ويحفظُ العِلْمَ ، وكلُّ ذنبه أنه أخطأ السيْرَ فى أولِ حياته ، وحُرِمَ اللياقةَ الطبيةَ ولم يُوَفَّق إلى العثورِ على الوساطةِ التى تأخذُه بيده إلى حياةِ الدَّعَةِ والاستقرار التى يَنْشُدُها .

ياللمصيبة . . . !!! أيشتغل عمى ببيعِ الخبزِ أو بنقْلِ مهماتِ البنـاء . . . ؟؟؟

صحيح أن هذا أشرفُ من التذلّل و إراقةِ ماء الوجه على الأعتاب ، لـكنّ هذا كثير . . . كثير جداً . .

وكلما سمعت هذه الأنباء أويتُ إلى رُكْن قَصِيٍّ كما هى عادتى وتركت دموعى تنهمِرُ على سجيّتِها ، والدموعُ سلاحُ العاجزين ، وهل لى أن أعملَ غيرَ ذلك ؟ ؟ لو كان بيدى الأمرُ لفعلتُ الـكثير . .

أما جَدتى التى ساءت صِحّتها ، فقد كانت أجــدرَ بالعطف والرِّثاء . . . كانت تقول لأبى :

— يا عبدَ الدايم ، ألا تسافرُ لمصر وتطمئنُّ على أخيك ؟ ؟

— أنا لا أعرفُ له أراضِيَ يا أمى . . . وهو حتى الآن لم يخبرْنا عن عنوانه .

— أخوك منك وأنتَ منه يا ولدى .

— عينى لكِ وله يا أمى وأنت تعلمين ذلك . . لقد ألححْت عليه أن يبقى معنا ، ورزقى ورزقُه على الله ، لـكنّه ركِب رأسَه .

— هل صحيحٌ أنه يرتزِقُ من بيْع الخبز ، ويشتغلُ مع عُمّال الأجر اليومى ؟

فلا يجيب والدى « بنعم » أو « لا » ، بينما تبكى جَــدتى وهى تقول :

— أخاف أن أموتَ يا عبدَ الدايم دون أن أرى « فريدا » المسكينَ وأطمئنَّ عليه . . .

— اتركى الأمرَ لله ... أطال الله عمرَكِ ... لا تحملى همًّا أبدا . .

— قلبي يا ولدى مجروحٌ من أجله .

— غدا يصيرُ موَظَّفا ، وكل شيء يا أمى مُتْعِبٌ فى أوله ، والحرب هى سببُ وقْفِ الحال . .

— يا ربِّ علمُك بحالى يكفى عن سؤالى . . .

* * *

كانت أخبار الحرب قد تحوَّلت تحوُّلا كبيرا ، ورجحت كِفّةُ إنجلترا وحلفائِها ، وأخذت جيوشُ المحوَر تتراجعُ مخلِّفةً وراءها أكداسا من الخسائر فى الأرواح والذخائر ، وكانت معركةُ « ستالينجراد » بين الروس وألمانيا ، والتى جاهدت فيها الأولى جهاد المستميت حتى دحرت الثانية — كانت هذه المعركةُ ذاتَ أثرٍ فعّال فى رُجحان كِفّة الحرب . . .

أجل ، لقد توالت الهزائمُ على هتلرَ ، وتدفق العونُ الأمريكىُّ على أوربا ، فأنعش اقتصادياتِها ، وعالج مشاكلَ الجوع والبَطالةِ لحدٍّ ما ، وأخذت فرنسا — التى كانت هزيمتُها سبةً على مر الأجيال

— تستردُّ أنفاسَها وتتحرَّكُ من جديد لتمحُوَ وصمتَها ، متخذةً نقطةَ انطلاقِها فى شمالِ إفريقيا ، وكان الإنجليزُ يبذُلون الوعُود للأمم المستعبَدةِ والمستعمَرةِ ، ويعاهدونَها على إعطائها الحريةَ والاستقلالَ ثمنا لما يضحِّى به أبناؤها ضِدَّ النازية ، وتقديرا لما قدَّموه للإنجليز من عوْن فى الرجال والموادِّ الخامِ والمؤَن .

ويبدو أن الشيخ « حافظ شيحا » قد ساءته هذه الأنباء ، وأقلقت بالَه أشدَّ القلَق ، فهو لم يكن يتصور أن هتلرَ سيهُزَم ، وأن هذه الدولَ المتحالفةَ التى دُمِّرت ومُزِّقت شرَّ ممزق ستقفُ على قدميْها من جديد ، وكان « الشيخ حافظ » يحاول انتحال الأسبابِ والمعاذيرِ كى يعلِّلَ بها تراجُعَ هتلر ، ويحاول أن يعطيَه صورةَ المكرِ والدهاء والعبقرية العسكرية ، لأن الحربَ خُدْعَة ، لذلك كان الشيخ حافظ ينتهز انتصارَ الألمان فى إحدى الوقائع ، واستردادَهم لبعضِ الأماكن ، فيملأ القريةَ دعاوى و إشاعات عن بداية الاكتساح الألمانى الجديد الذى لن يترك الإنجليز أو الأمريكان يعرفون لهم رأسا من رجلَيْن . . . لكن كثيرا ما كان يخيب ظنُّ الشيخ حافظ ، إذ تواصِلُ القواتُ المتحالفةُ تقدُّمَها ، بينما ينحسرُ ظلُّ الألمان عن مناطقَ هامَّةٍ واسعةٍ . . .

وجلس الشيخ حافظ فى أحد الأيام مع أصحابه ، وكان يحاول أن

يُفَلْسِفَ الأوضاعَ التى بلَغتْها الحرب ، ويحاول كعادته دائما أن يُضْفِيَ على هتلرَ ألوانا من المديح والثناء الذى ينتزعُ الإعجابَ والتوقير .

قال الشيخ حافظ :

ـ صحيح أن هتلر قد تقهقر فى الروسيا ، لكن لا تَنْسَوْا أن الطبيعةَ هى التى أرغمته على ذلك ، لقد كان فصلُ الشتاء قاسيا جدا على الجنود . . . كل شيء كان متجمِّدا حتى زيت الدبابات والطائرات ، وحتى الدم فى شرايين الجنود . .

ـــ عجبا ، أمن الممكن أن يحدُثَ هذا ؟

ـــ ولم لا ؟

فردَّ عليه آخر وقال :

ـــ والروس ؟ ؟ ألم يكونوا بدوْرهم يحاربون فى هذا الزَّمْهَرِير ؟

ـــ لكنْ هذه بلادُهم يا صديقى ، وقد تعوَّدوا على جوِّها . أضِفْ إلى ذلك أن بلادَ الروس واسعةٌ جدا . . . وبدلا من أن يقيموا المتاريس من الحجرِ والحديد ، كانوا يقيمونها من الأجْسادِ البشرية . . . إن الأمةَ الروسيةَ عددُ الحصى والرمل . . كان الله فى عون هتلر . . إنهم لا يحاربون فى الروسيا آدميين ، بل يحاربون وُحوشا لا تهتمُّ بالموت أو الحياة . .

— لـكن أتعتقد أن يعودَ هتلرُ لغزوِ ستالينجراد ؟

— ولم لا ؟ إن هتلرَ رجلٌ حديدى العزمِ ، ولن يتراجعَ أو يتوانى عما يسميه « العالم الاستعمارى » إذ لا بدَّ من القضاء عليه .

— إنى أشكُّ فى ذلك يا شيخ حافظ . .

— لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العلى العظيم . . لِمَ الشكُّ ؟ لقد ابتدأ الحلفاء فى التقدُّمِ بعد أن ابتُلُوا بالهزائم النكراء فى السنوات الماضية ، وبُعِثَتْ فرنسا من جديد بعد أن سُحِقَتْ سَحْقا ، فهل تستكثرُ على ألمانيا العظيمةِ أن تفقدَ بعضَ المواقع ؟ ؟ أنسيتَ أن هذه البقاعَ كانت ألمانيا قد احتلتها فى فترة صغيرة بعد أن اجتاحتْها كالعاصفة ؟ ؟

— أمريكا وروسيا قد تركتا أثرا كبيرا فى خطِّ سيْرِ الحرب ، ومواردُ أمريكا كثيرةٌ بينما ألمانيا أصبح واضِحا أنها تقاسى الأهوالَ فى الحصول على الموادِّ الأوليةِ .

— يا ناسُ . . . يا عالَمُ . . . ! ! ! ألا تفكرون قليلا بعقولكم ؟ . . كل هذه دعاية إنجليزية قذرةٌ ، وهتلرُ عنده ما يكفيه سنواتٍ طويلةً . . . ألم تسمعوا عن مخزن ١٣ ؟ إن هتلرَ رجلٌ رحيم شفيق لا يريد أن يَسْحَق أوربا ، بل يمهلهم لعلهم يعودون إلى رشدهم ،

فإذا ما تمادَوْا وأصرُّوا على حماقتهم فسيضع مخزن ١٣ النهايةَ المفجِعَةَ لهذه الحرب . . . إن هتلرَ يريد أن يحكُم شعوباً ودُوَلاً بعد الحرب لا أنقاضاً وخرَابات . . . أليس كذلك ؟ ؟

فردَّ زميل آخرُ وقال :

— كلنا يتمنى انتصارَ هتلر يا شيخُ حافظ فلا تثر ، لكننا قلقون من جَرّاء هذا التقهقر .

— حسناً ! هناك شيءٌ آخرُ ، فهل سمعتم عنه ؟ .

— ما هو ؟ .

— القنبلة الذَّرِّيَّة . هذه القنبلة لو قُذِفَت على لندن لمحتها من الوجود محواً ، وما تركت إنساناً أو حيواناً أو نباتاً ، فلو ضاقت السُّبُل بهتلر لأطلقها وأراحَ نفسه ، وأنهى الحرب . . .

— ولم لا يطلقُها ويخلِّصُنا ؟

— لأنه رجلٌ رحيم .

— وهل فى الحرب رحمةٌ يا شيخ حافظ ؟ ؟ إن المذابحَ لا تجف دماؤها مساء صباحَ ، والمجازرُ البشرية فى كلِّ مكان ، فكيف تتحدث عن الرحمة ؟

وضاق الشيخُ حافظٌ ذرعاً بمناقشاتهم هذه المرة ، والحقيقةُ أنهم

كانوا يتمنَّوْن من صميم قلوبهم انتصارَ هتلر ، لكنهم كانوا مُشفقين من هذا الاندحارِ ، وكان حديثهم ينبئُ عن قلق زائد ، غير أن الشيخ حافظاً لم يكن يُريد لهم أن يحمِلوا أدنى شك فى انتصارِ هتلر ، بل يجعلوا هذا النصرَ أمراً مؤكداً لا يحتمِل رَيْباً ولا شُبْهَةً ، برغم أنه فى قرارة نفسه كان يشعر بنفس التَّوَجُّس والخوْف على مصير هتلر ، لذلك تنحنح وهز رأسه ، شأنَ الحكيمِ العالِم بمجريات الحوادث وقال :

— فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوِّضُ أمرى إلى الله ، إن الله بصيرٌ بالعباد .

ولكنَّ خضرةَ تقِف دائماً للشيخ حافظٍ بالمِرْصاد . وتقطعُ عليه لذَّته كلَّما حَمِىَ وطيسُ المناقشةِ السياسيةِ ، وصال فيه وجال ، ويبدو أن الشيخ حافظاً كان يظن أن خضرةَ لا تُناصِبُه العَدَاءَ إلا لأنها تكرهُ هتلر ، وما دامت تكرهُه فلابُدَّ أنها تحِبُّ أعداءَه — أى الحلفاء — والحكمة الأمريكية تقول : « ومن ليس معنا فهو علينا » .

ولذلك كان الشيخ حافظ ينظر لزوجته وكأنها مُتَّهَمَةٌ بالخِيانة العظمى لهتلر ولكفاحِه العظيم ، وما إن برزت خضرةُ على مجلس الشيخ حافظٍ حتى صاحت قائلة :

— ألف ألف مصيبة تأخذ هتلرَ ومَنْ معه . . قم يا رجلُ الزبائن

واقفون من ساعة . . . قم اعملْ لك عملاً تأكلُ منه لقمةَ عيْش .

— كُفِّى عن هذا الكلام الفارغ وإلا قمتُ وأعطيتُك درساً فى الأدب ، للخَلْفِ دُورِى ، وهيّا إلى المنزل ، ما شأنُك أنت وهتلر ؟ .

فوضعت خضرةُ يدَها على خدِّها ، وأمالت وجهَها وهى تنظرُ نظراتٍ ساخرةً مَغيظةً وقالت :

— أليس هتلرُ هو الذى أسقطَ القنابل على السيد البدوى ؟ ولولا سره الباتِعُ وكراماته لكان المسجدُ والمَقَامُ العالِى خرابةً يعشش فيها البُومُ . ومع ذلك تقول : هتلرُ فى قلبه رحمة . . . هتلرُ يحبُّ الإسلامَ . . . هتلرُ رجلٌ والرجالُ قليل ؟ ؟ قم يا شيخ وبع منديلين . .

فقهقه الجالسون وعلا تصفيقُهم وضجيجُهم لكلامِ خضرةَ المُفْحِمِ ، وقال واحدٌ منهم :

— يظهر يا شيخُ حافظُ أن زوجتَك لا تقلُّ عنك قوةَ حجة ، وسلامةَ منطق ، إن لم تفقْك فى ذلك .

— لا تعجبْ من طول لسانِها ، إن آخِرَ شىء يُكفُّ عن الحركة فى الرجل قلبُه ، وفى المرأة لسانُها ، أليس كذلك ؟ ؟

— لا ، بل إن ابن الأوزّة عوّام .

— أجل ، ابنها وليس زوجها .

فتضاحكوا من جديد ، بينما همَّ الشيخ حافظ بمغادرة المكان ، ولم ينس أن يجمَع أوراقَ الجريدة بعناية ، ويطويها ويُمسكها بيده ، ثم يمشى فى الشارع يُطَوِّح بها أماما وخلفا قاصداً منزله ، حتى يقدِّمَ للزبائن ما يحتاجون إليه من بضائع .

* * *

قلت لأمى ونحن نتحدث فى أثناء الطعام عن الشيخ حافظ وعِراكِه مع زوجته :

— ألم يأتِ خبرٌ عن « بسيمة » ؟

— « الحوالة » الشهرية هى التى كانت الصلةَ الوحيدَة بينها وبين أبيها ، لكنَّها انقطعت هذا الشهرَ لسببٍ لا يعلمه أحدٌ ، وهذا هو السبب فى الخِلاف الذى وقع أمسِ بين حافظٍ وزوجتِه .

— ولم لا يستفسرون عنها بخطاب مُسْتَعْجِل ؟

— أرسل أبوها خطاباً لكن لم يأت بنتيجة .

— ما معنى ذلك

— لا أحدَ يعلم ، ومن أجلِ هذا فأمُّها المسكينةُ تبكى دائما ، وجعلت حياةَ الشيخ حافظٍ نكَداً فى نَكَدٍ .

— شيء يُحيِّر .

— على كلِّ حالٍ الشيخُ حافظٌ يبدو أنه مستعدٌّ للسفرِ بنفسِه إلى الإسكندرية ، وفى نيته أن يحضرَ بسيمةَ إلى هنا .

وكان كلامُ أمى مفهوما لدَىَّ ، فقد لاحظت أن حالةَ الشيخ حافظٍ آخذةٌ فى الانتعاش ، واتّسع محيطُ تجارتهِ لحدٍّ ما ، فكثرت زبائنه ولم يعد يكثر من التغيُّب عن محلٍّ عمله ، والظاهرُ أن فراقَه لابنته قد آلمه ، لدرجة أن عَمَـدَ إلى زيادة البَذْل من مجهوده ، ومضاعفةِ نشاطه ، حتى يشترىَ راحة باله ، ويحافظَ على كرامة بيته برجوع ابنته إليه ، وخصوصاً أن غيبةَ بسيمةَ قد تركت ظلا كئيباً فى نفس الأسرة كلِّها ، وجعلتها تشعرُ بالضَّعَة والهوان .

انعكس هذا الانتعاشُ المـالىُّ على صديقى سعيد حافظ فقد أصبح فى استطاعته أن يأتىَ للمدرسة كلَّ يوم ومعه نصف قرش — خمسةُ ملِّيات كاملةٌ يستطيع أن يشترىَ بها الترمس والخرُّوبِ أو بعضَ الكتب التاريخية القديمة . لهذا اعتزم الشيخ حافظٌ أن يتوجَّه إلى حيث توجد ابنتُه ويعودَ بها سريعاً ، لكنه آثر أن يرسل خطابا ثانيا إلى تلك المرأةِ التى كانت هى الصلةَ بين الشيخ حافظ وثرِىِّ الحرب الذى تخدُم بسيمةُ فى بيته ، وأخبرَها فيه أنه سيصلُ إليها قريبا ، لكن

مما أدهش الشيخَ حافظاً أنها هى الأخرى لم تبعثْ إليه برد ، وعلمت من أمى أن آخرَ خطاب من بسيمةَ كانت ترافقه صورةٌ لها ، وهى تحمل طفلا صغيراً لزوجةِ مَخْدُومِها ، وتبتسمُ له وهى تقدم له إِصْبَعَ مَوْز ، لكنَّ الشيخ حافظاً رأى ألا تُبِيحَ زوجتُه رؤْيةَ هذه الصورةِ لأحد ، وكأنّها وثيقةٌ للمذَلَّة والعار يجب أن تُدْفَنَ إلى آخرِ العُمْر فى قَرارٍ سَحِيق ، ولكنى قرَّرْتُ أن أرى هذه الصورةَ بأيةِ وسيلةٍ ، وأخذت أُعْمِلُ فكرى وأُقَلِّبُ الأمرَ ، لكنى تبينت أن أمَّ بسيمةَ لن تُرِيَنيها وليس من المعقول أن أطلبَها أنا من سعيدٍ ففى ذلك جَرْحٌ لكرامتِه ، وعدمُ لِياقة وكياسة منى . .

وكدت أيأس لولا أن عمةَ بسيمةَ — تلك العانس التى أشرْت إليها سابقا — طلبتنى فى أمرٍ خاصٍّ ، ولم يكن هذا الأمر الخاص بالشىء الذى يخفى علىّ ، فقد تعودتُ أن أحضر لها من القرية التى توجد فيها مدرستُنا بعضَ المشتريات التى لا تتيسر فى قريتنا ، كزجاجات العِطر وأنواعِ الكُحل الممتاز و . . . و . . . إلى مثل هذه الأشياء مما تحتاج إليه النساء ، نظراً لأن أختَ الشيخ حافظٍ كانت حريصةً دائماً أن تبدوَ فى أحسن زينة وآنقِ منظر ، لعل ذلك يسوق إليها ابنَ الحلال الذى ينتشلها إلى بيت الزوجية . . .

ولم تكن تأتمن « سعيد حافظ » على شراء مثلِ هذه الأشياء ، لأن سعيدًا فى نظرها مِتلافٌ ومُماطِلٌ ، ولأنها كانت تشترى هذه الأشياء خِفْيَةً حتى لا تعرفَها خضرةُ ، إذ كثيراً ما كان ينشِبُ بينهما العِراكُ لأتفه الأسباب ، قالت لى أخت الشيخ حافظ :

— اسمعْ يا سليمانُ . أنا محتاجةٌ إلى عُلْبَةِ وَرْنيش أسمرَ لأن السوق بعد غد وسأذهب إليها ، وأريد خيْطَ حرير أخضرَ ، وخرزاً بثلاثة قروش .

ووثبت إلى ذهنى فكرةٌ أطلقها شيطانى ، وأوعز إلىَّ أن أحْسِنَ استغلالَ هذا الموضوع ، فقلت لها :

— أنا لا أخرج من المدرسة إلا متأخِّراً ، والوقتُ ضيق جداً فما العمل ؟

— عجباً ، ليست هذه طبيعتك يا سليمان . . . لقد عهدتك مطيعاً لى دائماً . . .

— ثم إنَّ سعيدًا معى دائمًا لا يفارقنى لحظةً واحدة .

— أنت تعرف كيف تتصرف . وأنا أفخر دائماً بك وأقول إنك طيب الخُلُق مؤدَّبٌ . . . أهكذا تخيِّب ظنى فيك . . ؟ إننى لا أئتمن غيرَك . . .

— كأنى سعيدًا هذه المرة .

— ماذا تقول ؟ أتريد من خضرةَ أن تُقيمَ لنا معركةً مثلَ معاركِ هتلرِ هنا فى البيت ؟ . . هذا سرٌّ بينى و بينك لا يعرِفُه أحد . . اسألْ والدتك ، إن خضرةَ تغـــارُ منى دائمًا ، وتتمنى أن أذهبَ فى داهية حتى تستريح منى » .

ثم ربتت على كتفى تستعطفُنى وقالت :

— وسأعطيك قرشا . . . قرشا كاملا . . . مبسوط ؟ ؟

— لا ، لا أريد قرشاً .

— إذاً فما هى طلَباتُك ؟

— أريد أن أرى صورةَ بسيمةَ التى وصلت من الإسكندرية فى خطاب .

— يا غالى يا سليمانُ والطلبُ رخيصٌ . . . سأحضرُها لك على عيْنى ورأسى .

— إن الشيخَ حافظاً قد أوصى بعدم الاطِّلاع عليها .

— اترك هذا لى ، سأجعلُك تراها ، فماذا بقى ؟

— بقى أننى سأُحْضِرُ لك كل ما تحتاجين إليه . . .

كانت يدى ترتعش وأنا أمْسِكُ بالصورة ، ولم يكن بالدار غيرى

وأخت الشيخ حافظ . . . إن بسيمة تبدو كعهدى بها رزينةً وادعةً ، وتبتسمُ ابتسامتَها الفِطريةَ التى تفيضُ كالشُّعاع الهادىء الجميل ، ولم أستطع الإفلاتَ من حزن مقبِض أوحته إلىَّ رؤيةُ الصورة برغم تلك الابتسامة . قد يكون مصدرُ هذا الحزن فى داخلى أنا ، وليس فى الصورة ، فكثيرا ما نرى نحن البشرَ الدنيا من خلال أنفسِنا وإحساساتِنا الخاصة ، ولم تجد بسيمة شيئا تمسكه فى يدها إلاّ أصبعَ المَوْز ، إنها ما زالت تحِبُّ الفاكهةَ وتحلَمَ بها ، وإلا لماذا لم تمسِكْ بزهرة مثلا بدلا من هذا ؟ ولفت نظرى أن جلبابَها أوسعُ من اللازم مما دفعنى أن أرجِّحَ أنه ليس لها ، أو أنها نالته كإحسان من إحدى بنات الأسرة الصغيرات ، ووضَح أنها تحملُ طفلا ابن سنتين يفوقُها نضارةً وسِمْنَةً حتى لكأن عودَها الرفيعَ الرقيقَ يكاد يهتز ويفقِدُ توازُنَه ، وأخذت أتأمَّلُ الصورةَ وأسْبَحُ فى جوِّها غيرَ عانىء بما حولى ، وذهبت أخت الشيخ حافظٍ لتقضىَ بعض حاجاتها وتركتنى فى حجرتها واقفاً أتأملُ الصورة ، ورفعت عينى لأريحَها من التأمل الطويل فوجدت « سعيد حافظ » أمامى بلحمه ودمه ، فأخذتنى المفاجأةُ ووقعتْ الصورةُ من يدى ، فاختطفَها سعيدٌ ، ورمقنى بنظراتٍ غاضبةٍ منطلقةٍ كالسِّهام وقال :

— اخرجْ من هنا بسرعة .

ووقفت متردداً برهة من الزمن ، ثم تحركتُ خارجاً من البيت ، وأنا لا أقدر أن أرفعَ رأسى لأرى ما أمامى ، حتى إنى اصطدمت بخضرةَ عندَ الباب وهى تدخل مسرعةً وتقول :

— أنت ماش سكرانُ يا سليمان ؟ ؟

وانتابنى شعورٌ موجع لا يعدو شعور اللص حينما يقبض عليه متلبسا بجريمته ، أو الذى يقترف خِيانةً لا مفرَّ من الاعتراف بها ، والتسليمِ بوِزْرِها . . ! ! ! لـكن كنت أعودُ لنفسى قائلا : « وماذا جرى ؟ ؟ أكل هذا لأنى رأيت صورةَ بسيمةَ وهى تزاول عملهاَ الرسمىَّ كخادمة ؟ وماذا فى ذلك ؟ ؟ إن الناس يعرفون كل شىء » . وحينما تطِنُّ هذه الأسئلة فى رأسى أجد أن الموضوعَ لا غُبارَ عليه ، لـكنَّ شعورى العميقَ يهزأ بى و يسخرُ من مَنطق المعقولِ و يضعُنى فى موضع اللص أو الخائن ، وقد يكون ذلك راجعاً إلى أنى لجأت إلى طريقة ملتوية لرؤية الصورة . . .

ودارت معركة — كعشرات المعارك — بين خضرةَ وأختِ زوجها من أجل الصورة ، ومن أجل البحثِ عن أشياء فى حجرة خضرةَ بدون إذنها ، واتهمتها بالتلصُّص والخروج على حدود الأدب ،

لكنَّ الظروف قد اقتضت أن تكون هذه المعركةُ مكتومةً وفى أضيقِ نطاق — لا تتعدى جدرانَ البيت — حتى لا يتردَّدَ اسمُ « بسيمةَ الخادمةِ » على أفواه أهل الحارة ، كانت أخت الشيخ حافظ أسبقَ إلى أمى و إخبارِها بما حدث ، وأنا بدورى وفَّيتُ التزاماتى وأحضرت لها ما طلبته منى من ورنيش وخرز وخَيْط . . .

ولم يكن هناك من نتيجة متوقعة إلا مقاطعة سعيد حافظ لى ومخاصمته إياى ، بحيث أصبح من المألوف أن يذهبَ كل منا إلى المدرسة و يعودَ منفردا ، فكان جزاؤنا — أنا وسعيد — صفعتين من الشيخ حافظ شيحا أرجعا إلينا رُشْدَنا وصفاءَنا ، وعادت المياهُ إلى مجاريها . .

وحدث فى هذه الأيامِ أن المولودَ الذى ولدته أمى نزل ميِّتاً لسبب لا نعلمُه . . .

الفصل السابع

وأخيراً نجحنا فى امتحان الشهادة الابتدائية بتقدم ، وكان سعيد حافظ أولَ المدرسة ، وكانت فرحة كبرى ، غرق بيتُنا فى أثنائها فى أكواب « الشراب » الحمراء ، وتوالت وُفود المهنئين من أطفالٍ ونساءٍ ورجالٍ فى حارتِنا ، وكانت أمى فرِحةً سعيدة ، لم ألاحظْ عليها أثرَ معاناة من آلام القلب . . لقد نسيَتْ آلامَها وشقاءها ، ومسح نجاحى كلَّ أثر للألم والعنَتِ ، أمّا سعيدٌ فلم يحتفِل بنجاحِه مثلما احتفلتُ أنا لسببين : أولهما غربة بسيمة ، وثانيهما غياب الشيخ حافظ الذى ذهب إلى الإسكندرية ليحضر ابنتَه ، لذلك تأجلَ احتفالُ سعيد .

وبعد أيام عاد الشيخ حافظ من الإسكندرية .

لم تكن بسيمةُ معه .

وكان جبينه مُقطَّباً ساخِطا ، ونظراتُه تائهةً زائغةً . . .

هل ماتت بسيمةُ ؟ ؟

هل رفضت الحضورَ مع أبيها ؟

وساد الوجومُ أسرة « الشيخ حافظ » ووقفوا مشدوهين

محزونين ، وارتسمت علاماتُ الاستفهام على شفاههم وعيونهم ، وقصد الشيخ حافظ إلى حجرةٍ داخلية ، وباقى أفراد الأسرة مندفعون وراءه ، والخوفُ والدهشةُ يعقدان ألسنتَهم ، وجلس الشيخ ، وتسللت الدموعُ الصامتةُ على خدِّه . فطار الصوابُ والتأنى من رأس خضرةَ وصرخت بأعلى صوتها :

— يا حبيبتى يا بِنتى . . . ! ! ! ماذا جرى يا شيخ حافظ ؟ ؟ ؟

واختلط النحيبُ بالبكاء ، وكان صراخ ، وكان ازدحام حتى اكتظت الدارُ بمن فيها من أهل الحارة ، وكلُّهم فى حيرة لا يَدْرِى ماذا يفعل ، هل يقدِّمون العزاء ؟ ؟ هم لا يعرفون هل ماتت أم لا . . . ولكنى شَعَرْتُ بالطبع أن هناك مأساةً تتعلق « ببسيمةَ » . . .

لقد ذهب الشيخ حافظ وفى قلبه عاطفةٌ وأملٌ ، وما إن وصل إلى الإسكندرية حتى قصد إلى حيث تسكن المرأةُ التى تعهدت برعايةِ بسيمةَ والسهر على راحتها ، وما إن قرع الباب حتى صاحت به امرأةٌ عجوزٌ على بِضعِ خُطُوات من المنزل ، كانت تبيع الحلوى الرخيصةَ للأطفال :

— تعال هنا يا أستاذ . . . على من تسأل ؟ ؟

وأخبرها الشيخ حافظ عن بُغْيَتِه ، فقالت المرأة فى دهشة :

— تعيش أنت . . . ! ! ! لقد راحت هَدَراً . . . مسكينة ! ! !

كنا نجمع أعضاءها عُضْواً عُضْواً من الشارع .

— ماذا تقولين ؟ ؟ .

— ماتت على أبشعِ صورة فى أثناء إحدى الغارات الألمانية .

فشَحَب وجه الشيخ حافظ وهتف قائلا :

— وأين بسيمةُ . . ؟ ؟ بسيمةُ ابنتى . . ! ! !

— لا أعرِفُها ولا أعلمُ عنها شيئاً . .

فقال فى انكسارٍ ومَسْكَنةٍ :

— طفلةٌ فى الثالثةَ عشْرةَ من عُمْرِها كانت تعمل خادمةً فى إحدى البيوتات الكبيرة هنا .

فقالت المرأة فى ضِيقٍ : لا أعلم . . . اذهبْ واسألْ عنها هناك . . وأخرج الشيخ حافظ العُنْوانَ فى لَهفة ، وانطلق هائما على وجهه ، يبحثُ عن المكان الذى تعمل فيه « بسيمةُ » . لقد كان يمشى مُوَزَّعَ النفس ، مرتعِدَ الفرائص ، لايكادُ يشعرُ بما حوله . . ينظر إلى البيوت والناس والعرباتِ والحافلات فلا يُلِمُّ منها إلا بصُوَرٍ باهتة ؛ بل يرى صورةً ضارِعةً حزينةً « لبسيمةَ » يقذف بها الخيالُ أمامه . . . ولم يكن يعبأُ ببائعِ الصحف وهو ينادى :

— انسحابُ ألمانيا يا مصرى يا أهرام . . . انتصارُ الحلفاء . .

كان الشيخ حافظ يقرأ أرقامَ البيوت ، وكانت آثارُ الخراب والدَّمار تتجلىّ في كل مكان ، فكأنما انهارت المنازلُ ليبنوا بَدلا منها هذه المخابئَ الكثيرةَ المنبثةَ هنا وهناك .

ووقف الشيخ حافظ في مكانٍ مُعَيَّن وقال : « هذا منزل رقم ٢١ وذاك رقم ٢٩ فأين إذاً رقم ٢٣ ، والمفروضُ أنه يقع بينهما » .

وسأل الشيخ حافظ أحدَ المارَّة فحملَق فيه مندهِشا ، ولعله ظن بالشيخ حافظ شيئاً من الغباء وقال : « ألا ترى هذه الخرائب ! ! »

فقال الشيخ : « بلى » فردَّ الرجلُ قائلا : « ابحث عن أرقام ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ فيها . ألستَ في الدنيا يا أستاذ ؟ . الغاراتُ لم تبقِ شيئا على حاله . . . هذه البيوتُ الثلاثةُ طَواها العَدَمُ ، ومسحتْها الغاراتُ الألمانية مَسْحًا . . »

— أحقًّا ما تقول ؟

فهز الرجل كتفيه ساخِراً ومشى دون أن يُجيبَ ، بينما جرى الشيخ حافظٌ وراءه في ضَراعةٍ وتَوَسُّل وقال :

— وأين بسيمةُ إذاً . . . إنها كانت تعملُ خادمةً في منزل ٢٣ ؟

فقال الرجلُ في قسوة دون أن يبدُوَ عليه شيءٌ من التأثر :

— إما أنَّ اللهَ أراحها من شقاء الدنيا وهمِّها فاختارها لجواره في

إحدى الغارات ، وإما أنها هاجرتْ من هنا إلى مكانٍ آخرَ مع الأسرة .

وأسرع في مِشيته تاركا الشيخَ حافظاً وراءه حتى لا يلاحِقَه بكثرة الأسئلة التي لا طائلَ تحتها ، وكأنَّ مآسِيَ الحرب وأهوالَها قد بذرت في النفوس أخلاطا من القسوة والمَلَلِ والعَجَلة . . . ألم يكن يدرى هذا الرجل أنه بكلامه هـذا يمزِّق فؤادَ الشيخ حافظٍ وأحشاءه بخناجرَ حادّةٍ ؟ ؟

وأخذ الشيخ حافظٌ يقطعُ هـذه الخرائب جَيْئَةً وذَهابا بلا غاية أو هدف . . . هل كان يبحث عن بسيمةَ وسطَ تلك الأنقاض ؟ ؟ أكان يتشَمَّمُ رائحتَها في هذا الحِصنِ المتراكم ، أم كان يبكي الأطلال ، ويناجيها شأْنَ الأقدمين ؟ ؟

ولم يزدْه سؤالُ الجيران إلا حيرةً فوق حيرتِه . . . أما تبليغُ الأمرِ للشرطة فقد أضاف إلى أحزانِه حُزْنا جديدا .

وهكذا عاد الشيخ إلى قريتنا بخُفَّيْ حُنَيْن . . عاد دون أن يعرف أماتت بسيمةُ فيُهِيلَ الترابَ على ذكراها الداميةِ ، أم ما زالت حيّة تُرْزَقُ فيواصلُ البحثَ عنها حتى ولو قضى عمرَه في الأسفار ! ! كانت حيرتُه أقسى من كل شيء . . . أقسى من الموت نفسِه .

وفي غمرةِ يأسه لعن الدنيا والناسَ ، ولعن المالَ الذي ألجأَه إلى دفع

ابنته للخدمة ، ولعن الحروبَ ومُشعليها ، ولم يستثنِ فى هذه المرة هتلرَ ولا موسلينى . ولم يفرِّقْ بين « محور » و « حلفاء » .

لقد تسببت الحروبُ فى فقره ، كما تسببت الغاراتُ فى ضَياع ابنته أو موتها . وهذا هو مقياسهُ الجديدُ للحرب ، فقد أصبحَ ينظرُ إليها من زاويةِ كارثتِه الخاصة .

وآثر الشيخ حافظ بعد هذه الأزمة أن يَلزمَ دارَه ، ويختفِىَ عن أعيُن الناس لفترة طويلة ، لم يعُدْ يراه أحدٌ وهو واقف أمامَ المسجد يوم الجمعةِ قبـلَ الصلاة بساعتين مع محبِّى هتلر ، يتكلمون فى السياسة ، بل غالى فى ذلك وترك محلّ (الخردوات) لزوجتِه ولابنه سعيدٍ يديران حركتَه ، وكنت إذا ما دخلت رأيتُه مطرِقا ساهما لا تفارق لفافةُ التبغ فمه ، وبريقُ عينيه قد انطفأَ منه الـكثيرُ ، هذا بالإضافة إلى نُحوله وتجهُّمِه الدائم ، وكلامِه النادر . . .

وهكذا اختفت مشاجراتُ خضرةَ ، وقلت خلافاتُها مع أختِ زوجها ، وفى الوقت نفسِه كانت حالتُه الماليةُ فى تقدُّم مطَّرِد ، وأصبح دخول سعيدٍ المدرسةَ الثانوية بالمجان معى أمراً مؤكداً . .

لـكننا فى أحدِ الأيام فوجئْنا بأمرٍ غريب .

دخلت أمى وقالت لأبى : الشيخ حافظ شيحا يعرض دارَه للبيع .

فاهتمَّ أبى بالأمر المفاجىء وقال : ماذا ؟ الشيخ حافظ يبيع داره . . . ؟ ؟ عجبا . . . ! ! !

فقالت أمى : ومحل الخردوات أيضا .

— هل وجد له داراً أجملَ ، ومكانا آخرَ أنسبَ لتجارته ؟

— كلا ، لا هذا ولا ذاك .

— إذن فما السرُّ فى ذلك ؟

— سيغادرُ القريةَ مع أسرته .

وفَغَرَ أبى فاه من الدَّهشة وقال : إلى أين ؟ ؟ ما هــذا الذى تزعمين ؟

— يقولون إنه ذاهبٌ إلى بلدة « القُرَشيَّة » حيثُ أصلُ أسرتِه وأسرةِ والِده الضابط المطارَد . .

— شىء غريب ... وتحوُّلٌ مفاجىءٌ لم يكن يتصورُه أحدٌ ... أبعد هذه الإقامة الطويلةِ يتحوَّلُ عن قريتنا . . ؟ ؟

وهمستْ أمى فى صَوْتٍ خفيض .

— منذ أن فقد ابنتَه لم يحالفه التوفيقُ فى كثير من تصرُّفاته ، لقد تركَ أمورَ الأسرة لزوجتِه تتصرفُ كيف تشاء فى المحل والبيت ... إنه شىء مُحيِّرٌ يا عبدَالدايم . . هل أصيبَ بخَلل فى عقله ؟ ؟

فهز أبى رأسه في إشفاق وقال :

— أبداً ، لكن يبدو أنه يرى فى البُعد عن هنا ، والانتقالِ من هذا المكان شيئا من السَّلْوَى والنِّسيان ، ولكن هيهات ...!!!

— ولِمَ كلُّ هذا . . . ؟ ؟ أمن أجلِ بسيمةَ ؟ ؟ غدا يرزقُه الله بغيرِها .

— كان اللهُ فى عَوْنه . . لكن ، ألم تحاولْ زوجتُه أن تَثْنِيَه عن هذا العزم .

— إنه لا يقبَلُ اعتراضاً ولا نِقاشاً فى الموضوع على الإطلاق ، بل قال لها : إذا لم تكُفِّى عن الحديث فى هذا الأمر ، فسآخذُ باقى أفرادِ الأسرة وأمضى بهم إلى القُرَشِيَّة وافعلى أنت ما تشاءين . .

— وأخته ؟ ؟ هل وافقتْ على الذَّهاب معه ؟

— طبعاً ، فمن أين تأكلُ إذا بقِيَتْ هنا . . . ؟ ؟ ثم إنها قد تجدُ لها زوجًا هناك ، فالأملُ يظَلُّ حيًّا دائما فى قلبها .

— مسكينٌ حافظ . . . كأنما وَرِثَ هذا الشقاء والتشرُّدَ عن أبيه

— من عاشر القومَ ثلاثين يوما أصبح منهم ، فغدًا يستقرُّ به المُقَام هناك فى القرشية ، ولعله ينسى ... ولا شكَّ أن اللهَ لن ينساه...

لقد حزنتُ لهذا الفراق المباغِت حزنًا لم يشابهني فيه أحدٌ غيرُ سعيدٍ حافظ ، لكن مما خفف وقعَ الألم عنى أننا اتفقنا على أن نقدِّمَ أوراقَنا إلى مدرسةِ طنطا الثانويةِ الجديدةِ حتى نكونَ معًا . .

وما هى إلا أيامٌ قلائلُ حتى سوّى الشيخ حافظٌ كل مشاكِلِه ، فباع البيتَ ومحلَّ التجارة ، ورتَّب مسألةَ انتقالِه إلى « القرشية » ، وفى فجرِ إحدى الليالى كان جملُ أحدِ فلَّاحِى القريةِ مُحَمَّلًا بكثير من المتاعِ ، تتبعه قافلةُ الأسرة .

— أسرة الشيخ حافظ ميمِّمُون شطر مقرِّهم الجديد . . .

ولم يحاولْ سعيدٌ أن يوقظَنى فى هذه الساعة المبكرة كى يودعَنى ، ولعله أشفَقَ مما سيكون فى هذا الموقف الصعب من آلامٍ وعواطفَ ودموعٍ ، ولكنى علمت أن أبى وأمى كانا فى توديعِهم ، وأن أمى قبَّلت سعيدًا من رأسِهِ ، وقالت له : « مع السلامة » بينما قال بصعوبة والدمعُ يغالبه :

— سلِّمى لى على سليمانَ . . . وأرجو أن يزورَنا قبلَ انتهاءِ الإجازة .

الفصل الثامن

تطوّرت الأحداثُ العالميةُ تطوُّرا سريعا . . . القواتُ المتحالفةُ تُطبق على ألمانيا . . . سقوط كثير من المدن فى أيديهم . . . ثم . . حصار شديد حول برلين . . المدينة تتحول إلى أكوام من النيران . . . قوات الفُوهرَر تُدافِعُ دفاعَ المستميت . . هتلر يناضل حتى الرمق الأخير . . . القوات الغربية والروسية تتسابقُ للاستيلاء على أكبرِ قدرٍ من أراضى الأعداء . . . انتحارُ هتلرَ بعد سقوط برلين .

قلت لسعيدٍ ونحن خارجان من المدرسة الثانوية :

— لقد انهارَ مجدُ هتلرَ . . ووقعت ألمانيا فى قَبْضَةِ الأعداء ، وبعد أن كانت (فوق الجميع) أصبحت فريسةً تنهشُها الذئاب ، وهوت من حالقٍ لتقبِّلَ أحذيةَ الغُزاة ، وما أظنُّ أباكَ إلا فى غايةِ الحزن والألم . .

— فعلاً يا سليمانُ . . . إنه يجلسُ ويناقشُ نفسَه بصوتٍ مرتفع ويحتجُّ ويثورُ ، ويظلُّ فى انتظار مخزن رقم ١٣ المزعوم ، لكن يبدو أن هذا المخزنَ كان وهما .

— هل اعترفَ أبوكَ بهذه الحقيقةِ أخيراً ؟ ؟

— كلا ، بل إنه يُصِرُّ على أن المعركةَ لم تنته بعد .

— أيةُ معركةٍ بعد دخولُ الجيش الأحمر والقواتِ الغربية وقبضهم على زِمام الأمور ؟ ؟ ألم يقرأْ عن محاكمةِ مجرمى الحرب ؟ ؟

— إنه لا يفوتُه شيءٌ من هـذه الأخبار ، غيرَ أنه قد قرأ فى إحدى الصُّحف خبراً مؤداه أن هتلرَ ما زال حيا ، وأنه هرب إلى مكان مجهول استعداداً للانقضاض مرة أخرى ... وأنه غيَّر من شكله بعملية جراحية . . . إلى آخر هذه الشائعات . . . وأبى يحاولُ بشتَّى الطُّرُقِ الفِرارَ من الحقيقة القائلةِ بأن هتلرَ قد هُزِمَ وقُضِىَ عليه . . .

— لنفرض أن هتلر ما زال حياً ، فماذا يعمل وليس معه جيشٌ ولا شعبٌ ولا قادةٌ ؟ ؟ ؟ إن علماءَ ألمانيا ومفكريها أصبحوا هم أيضاً ضمنَ الغنائم والأسلاب ، وقد سيقوا إلى موسكو ولندن ووشنجتون .

— الحقُّ أنه شيء يُذْهِلُ العقل . . أهكذا يصعد هتلرُ إلى أوْجِ المجد ثم يَهْوِى مرة واحدة إلى الحضيض ؟ ؟ لقد كنت أتمنى مثلُ والدى أن تدور الدائرةُ على الإنجليز

— دعنا من هذا ، لقد انتصر الحلفاء وانتهى الأمرُ . . . المهمُّ عندنا هو هذا السؤال : هل ستضيعُ أصواتُ الأُمم الضعيفةِ فى خِضَمِّ

أغانى النَّصْر وأهازيجِ السلام ؟ وهل ستنطفىء أضواء الأمل بين أقواسِ النصرِ الحمراء والخضراء ؟ ؟

— إن أبى لا يثِقُ فى الإنجليز مطلقاً ، و يؤكدُ أنهم ليسوا أهلا للصداقة والصِّدْقِ وتقديرِ إرادة الشعوبِ وحرِّياتِها .

— أتكون إذاً تلك المؤتمراتُ والتصريحاتُ البراقةُ لمجرد التخدير والتغرير ؟ ؟

— هذا ما أعتقده أو يعتقده أبى .

— إذاً سنظلُّ أسرى لعنةِ الاستعمار الغربى حِقْبةً أخرى .

— وسنبدأ من جديد ثوراتٍ ومظاهراتٍ و إراقةَ دماء . .

— وستكون أنت مسروراً بذلك لأنك تعتبر يومَ الإضراب عيدا .

— طريقُ الحرية طويلٌ . . . طويلٌ جداً وملىءٌ بالشوك والآلام والتضحيات .

— وهل يبلغُ به الطولُ حتى يمتدَّ منذ عام ١٨٨٢ — يوم الاحتلال البريطانى — حتى الآن ؟ ؟

— هو أطولُ من ذلك .

— إن الحملةَ الفرنسيةَ لم تتجاوزْ حِقبةً قصيرة . .

— كان لها ظروفُها وملابساتُها . . وبالإضافة إلى ذلك فالاستعمارُ

الإنجليزى أثقلُ ظلا ، وأدهى خُطَّةً . . .

ووصلنا إلى « القهوة التجارية » فى ميــدان البلدية « بطنطا » حيث كانت تقفُ العربةُ التى تُقِلُّ سعيدًا وزملاءه يوميا من «القرشية» إلى « طنطا » وبالعكس . ولقد اختار الشيخ حافظ لابنه هذه الوسيلةَ بدلا من أن يتركَه ليعيشَ غريباً وحيداً فى طنطا ، وكان الشيخ حافظٌ عنده من المبررات ما يؤيِّدُ وِجهة نظره هذه ؛ لقد كان فُقدانُ بسيمةَ مَدْعاةً لحرصِه الزائدِ على سعيد ، والعملِ بكل الطرق والوسائل على إراحته والمحافظةِ عليه ، وتهيئةِ كل ما يريده . . . لقد بلغ هذا الحبُّ حدَّ المغالاة والهوَس ، فكثيرًا ما كان الشيخ حافظ يأتى مع ابنه إلى طنطا لا لشىء إلا للاطمئنان عليــه ، والبقاء بجواره أكبرَ مدة ممكنة ، بل كان ينتظره أحياناً على باب المدرسة حتى إن الصلةَ بينه وبين بواب المدرسة — « العم فرج » — توثَّقت على مر الأيام ، فكانا يتبادلان لفائفَ التبغ ، والتحدثَ فى الخصوصيات والأسرار العائلية ، وأكثرُ من مرة كان يأتى لسائق العربة ويوصيه بأن يهتمَّ بمحرِّك العربة وتجديدِ آلاتها وبالحِرْصِ الزائد فى أثناء القيادة . . .

أجل ، لقد كانت مأساة بسيمةَ ناقوساً دوَّى فى أذن الشيخ حافظ وترك جِراحاً غائرةً فى نفسه ، فأصبح شديدَ الوَلَهِ والحب بوحيدِه

سعيد ، وكان سعيدٌ نفسُه يجدُ الشيءَ الكثير من الحرج والخجل إزاء تصرفات أبيه . . . لكن ماذا يفعل ؟ لهذا لم أعجبْ حينما قال سعيدٌ وهو يَهُمُّ بركوب العربة أمام القهوة :

— إن أبى سيحضر إلى طنطا معى فى الغد لشراء بعض البضائع ، وطبعاً غدا الخميس والدراسة نصف يوم ، فهل ستكون معنا ؟ ؟

— إن شاء الله . . . مع السلامة .

— الله يسلِّمُك .

وانطلقت العربةُ به نحو « القرشية » كالمعتاد . . .

* * *

أما أنا فقد آثرتُ أن أعيشَ فى طنطا ، لأن المسافةَ بينها و بين قريتنا بعيدةٌ ، ولأنَّ المواصلاتِ صعبةٌ ومتأخرةٌ فى نفس الوقت . . . .

وقد لاقيتُ فى حياة القرية ألوانا كثيرة من المتاعب . . .

وجدت نفسى لأولِ مرة حُرًّا أتصرفُ كيفَ أشاء ، وفى جيبى المصروفُ الشهريُّ أنفقه على أىِّ وجهٍ أريد ، واللعبُ أو الاجتهادُ أمرُهما متروكٌ لى وحدى ، لكننى ضقت ذرعاً بهذه الحرية وأبغضتها بغضا لا مزيدَ عليه ، كنت أريدُ أن أتخلَّصَ منها بأى شكل ، لقد شَعَرْتُ بهذه الحرية وكأنها شبحٌ مخيف أمامى ، وسهامٌ تُغْرَسُ

فى جسدى ، فهل كان هذا لأنى لم أكن كفأ بعدُ لأتحمل هذه التبعةَ الملقاةَ على عاتقى ؟ ؟ وهل كان السبب راجعاً لصِغَرِ سنى أم لأى شيء آخر ؟ ؟ كل ما أذكره فى هذه الفترةِ لمحاتٍ باهتةً خاطفةً لـكنها ذاتُ دِلالاتٍ غيرِ خافية . . .

أذكر أننى ذهبتُ مرة إلى دار الخيالة لمشاهدة قصة « طاقية الإخفاء » . . ودخلت والأضواء مطفأةٌ والناس ساكتون لا أكاد أتبين أشباحَهم ، وكان مرشدى أحدَ العمال المشرفين على نظام الدار ، ويظهر أنه كان جافًّا غليظاً ، ولهذا السببِ وضعوه فى أحطِّ درجات الدار ، وبرغم أنه كان يُشْعِلُ بعضَ عيدان الثقاب لينيرَ لى الطريق إلا أننى كنت أصطدمُ بهذا أو بذاك ، ولا أكادُ أخلصُ من مَقْعَدٍ إلا ليصدمَنى مقعد آخرُ ، وفى النهاية لم أجد مكاناً فدفعنى الرجلُ إلى ركن قصىٍّ وقال لى : « قف هنا . . . سترى الشاشةَ من هنا لأن كلَّ الأماكن مشغولة » .

لم يسبق لى دخولُ دار الخيالة من قبل ، لهذا اعتبرت نفسى حسنَ الحظِّ نظرا لأنى أقفُ بجانب الشاشة تقريباً . .

وكانت الصورُ المتحركةُ والأصواتُ المسجَّلةُ ، وصيحاتُ بعض المهرجين من آن لآخر ، جعلتنى لا أكاد أفهم شيئا من الرواية

لاختلاطها ، ورويداً رويداً استطعت أن أتبيَّنَ الجالسين ، وتركتُ الشاشةَ لأصعِّدَ بصرى فى الجالسين فوق وتحت وأمام وخلف ، وكنت أعجبُ أشدَّ العجبِ من هؤلاء الناس الذين تبدو عليهم آثارُ النعمة والثراء ، ومع ذلك فقد آثروا الجلوس فى الخلف ، وحانت منى التفاتةٌ لأجدَ مكانا شاغراً ، فآثرتُ الجلوس عليه لأن طولَ الوقوف قد أتعبَ ساقىَّ ، وما إن هممت بالجلوس حتى وكزنى شابٌّ عن يمينى وآخرُ عن شمالى ، وقبل أن أنطِقَ بكلمة وجدت نفسى مُلْقًى حيث كنت من قبل ، وبصورة مُزْرِيةٍ جَرَحَتْ كِبْريائى ، وسمعت أحدَهم يقول :

— أصل الحكاية فَوْضى . . . ! ! ! أنت فاكر أنه مكان من غير أصحاب ؟ ؟

ولم أكن أعلم أن من حقِّ أحدٍ أن يحجِزَ مكانا لزميلٍ له قد يأتى أو لا يأتى ، وخصوصاً بين رواد الدرجة الثالثة ، لكنى تيقنت بعد ذلك . . .

وخرجت من « الرواية » وأنا فى غاية النَّكَد والحزن ، والدمعُ يكادُ يَطْفِرُ من عينى وكأنى قد ارتكبت وزراً كبيرا . أمن أجل الخمسة والعشرين مليما التى دفعتها كنت آسفا ؟ ؟ أم من أجل الوقت

الذى أضعته فى المشاهدة ولم أذاكر فيه ؟ ؟ أم من أجل المعاملة الزَّرِيَّة التى لقيتها من العامل الفظ والشابين اللذين قذفا بى بعيدا . . ؟ ؟ أم من أجل وجودى فى دار الخيالة للمتعة والانبساط ، بينما قد تكون أمى تشكو مُرَّ الشكوى فى ذلك الوقت من آلام قلبها ، أو أبى يقضى ليله فى الغَيْط ليزرع أو يسقى ، أو ليلى ومحمود ينامان وفى أيديهما كِسرةُ الخبز ويحلُمان بالحلوى والفواكه ؟ ؟

لعل أسفى وتأنيبَ ضميرى كان من جَرَّاء هذه الأسباب مجتمعة . . . وبرغم الألم الشديد الذى كنتُ أقاسيه لا ألبث حتى أجدَ فى نفسى حنينا غامضاً وشوقاً جارفا يُرْغِمُنى إرغاما على معاودة الذَّهاب مرة ثانية لمشاهدة الروايات ، فقد كنت أجِدُ فى دنياها عالَمًا مُشَوِّقا يسلب لُبِّى ويسيطر على خيالى . وكنت فى نفس الوقت أتغلب بها على مشاعر الغُرْبة ، والترفيهُ عن النفس أمرٌ هامٌّ بعد المذاكرة ، وكنت ألجأ إليها فى بعض الأحيان هَرَبا من زميلى الأزهرىّ الذى يسكن معى ، فقد كان ينتحِلُ الأسبابَ الواهيةَ ، والخلافاتِ البسيطةَ ، حتى يطلق للسانِه وشتائِمه العِنانَ ، فيعرقِلُ بذلك مجهوداتى الدراسيَّةَ ، ويتسببُ لى فى انحرافِ المِزاج ، وتسويدِ عِيشَتى المتواضعة . . .

وفى أثناء ذلك عرفتُ الكثيرَ عن الطلبةِ الغُرَباء ذوى السلوك

المنحرف وعلاقاتهم الشائنة ببائعات الهوى ، وعن سَهَراتِهم الصاخبة حيث الحشيش ومختلف ألوان الخلاعة ، وكنت أحاولُ جاهدا أن أبتعد عن هذه الأوساط الموْبوءة ، وكان الشعورُ بالإثم الموهوم الذى لازَمنى ذا فائدة هامّة فى هذه النّاحية فكان أقلُّ انحرافٍ أو خطأٍ بسيطٍ يعرِّضُنى للنكدِ وسياطِ الضمير القاسية ... ولا مناصَ من الاعترافِ بأنى كنت أشعرُ بشيء من الكبت لكنه كان أخفّ وطأةً من الانهيار الذى يلقى بى إلى الهاوية ، إذ لم يكن فى مقدورِ أبى أن يتحمَّل نفقاتِ تأخرى عاماً بسبب الرُّسوب ، لذلك كان مجردُ التفكير فى عدم النجاح يملؤنى بالفزع والرَّهْبة ، فأنْكَبُّ على الاستذكارِ ولا أتركُ الكتابَ إلا إلى مَلْعَبِ كرة القدم التى كنت أعشَقُها قبل أن أنضمَّ إلى فريقِ المدرسة ، أو إلى بعضِ روايات الشاشة .

وكثيرا ما فكّرتُ فى سعيدٍ والراحةِ التى ينعَمُ فى ظلالها ، فهو يَبيتُ مع أسرتهِ هانئا ناعمَ البال ، ولا يتعرضُ لهذه الوساوس والآلامِ التى تشاطرنى حياتى ، ولا يجد المشقةَ التى أجدُها أنا فى إعدادِ طعامى الذى كثيرا ما كنت أتكاسلُ عنه وأكتفى « بالطعمية » أو الفول والطحينة والجبن . . .

لقد كان يحِقُّ لى أن أحْسُدَ سعيدًا . . .

ولا أستطيع أن أنسى يوم أن كنت أذاكرُ فى مسجد السيد البدوى وفى غَمْرَةِ الازدحامِ التى تُلِمُّ بالمسجد من آن لآخر ، تحسَّسْتُ جيبى فلم أجد حافِظَةَ نقودى . . . ! ! !

ولسوءِ الحظِّ كان هناك سوءُ تفَاهُمٍ بينى و بينَ زميلى الأزهرى ، لذا قضيتُ يومَيْن كامِلَيْن آكلُ الخبزَ البلدىَّ الجافَّ مغموسا بالمِلح دون أن يسمح لى كبريائى بالاقتراض منه ، وفى الوقت نفسه لم يحاولْ هو بدَوْره — برغم علمه بما حدث — أن يعطيَنِى شيئا من المال .

وكان سعيدٌ هو الذى أنجدنى من هذه الوَرْطة . .

لقد تذكرتُ التجربةَ القاسيةَ التى مرت بعمِّى وقدرْتُ ظروفه . .

* * *

بعد انتهاءِ الدِّراسةِ يوم الخميس ، كان الشيخُ حافظٌ فى انتظارنا ، وكان كعادتِه يتجاذبُ أطرافَ الحديثِ مع « العم فرج » البواب ، فتعلقت بيمينهِ وسعيدٌ بيَسارِه ، بينما هو ينتقل بنا من شارع « الخان » إلى شارع « البورصة » ، وينتهى من زيارة « البدوى » كيما نتَّجِهَ لزيارةِ سيِّدى « عز الرجال » ، وفى أثناء ذلك يشترى الشيخ حافظ ما يلزمُ محَلَّه من البضائع ، ويبدو أن حركةَ الاتجارِ فى القرشية كانت أوسعَ مدًى من قريتنا ، لأن كَميّةَ البِضاعة التى اشتراها كانت أكبرَ

مما مضى ، والأوراق المالية الكثيرة أصبحت لافتةً للأنظارِ فى حافظةِ نقوده ، وكان الشيخ حافظ عطوفاً لدرجةٍ أنه أخذنا إلى مَطْعَمٍ فخمٍ حيث قدَّم لنا وَجْبةً شهيَّةً من اللحم والخضر ، ولم يكتفِ بذلك ، بل قادنا إلى القهوة « التجارية » حيث جاد علينا ببعضِ المشروبات الُحلوة ، ومع ذلك فقد قال الشيخ حافظ :

— اسمعوا يا أولاد . . . إن الجلوسَ فى المقاهى مفسدةٌ ، ومضْيَعةٌ للنقودِ والوقتِ ، فلا تقربوها ما استطعْتُم . . .

وهززنا رءوسَنا تأميناً على كلامِه ، ولم أكن فى حاجةٍ إلى نصيحتِه هذه لأنَّ ما معى من النقودِ القليلةِ لا يكاد يكفينى ، واستطرد الشيخ :

— وأيضا ابتعدوا عن السياسة . . . فأنتم ما زلتُم فى سنٍّ مبكِّرة لا تسمح لكم بفهم مراميها ، وإدراكِ أساليبها الملتوية ، وسيكون لكم فى مستقبلِ الأيام ما ينتظرُكم من الأعمال الكثيرة .

ولستُ أدرى هل زَهِدَ الشيخُ حافظٌ فى السياسة بعد هزيمة هتلرَ وانتحارِه ، أم أن طولَ الخِبرة والتجربةِ جعله يحملُ فكرةً سيئةً عن جَدْوى السياسةِ فى مصرَ وعن زعمائِها الذين لا همَّ لهم غيرُ الُخطَبِ والتهريج الرخيص . . .

وألقيتُ نظرةَ على الشيخ حافظ فرأيتُ الجريدةَ فى جَيْبِه وقد

ظهر جزء منها ، وردَّ سعيدٌ في جرأة مستحبَّة :

— كيف لا نهتم بالسياسةِ ونحن شبابُ الغدِ ، وأبطالُ الوطن ؟

فضحِكَ الشيخُ حافظٌ ، ولعله شعَر بفيْضٍ من السعادةِ الداخليَّةِ التي انعكستْ على ابتسامتِه العريضةِ وقال :

— هذا الكلام من أثرِ الإنشاء والخُطَبِ التي يُلَقِّنُونَكم إياها في المدارس ، لكن إذا ما كبِرْتُم وأدركتُم الحقائقَ ، صدَمْتكمُ أشياءُ محزنةٌ .

— إن حبَّ الوطنِ من الإيمان يا أبي .

— أنا لا أمانِعُ في حبِّك لوطنك ، فهذا واجبٌ مفروض ، لكنَّ الطيشَ والتهوُّرَ هما ما أُخافُ عليكم منهما . . . تذكَّرْ المعاملةَ التي كان الشرطةُ يعاملونكم بها فيفرِّقون مظاهراتِكم بصورةٍ قاسيةٍ . . .

— أتقصدُ أنَّهم كانوا يُغْلِظون علينا ، ويُطلِقون الرَّصاص نحوَنا أحيانا ؟

— فتَفِرُّون كالخِرافِ الصغيرةِ المذْعُورةِ .

قالها الشيخ حافظٌ وهو يُقَهْقِه ، لكنَّ سعيداً اعتدلَ في مكانه وبانت عليه سِماتُ الرَّزانةِ والجدِّ وقال :

— قد يعتدون علينا ، فيصيبون البعضَ أو يقتُلونَهم . لكن

يكفينا فخراً أننا نموتُ شهداءَ من أجلِ الحرية . . .

ــ لا يأخذنَّك الحماسُ هكذا ياسعيدُ . . . ولا تنسَ أن رجالَ الشرطة مصريُّون مثلك ، وقد يكونون أشدَّ وطنية منك ، ولعل لهم أبناء بينكم ، ولكنّ الواجبَ قد يُحَتِّم عليهم بعضَ التصرفاتِ القاسيةِ يا ولدى .

ــ كلُّ ما أعرِفُه أنهم أدواتُ للظُّلم ، وأعوانٌ للحكام المستبِدِّين .

ــ الوِزْرُ الأكبر يا بنى يقع على عاتِقِ الاستعمار فهو الذى أفسد حياتَنا وأثارَ الشكَّ بيننا ، وبذرَ بذورَ الفتنةِ بيْن طوائفِ الشعب ؛ كل ذلك لكى ينقُلَ الصِّراعَ الذى بيننا و بينه إلى عِراكٍ شخْصِيٍّ وشِجار محلى .

ويبدو أن هذا الكلامَ لم يكن على هوَى سعيد ، فأخذ يعبَثُ بكتاب فى يدِه ويتصفحُه دون أن يقرأ أو يعِىَ شيئا فيه بينما التفت الشيخ حافظ إلىّ وقال :

ــ وأنت يا سليمانُ . . . ما رأيُك فى هذا الكلام ؟

فلم أجِدْ ما أجيبُ به ، لكنِّى قلتُ من باب المجاملة :

ــ سنستمع لنصائِحِك ونعملُ بها إن شاء الله .

ــ إنك أهدأُ من سعيد ، وألْيَنُ جانبا ، وأعْقَلُ فى تصرفِك . .

ونظرَ إلىّ الشيخ نظْرةً فاحِصَةً وقال :

— ماذا بك يا سليمانُ . . . أتشكو من ألمٍ ما ؟

فتحامَلتُ على نفسى مُحاوِلا إخفاء ما أُحِسُّه من ألم وقلت :

— لقد شعرت بمغصٍ خفيفٍ منذ الحصة الثانية ، وأهملتُه لعله يكون شيئا عابرا و ينتهى ، لـكن يظهرُ أنه قد ازداد قليلا . .

والحقيقة أنى كنت فى هذا الوقت بالذات أشعرُ كأن مُدْيةً حادَّةً تمزق جنبي اليمين ، وكانت آثارُ الألم مرتسِمةً على مُحَيَّاىَ ، مما دعانى للانطواء على نفسى وعدمِ الاشتراكِ فى الحديث الذى كان يجرى بين سعيدٍ وأبيه ، ولقد حاولت مغالبةَ الآلام حتى يسافرَ سعيدٌ وأبوه ، إذ ليس من اللائق أن أتركهَم وأمضىَ لمسكنى وهم فى حُـكمِ الضيوف ، ولم يَقُم الشيخ حافظ قبلَ أن يحضرَ لى كو باً من القِرفة زاعما أنها ستقضى قضاءً تاماً على كلّ ما أحِس به من مَغَص .

وعند انصرافِه همَس فى أذنى قائلا :

— اسمع يا سليمانُ . . . حافِظوا على أنفسكم حتى لا تسببوا لأهلِيكم المتاعبَ والأحزانَ ، وحتى يرضى الله عنـكم و يكتبَ لـكم النجاحَ . . . أخوكَ سعيدٌ متحمِسٌ ومندفعٌ ولا يقـدِّرُ العواقبَ كثيرا ، فـكن بجانبه دائما وحاوِلْ تهدئتَه . . . إنه صديقُك و يسمعُ

كلامَك ولا يردُّ لك رجاء . . كان الشيخ حافظ يتكلمُ فى إشفاقٍ ووَجَل ، ويبدو أنه كان يستحضر آنذاك فى ذهنه صورةَ « بسيمةَ » المسكينةِ ، ومأساتِها التى تتفطر لها القلوبُ والتى لا تفتأ تطالعُه بأشباحها ليلَ نهارَ حتى بانت تجاعيدُ الشيخوخة فى وجهه وجبهتِه ، ولم يَعُدْ خافيا أنه قد تغـيَّر خلال العامين المنصرِمَين تغيراً يضارع عشْرَ سنوات . . . لقد كانت تجربةُ بسيمةَ شاقةً أليمة ، وهو يحاول جاهدا الإفلاتَ من وطأتها ، لـكنها تطارده وتلحُّ فى مطاردته فيدفعُه ذلك إلى المبالغةِ فى حبه لسعيدٍ ، وتحذيرِه تحذيراً متصلا من كل خطر متوهَّم . . .

وعدت إلى مسكنى والمغصُ على ماهو عليه من الحِدَّة والتمادى . .

لم أستطع أن أتناولَ أكلا ولا شرابا ، ولم أتمـكنْ من النوم لـما أقاسيه ، وأخذت أتلوّى وأتقلبُ فى فراشى ، وأتأوّهُ تأوهاتٍ مكتومةً ، أما زميلى الأزهرى ، فقد كان يجلس فى مَقْعده يقرأ بصوت مرتفع يعلو على بعض الاستغاثات التى تُفْلِتُ منى . . . ولـمَّا ازدادت شِكايتى واستغاثتى ، التفتَ إلىّ فى تثاقُل وقال :

— هل أحْضِرُ لك شَرْبةَ مِلْح إنجليزى ؟

— إنها لا تنفعُ فى علاج المغص .

وعاد الزميلُ — سامحه الله — إلى ما كان فيه من مذا كرة بصوت مرتفعٍ وكأن هذا الإنسانَ الذى يصرُخ — أنا — ويوشك أن يلفظ أنفاسه فى واد آخر ، وليس معه فى حجرة واحدة . . .

لقد ثارت مشاعرى إزاءَ هذا الموقفِ الجافِّ من زميلى لمجرد بعض الخلافاتِ الشخصيةِ البسيطة ، وشعَرْتُ بآلام الوَحْدةِ والغُربة فى هذا الوقت بالذات أكثرَ من ذى قبل ، ووجدتُ ميْلا جارفا للبكاء . .

تُرى لو كنت بين أبى وأمى وجدتى فى هذا الوقت أكنت أُحِس ما أحس به من آلام نفسيةٍ فوق الآلام العضوية التى تكاد تدفعُنى لأن أقذفَ بنفسى من الشرفة ؟ ؟ و بلغت أصواتُ استغاثتى مسامِعَ الجيران ، فتضايقَ زميلى وقال :

— ألا يكفى صُرَاخا ؟ ؟ أتريدُ أن تفضحَنا هنا ؟ ؟

وغلى الدمُ فى عروقى وغامت عيناى بالدموع ، وأوشكت أن أمسك بإبريق المياه الفَخّارى الموضوع بجانبى فى النافذة وأقذفَه به ، لكنى تمالكتُ نفسى ، وقلبى يضرَعُ إلى الله أن يخففَ ما بى من أوجاع . . .

يا للضيعة . . . ! ! ! إذاً من الممكن أن أتلوى هكذا حتى يُقْضَى عَلىَّ . . .

وكان يسكن الحجرةَ المجاورةَ لنا عسكرى بوليس مع زوجته ، وسارع الاثنان لزيارتى والاطمئنانِ على حالتى ؛ قال الرجل :

ـــ لا بدَّ من عرضِك على طبيب حالا .

طبيب ؟ ؟ ؟ من أين لى المبلغُ الذى أدفعُه للطبيب . إنها لم تحدثْ لى طولَ حياتى ، بل إن أمى تشكو من آلام قلبِها منذُ سنوات ومع ذلك لم نفكرْ فى إرسالها إلى الطبيب ولعل الرجلَ أدركَ ما أنا فيه من حَيْرة فقال .

ـــ نستطيعُ أن نطلبَ لك عربةَ الإسعاف وننقلَكَ إلى المستشفى الأميرى . . .

لكنَّ زوجتَه بادرت قائلة :

ـــ لا . . . المستشفياتُ المجانيةُ كلُّها لا تَخْدُمُ بذِمَّة ولا إخلاص . إنى لأفضلُ الموتَ على الذَّهاب إليها . .

ـــ لكنها موجودةٌ لعلاجِ الناسِ والسهرِ على راحتهم .

ـــ لستُ مجنونةً حتى أفرِّطَ فى نفسى ، وألقِيَ بها بين أيديهم .

ثم التفتتْ إلىَّ وقالت :

ـــ اسمعْ يا سليمانُ ، إذا كنتَ فى حاجةٍ إلى نقود فنحنُ تحتَ تصرُّفِك حتى تستدعِيَ والدك . . . ما عليك إلا أن تأمرَ وسنقدِّمُ لك

فوراً إلى إحدى المستشفيات الخاصّة لتوقيع الكشف عليك . .

كل ذلك وزميلي واقف ساكت في بلادة وبرود عجيبين ، لكن عندما وجد أن المسألة دخلت في طَوْرٍ جِدّيٍّ ترك برودة وبلادته وسارع بالاتصال بوالدي هاتفياً « تليفونياً » ، وأحضر عربة لنقلي إلى الطبيب .

ثم حوّلني الطبيب فوراً إلى المستشفى الأمريكاني لإجراء جِراحة الزائدة الدودية .

* * *

أُجْرِيَتِ العمليةُ الجراحيةُ بنجاح ، وأفقتُ من أثر التخدير لأرى بجانبي أسرتَنا كلَّها وهم يبكون .. أبي .. أمي .. ليلى ومحمود الصغيرين ، حتى جدتي وجدتها تمرر يدها كالمعتاد فوق جبيني بحنان ، ولعلها كانت ترْقيني وتخاف عليّ من الحسَد نظراً لنجاح العملية . .

وعِشْتُ أسبوعين غارقا في الزيارات ، والدَّعَوات والتمنيات الطيبة بالشفاء العاجل . . . وكان سعيدٌ في غاية التأثر والاهتمام فلم يكن يمرُّ يومٌ دون أن يزورَني فيه .

وخرجتُ من المستشفى سليما معافًى لأرى خِطابا من عمي ينتظرني في المدرسة .

كتب عمى يقول :

ولدى سليمان :

شاءت الأقدارُ أن أقاسِيَ الأهوالَ فى تلك الفترةِ الحرِجةِ من حياتى ، فلقد تقلبتُ بين مختلِفِ الأعمال منذ أن أتيت إلى القاهرة ، وأخذت أتنقل بين المخابزِ ومُقاولى العِمارات كعاملٍ بسيط بأجرٍ يومى لا يتعدى بضعةَ قروش ، وكانت لقمتى مغبرّةً تماما مثلَ وجهى وملابسى وشعر رأسى من أثر التراب ، فتعلمت المثابرةَ على العمل ساعاتٍ طويلةً فى حر الشمس اللافح ، ولم أكن أجِدُ من الاستقرار ما يضمن لى الحياةَ الهادئةَ المطمئنة ، بل كنت معرّضا للطرْد من وقت لآخر . . . كان الطريقُ شاقا ، والبدايةُ قاسيةً منفّرة ، لـكنى كنت أبنى مستقبلى من جديد . . . أو بمعنى آخر كنت أبعثُه من العَدَم . . . ويبدو يا ولدى أن العملَ الشاقّ قد أنسانى الترفَ والخلودَ للمتعة . . . فمن ناحية السَّهر لم أكنْ أجدُ فى نفسى القوةَ لـكى أسهرَ ساعةً أو ساعتين ، بل كان الإنهاكُ الذى أقاسيه يُسلِمُنى لنوم عذب جميل ، فتذكرت ماضِيَّ حينما كنت لا أقربُ النومَ إلا إذا أكلت هذا وشربت ذاك ، وأظنُّك تدركُ مغزىْ ما أقول . . .

إن رغيفا واحدا بداخله قليلٌ من الفول والزيت والمِلح لـكافٍ

جدًّا الآن أن يَسُدَّ جوعى . . . واستحوذَ الحصولُ على رزقى اليومى كلَّ تفكيرى ، واعترضتنى مشكلةُ الملابس والحذاء بعد أن أبلاهما العملُ ومرورُ الأيام .

وجاء رمضانُ يا سليمانُ ، فتذكرت أمواجَ الرحمة والرُّوحانية التى كانت تغمُر بلدنا الصغيرَ كل عام . . وتذكرت الأطفالَ وهم يجرون فرحين عصر آخر يوم من شعبان وهم يرددون فى صوتٍ منغَّم حبيب « الصيام بكره يا عباد الله . . . » والمسجدَ الكبيرَ وهو مكتظٌّ بالفلاحين ، وأصواتَ الابتهالاتِ والتكبيرِ والتسبيحِ تُشيعُ فيه جوًّا عذبا أخاذًا والأضواء الغازية قد تضاعفت فيه ، والمسحر (المسحِّراتى) وهو يجوب أنحاء القرية بين تهليل الكبار والصغار ، وتذكرتُك أنت وقد كنتَ صغيرا ، تخرج من البيت بعد أن تَهُبَّ من نومك الذى ما زال متعلقا بأجفانك ، وتحاول أن تفتحَ عينيك ببطء ، حتى ترى المسحِّر وطبلتَه فى ضوء مصابيح الغاز ذاتِ الشُّعاع الضئيل . . . لقد حرمتنى المدينةُ بما فيها من ضوضاء وأضواء هذا الجمالَ الفطرى الساذَجَ ، وتلك الصورَ الحيَّةَ البديعةَ التى عِشْتَ بين ظهْرَانَيْها طويلا . لذلك كنت آوِى إلى أحدِ المساجد أقطعُ الوقت بالدعواتِ والصلواتِ مستمسكا بالصبر ، لكنَّ أعصابى انهارت يومَ العيد ،

انهارت لأنى شعرت يومذاك بأنى غريب فعلا . . الناس فى تهنئاتٍ وعناقٍ وتزاوُر . . أما أنا فكنت كالنَّبْتةِ الشائكة وسَط حديقة جميلة لا تكاد تقتربُ منها يدٌ ، أو يدنو منها زائرٌ . .

صحيح أنى استطعت الحصولَ على ملابسَ وحذاءين جديدين من جراء التضييق والتقتير الشديدين اللذين أخذت بهما نفسى أخذاً لا هَوادة فيه ، لكن يبدو حقيقةً أن العيدَ ليس لمن لبِس الجديدَ وتعطَّر وترك العمل . . .

ومع ذلك فقد كنت أشعرُ ببعض الغبطة لأنى أعملُ فأجِدُ ما أقتاتُ به ولا أمدُّ كفًّا لأحد كى أستجديَه . . كان هناك شىء اسمه الكرامة يرافقنى أينما رحَلْتُ . . وكان هذا الشىء — أو الرمز — يمدُّنى بطاقات هائلةٍ من الصبر والسعادةِ والأملِ ، وقد تظن يا سليمانُ أن الكرامةَ بالنسبة لإنسان مثلى يعيش بين التراب والأحجار ، ويزاول الأعمالَ المحطة ، قد تظنها شيئا من الوهم والخِداع ، ولكن لا يا سليمان . . إنى أوصيك بأن تستمسِكَ بمثلِ هذا الرمز — أعنى الكرامة — فستجدُ فيها عزاء أىّ عزاء ، وعوناً على تحمُّل الشدائدِ أىّ عون . . .

وقد تعجبُ لم لا أبحث لنفسى عن عمل أحسن منزلة مستخدماً

فى ذلك علمى المتواضع — كراسب كفاءة — ولكن أقول لك إن عدمَ اللياقةِ الطبية عقبةٌ كأداء أمامى ولم أستطع التغلُّبَ عليها بالوسائل غيرِ المشروعة ، لأنى لم أكن أحملُ من النقود غيرَ ثمن القوت اليومى ، ولأنى أيضا لم أكن أستسيغ ذلك لأنى ناقمٌ على مثلِ هذه الوسائل ، بل حاقِدٌ عليها حقداً شديدا ، فلا يصح إذاً أن أشاركَ فيها ، وألَغَ فى إنائها القذر .

وفى هذا الشهر كتب الله لى بعضَ الهدوء والاستقرار إذ استطعت الحصول على عمل بسيطٍ فى وزارة الدِّفاع الوطنِي قسم المخازن ، فعُيِّنْتُ خفيرا لبعض الُمهِمَّات بأجر يومى يبلغ اثنَىْ عشَرَ قرشا ، وأقومُ بالحراسة نصفَ يوم ، أسبوعٌ مساءً ، وأسبوعٌ نهارا — وأعتقد أن هذا نهايةُ المَطاف بالنسبة لى ، والحمدُ لله على هذا ، وكل ما آمله هو أن يرزقَنى الله بزوجةٍ طيبة صالحة ، تتناسَبُ مع سنى التى تزحفُ نحوَ الشيخوخة ، لعلها تؤنسُ غُربتى ووَحْدتى ، فلن أستطيعَ يا سليمانُ أن أعيشَ مترَهِّبا أكثرَ من ذلك . . .

وتستطيعُ منذُ الآن أن تراسلَنى على هذا العنوان : قلعةُ الكَبْش شارع الطُّولُونى رقم « . . . »

ودعواتِى الصادقةُ لك بالتوفيقِ والنجاحِ .

الفصل التاسع

كانت الإجازةُ الصيفيةُ فى هذا العام جميلةً . . ولم تكن تستمدُّ جمالَها من استمتاعى بقضائِها فى إحدى المدن الشاطئية ، فإن ذلك أمرٌ محالٌ بالنسبة لى ، بل كان سرُّ جمالها ناتجا عن نجاحى وسرورى بذلك ، فقد تَكَلَّلَتْ جهودى — مثل سعيد حافظ — بالتوفيق ، برغم المضايقات وَبرغم المرض الذى عانيت منه فى طنطا ، وبرغم تفكيرى فى مشاكل أسرتنا التى لا تبرحُ ذِهنى أبداً ، وكأنها جزء من دروسى فى المدرسة .

وكنت أقرأ ذاتَ يوم عن مشكلة الفراغ عندَ الشباب ، وكيف يتغلَّبون عليها فى بعضِ البلاد الأجنبية ، فيلجئون إلى العمل المفيد الشريف ، وأخذت أدقق النظر فى صوَرِ بعض الشباب الجامعيين وهم يقومون بالخدمة بعضَ ساعاتٍ فى دور الحضانة أو فى المقاهى أو إلقاء بعض الدروس الخصوصية . . . فكَّرْتُ جِدِّيًّا فى الأمر ، وذهبت إلى والدى وكانت أمى معه ، فقلت :

— أنا فى حاجةٍ هذا العام إلى ملابسَ جديدة ، وأتمنى أن أودِّعَ

عهد السراويلِ القصيرةِ وأبدأ عهدَ السراويلِ الصوفيةِ الطويلة ، لأنى صِرْتُ رجلا . . . أليس كذلك يا أبى ؟ ؟

— سيفرجها الله يا سليمان . . لم يزل أمامَنا ثلاثةُ شهور على افتتاح الدراسة . .

— وهل عندك مانعٌ من أن تفكر فى الموضوع الآن حتى آخذَ منك عهداً على ذلك ؟

فتدخلت أمى وقالت فى عصبية طارئةٍ لمَّا فاجأها داء القلب اللعين :

— دعِ الأمرَ لله ولا تحمِّلْ نفسَك الهمومَ من الآن ، وسنهيِّئُ لك كلَّ ما تحتاجُه .

وأكمل أبى حديثَها كأنه يساعدُها حتى تزولَ عنها نوبةُ الألم :

— طبعاً . . . سنجهِّزُ لك كلَّ ما تحتاجُه ولو جُعْنا وعُرِّينا . . إن طلباتِك مقدسة . .

— يا أبى اعملْ لدُنياك كأنك تعيشُ أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا . . . وأنا أعلم أن الحالةَ الماليةَ ليست على ما يُرام ، فلماذ الا نجدُ حلا لهذا الموضوع منذ الآن ؟ ؟

— ماذا تريد أن تقول ؟ ؟

— ماذا لو التحقتُ بالحلة الكبرى لأزاولَ أىَّ عمل حتى تنقضىَ هذه الشهورُ الثلاثةُ الباقيةُ على استئناف الدراسة ؟

فرد أبى فى دهشة :

— المحلة ؟ ؟ لا . . لا يا سليمانُ أبعدَنا الله عنها . .

فقلت من فَوْرى :

— وهل حرامٌ أن أَشْتَغِلَ وقتى وأكسِبَ بعضَ الجنيهات لأشترىَ بها كتبى وملابسى فأخففَ عنكم بعضَ الضغط ، فضلا عن أن نصفَ الديون ما زلنا فى حيرةٍ من أمرنا ولا ندرى كيف نقومُ بسدّه ، ومرسى أبو عفر يُلح علينا ويهدّدُ برفع الأمر للقضاء .

فتململ أبى فى مكانه دون أن يُجيبَ ، بينما صاحت به أمى وهى تغالبُ المرضَ والآلام :

— كيف تسكتُ على سماع هذا الكلام يا عبدَ الدايم ؟ ؟ هل تترك ابنَك للآلات التى لا ترحَمُ كى تصدمَه واحدةٌ منها فتقضىَ عليه ، أو تُرْجِعَه إلينا بعاهةٍ مستديمة وتضيع كل تضحياتنا هدرا فنفجع فى أملنا ؟ ؟

فسارعت بالرد قائلا :

— يا أمى لا يغنى حَذَرٌ عن قدر ، ثم إن أولادَ بلدنا الذين

يشتغلون فى المحلة الكبرى ليس فيهم فردٌ واحـــدٌ حدَث له ماتتخوفين منه .

— اسمع كلامَ أمك ياسليمانُ تنجحْ فى حياتك . . اعملْ معروفاً يا ولدى واتركْ هذه المسألة ، ولنا ولك رزقٌ على الله .

وسكتت أمى قليلا كى تستردَّ أنفاسَها اللاهثةَ وقالت :

— هل نسيتَ حكايةَ بسيمةَ ؟ ؟ كان اللهُ فى عونِ أبيها وأمها .

وأخذت ألح طيلةَ أسبوع كاملٍ على أمى لعلها تقبل ، لكن دون جدوى ، إذ كانت مأساةُ بسيمةَ هى الدليل الذى يلوِّحون به فى وجهى دائما . وأدركت أن أبى يميل إلى الحصول على ما أشاء من ملابسَ ، لكنه لا يستسيغُ الوسيلةَ التى أتوسَّلُ بها إلى ذلك . . .

ووجدتنى مدفوعا لأن أقرِّرَ أمرًا . . .

إن أبى يمنعنى من الذهابِ إلى المَحَلَّةِ حفظا لكبريائه ، ومراعاةً للتقاليد التى لا تُبيح الذهابَ إلى المحلةِ إلا لمن فقدوا مصدرَ الرزق . وأمى لا تريدنى أن أفعل ما أشاء لخوفِها على حياتى . أمّا من ناحية والدى فأنا لا أسمحُ أن أنطوىَ تحت الكبرِياء المزعومِ الذى لا يستنِدُ فى نظرى على أساسٍ سليم . هل أذهبُ إلى المدرسة فى العام الجديد بملابسى الرَّثَّة التى لا تشرِّف؟؟ إنه من الجوْرِ أن أُثقِلَ ميزانيةَ والدى

الواهية وأرُغِمَه على شراء ما يلزمُنى . . أما من ناحية والدتى فإنها قد تكون مخلصةً ومصممةً على المحافظة علىَّ من خطَرِ الآلات والماكينات ، فلها التقديرُ على ذلك ، وحياتى ملكٌ لى ، وسأعيشُها بحذَر واهتمام ، فى الحدود التى تحقِّقُ لى أطماعِى المتواضعةَ فى هذه الإجازة ، لهذا عوَّلتُ تعويلا لا رجعةَ فيه على السفر إلى المَحَلَّةِ الكُبرى . .

ولم يكن من الصعب أن أتحايلَ وأبحثَ عن بعض القروش القليلةِ التى تُوَصِّلُنى إلى هناك ، وتقومُ بأودى لفترة قصيرة . وقصدتُ من فورى إلى أحدِ معارِفنا ممن يتسنَّمون مركزاً مرموقاً فى الشركة ، فلم يدخرْ وسعاً فى إلحاقى بعمل مريح ، ولم يدم هنائى فى العمل يومين أو ثلاثة على ما أذكر ، إذ فوجئت بأبى يدخلَ علىَّ ، والغضبُ يُطِلُّ من عينيه ، ولم أصحُ من المفاجأة إلا على صفعةٍ ترِنُّ على وجهى وأبى يقول :

— أهذا ما علَّموه لك فى المدرسة عن طاعةِ الوالدين ؟؟ إن لم تكن المدرسةُ قد أتمتْ تربيتَك فإنى سأتكفَّلُ به بنفسى . . . تكلمْ . . . انطِقْ . . . منْ أَذِنَ لك بالمجىء إلى هنا يا مُغَفَّلُ . .

كان أبى فى ثوْرة عارمةٍ لا أستطيع الوقوفَ فى سبيلها ، وكان له منطقهُ الخاصُّ الذى لا يمكن أن يتزحزحَ عنه ، بينما لى منطقى الذى

اقتنعتُ به اقتناعا كاملا ، لهذا آثرتُ السكوتَ حتى تخِفَّ ثورتُه ، ويعودَ إلى حالته الطبيعية . وتلفتَ أبى حواليْه ليرى رداءةَ الُحجرة التى أسكُن فيها ، ويرى أثاثَها البالىَ القذرَ الذى يتسابقُ عليه البَقُّ والبراغيثُ ، ثم نظر أخيرا إلى زملائى الأربعةِ ولم يكونوا غريبين عنه لأنهم من فلاّحى قريتنا ، وقال فى حِدّة :

— صحيح . . . لم يكن ينفعُك غيرُ الغيْط والجاموسةِ والحمار . . . إننا نشقى من أجلِك ، ونحاولُ أن نخلقَ منك إنسانا وموظَّفا محترما ، لكنك تأبى إلا أن تقذف بنفسك فى الأقذار .

واقترب منى وهو ما زال فى ثورته ، وجذبنى من ذِراعى وهو يقول :

— هيَّا أمامى إلى البلدِ يا عديمَ الأدب . . .

***

أفهمتُ أبى بعد أن هدأتْ ثورتُه قليلا عن قريبى الذى ساعدنى فى التحاق بالعمل ، ورويْتُ له ما حدث بالتفصيل ، وأخبرتُه عن الكشف الطبى والاستعداداتِ التى بذلْتُ فيها مجهودا كبيرا ، وأخذت أضْرَعُ إليه وأقبِّلُ يديْه وأهوِّنُ له الأمر بكل ما أُوتيتُ من قوةِ حُجّة . . لكن دون جدوى . . . .

وعندما ذهبنا إلى قريبي لـكى يشـكرَه على مجهوده ، ويستأذنَه في أخذى ، تحولت الأمورُ إلى صَفّ . . كان قريبي هذا واسعَ الأُفق مُدْرِكاً لحقائق أمورِنا ، لم تغبْ عنه وجهةُ نظرى التى لا غبارَ عليها ، فابتسم لوالدى وقال :

— وماذا فى ذلك يا عبدَ الدايم ؟

— إنها فضيحةٌ يا سيادةَ (البك) .

— أبداً . . إن كسبَ المال عن طريقِ حلالٍ ، وبعرقِ الجبين ، ليس من الفضيحةِ فى شىء .

— إن سليمانَ لم يزل صغيرا على ملاقاةِ مشاقِّ العمل وتكاليفه .

— بل إنه رجلٌ ذكيٌّ يفهم واجبه . .

— لـكن . . .

فقاطعه قائلا : أنا لا أستريح مطلقا لحياةِ التسكُّع والفراغِ التى دأب عليها تلامذتُنا فى إجازاتهم . . .

— لقد وجدتُه اليوم فى مسكنٍ مثلِ حظيرةِ البهائم تماما . . فهل ترضى له يا سيادةَ البك هذا الوضعَ وهذه الإقامةَ المزْرِيَةَ ، بيْن أوساطِ العُمّالِ الفاسدة ؟

— الأمرُ بسيطٌ . . . سأهيِّئُ له مَسْكَناً طيبا مع أسرة كريمةٍ

أعرِفها ، وسيعيش سليمانُ معهم كأحدِ أبنائهم ، وأما من ناحية العمَل فابنُك يعتبر موظفا لأنه يحمل الشهادةَ الابتدائيةَ ، ولهذا وَكَلْتُ إليه عملا كتابيًّا يمُتُّ إلى دائرةِ أعمالى بصِلة وثيقة ، فماذا بقى بعد ذلك ؟

ويظهر أن عبارة « ابنك يعتبر موظفا لأنه يحمل الشهادة الابتدائية » قد أثلجتْ صدْرَ والدى ، وأذهبتْ عنه بعضَ ما كان يُحِسُّه من ضَعَةٍ وإذلال إزاءَ عملى هذا ، فقال فى استسلام :

— البركةُ فيك يا سيادةَ « البك » ، أطال اللهُ عمرَكَ ونفَعنا بك .

والتفت الرجل إلىَّ وقال فى طيبةٍ ومودَّة :

— اسمعْ يا سليمانُ ، أنا هنا مثلُ أبيك تماما ، فإذا شعَرْتَ بشىء من التكدير أو الضيق ، سواء فى عملك أو فى مسكنِك ، فما عليك إلا الاتصالُ بى مباشرة ، وسأحاولُ أن أيَسِّرَ لك كل ما تريد إن شاء الله ، لأنى أحب الطلبةَ النُّشَطَاءَ الواعين . .

كانت هذه الشهورُ الثلاثةُ التى عِشْتُها فى شركةِ المحلة الكبرى ذاتَ أثر بالغ فى نفسى ، جربتُ فى أثنائها حلاوةَ الكسبِ ، وجمالَ التعب من أجل لقمة العيش ، وعاملتُ موظفين يكبُروننى سنا ومنزلة ، وتعرضت لكثير من المآزق التى كثيراً ما ينصبها زملاء العمل ،

وخصوصا لأمثالى من السُّذَّج الذين لم يمارِسوا الحياةَ العمَلِيَّة ممارسة تضمنُ لهم النجاةَ من أحابيلهم . .

لقد كانوا يتكدَّسون بالعشَرات فى الأماكن الضيقة السيئة التهوية ، ولعل ضيقَ هذه الأماكن قد انعكس على نفوسِهم فجعلها هى الأخرى نافرةً متمرِّدَة ، أضف إلى ذلك ما هم فيه من جهل وإهمالٍ صحِّيٍّ وسوء تغذية . . .

وقبل عودتى النهائيةِ إلى قريتِنا بما يقربُ من أسبوعين ، أخبرنى أحدُ زملائى أن والدى قد أرسل لى شيئا من الطَّعام كالمعتاد ، وبه دجاجتان ، وهو فى حوزة العامل « . . . » ، وهو أحدُ أصدقائى ، لكن ما إن ذهبت إليه لأتسلَّم ما أرسل لى ، حتى قابلنى بشَراسة وسوءِ خلقٍ لم أعهدها فيه من قبل ، ثم قذفَ فى وجهى بالأوانِى الفارغةِ ، وببضعة أرغفة ، ولم يكن فى مقدورى إلا أن أنصرفَ دون أن أنطِقَ بكلمة احتجاجٍ واحدة .

وبعدَ بضعِ ساعاتٍ كنتُ أسيرُ متنزِّها فى شارعٍ رئيسى من شوارع المحلة ، فرأيت صاحبَنا غارِقًا فى دَمِه ، مستنِداً على بعض المارَّةِ لوضعه فى عربة الإسعافِ تمهيدا لنقلِه إلى المستشفى . . . وخُيِّلَ إلىَّ آنذاك أن هذا نتيجةٌ منطقيّةٌ للجهل والحياةِ التعسةِ التى يحيَوْنها .

* * *

عدتُ إلى قريتِنا ومعى الملابسُ الجديدةُ لى ولكلِّ أفرادِ الأسرة ، ومعى بضعةُ جنيهات أيضا . . . والغريبُ أن النتيجةَ جاءت على عكس ما توقَّع والدى ، لقد أصبحتُ مَوْضِعاً للاحترام والتبجيلِ من كلِّ مَنْ أعرِف فى القرية . . . وكان زملائى يحسُدُوننى على فكرتى الجميلةِ التى نجحَتْ ، وكثيرا ماسمعت أمَّ أحدِهم وهى تقول له :

— انظر إلى سليمانَ بنِ عبدِ الدايم . . . ألا تستحى من خيبتِك وبَطالَتِك ؟

وتشاء الظروفُ ألا تكونَ فَرْحتى خالصةً لايكدِّرُها مكدِّر ، فقد قدَّم مرسى أبو عفر شكوى ضدَّ والدى لتأخُّره فى سداد الديون ، وكان الموقفُ واضحا لا غُموض فيه ، فإما أن يسُدَّ أبى ما عليه ، وإما أن يعرِّضَ نفسه للإجراءات القانونية التى لاترحم .

وذهب أبى هذه المرة إلى مرسى الذى أصبح أملكَ لزمام الموقف وأقدرَ على المساومة ، لأن سيْفَ القضاءِ مُصْلَتٌ على عنق أبى . . .

قال أبى :

— أنت تعلم يا مرسى أنى دفعتُ لك حتى الآن نصفَ ما علىَّ ، ولم يعد فى مقدورى أن أدفعَ لك أكثرَ من ذلك هذا العام . .

— وما ذنبي يا عبدَ الدايم ؟ ؟ كلُّ إنسان أولى بحقِّه يا صاحبي . .

— أنا لا أُعارِضُ في ذلك . . . كل ما أرجوه أن تنتظِرَ فرصة أخرى على أساسِ أن أدفعَ لك ما تراه مناسِبا من الربح . .

— لا أستطيعُ يا عبدَ الدايم . . . إنها أموالُ ناسٍ لا أمتلك منها شيئا . . . لا تؤاخذْني إني مَضْطرٌ إلى ذلك اضطراراً . .

قال أبي متضايقا :

— قلت لك ألفَ مرة لا يهمني أكانت أموالك أم أموال ناس . . لكن يجبْ أن تفهَم الوضْعَ وتقدرَ الظروف . . . ألستَ إنساناً ؟ ؟

— سامحك الله يا عبدَ الدايم . . . هل هذا جزاء من أعانك في الشدة ؟

— أية إعانة يا مرسى . . . ؟ ؟ لقد امتصصْتَ دمى ، وكدّرْت عيْشى ، وأخذتَ من الربا ما يوازى رُبْعَ ما اقترضتُه منك . . . أنت مستغِلٌّ ليس لك قلب . .

— أللشجار جئت هنا أم لدفعِ المبلغ ؟ لن نصل إلى نتيجة بهذه الطريقة يا عبدَ الدايم . . .

وشعر أبي أنه تمادَى في غضبه ولم يعتصِمْ بالكِياسة والهدُوء اللَّازِمَيْن في مثل هذا الموقف ، بينما بقي مرسى ثابتَ الجأش ، ساكنَ العواطف ، فقال أبي مستدرِكا :

— أستغفرُ اللهَ العظيم . . أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم . . لا تؤاخذْني يا مرسى ، حقُّك عليّ . .

— حصَل خيْرٌ . . . لو عرفتَ الحقيقةَ لعذرْتَني ألفَ مرة . . .

— كن أنت في مكاني يا مرسى ، فكيف تتصرّفُ . . ؟؟

— أنا مثلُك يا عبدَ الدايم ، وفي رقبتي عائلة كبيرة تريد أن تعيش ، أنظنُّ أنَّك وحدَك الذي تأخذ الأزمَاتُ بخِناقِه . . ؟؟ علِمَ الله أنني أشدُّ منك حَيْرَةً وارتباكا . . .

وعلم الله أن مرسى كاذبٌ فيما يزعم ، فقد خرج من الحرب بأسلاب كثيرة ، فمخازِنُه ما زالت مملوءةً بالبضائع ، وحافظتهُ تكاد تنفجرُ مما بها من جنيهات ، وأصبح يمتلك بضعةَ أفدنةٍ من أجْوَدِ الأرض ، غير أن أبي صرف النظرَ عن مزاعِم مرسى ، وعن حركاتِه المسرحيةِ ، وجعل همَّه في الوصول إلى حل يَصْرِفهُ عن التمادى في القضية التي وضعها بين يدى القضاء ، لكن للأسفِ لم يصلْ معه إلى حل ، وفي النهاية قال أبي :

— والآن . . ماذا ترى أن أفعل ؟ ؟ قل كلمة واحدة . . أشِرْ عليّ . . .

— قد لا يُعجِبُك كلامى .

— كيف ؟ قلْ ما بدا لك ، إنى سأشكرُك من أعماقِ قلبى على نُصْحِك .

فتردَّد مرسى بُرْهة ، وتفرّس فى وجه أبى ثم قال :

— لن تستطيعَ سَدَّ ديونك إلا إذا سلكْتَ طريقاً واحداً . . .

— ما هو ؟

— أعندك استعدادٌ لأن تبيعَ لى نصفَ فدان من أرضك ؟

واختلجت كلُّ عضَلة فى جسَد أبى عند سماعِه لهذا الكلام ، وصوّر له شيطانُه أن ينقضَّ على مرسى ليفصلَ رأسه عن جسده ، وصاح :

— آه يا مرسى يا وقِحْ . . . ! ! ! أهذه هى مشورتُك ؟ ؟ لولا خوفى من الفضيحةِ لعلمتُك كيف تكونُ المشُورة . . . أشْكُ إلى المحكمة . . . اذهبْ إلى جهنم يا عديم الأصل . . . يا نَذْل . .

كان من السهل أن يتركها أبى تمرُّ ببَساطة إذا كان الأمر متعلقاً ببيع جاموسةٍ أو بقرةٍ أو البيتِ الإضافِىّ الذى نترك فيه بهائمنا وأدواتنا

الزراعية ، أما أن يبيع أبى الأرضَ بعد أن تحمَّل فى سبيل شرائها من عمى ما تحمل ، وتعرّض للضَّنْك والعَوَز ، فهذا ما لم يكن يخطرُ له حتى فى الأحلام .

وكيف يتركُ أرضَ أبيه وجدِّه لمرسى يدنسها بأقدامه ؟؟ لقد كان مثل هذا الكلام لأبى يحمل فى طَيَّاته كثيراً من الاستفزاز والتحدى لِمَشاعره . . . إن أَبى يستطيع أن يُضَحِّىَ بكلٍّ شىء إلا الأرض . . .

الفصل العاشر

وسافرتُ إلى طَنطا . .

لم أحاول هذه المرة أن أغامِرَ بالسكن مع أحد ، إذ يكفينى ما تلقنْتُه من دروس وعِبَرٍ فى الماضى ، وانتقلتْ معى جَدّتى كى تجهِّزَ لى طعامى ، وتغسِلَ لى ملابسى ، وتَسْهرَ على راحتى ، وتستغيثَ بكل نبى وولى عندما أشعُر بوعكة خفيفة ، وكان من حُسْنِ حظى أنها لا تعرِفُ فى طنطا الجزارَ ابنَ الجزار الذى يمكنُه إخراجَ الذئبة من زَوْرى . . . وأمكننى بجانبها أن أوفرِ لنفسى الهدوءَ والاستقرارَ اللازمَيْن ، فكان استيعابى للدُّروس أكثرَ ، وتردُّدى على مشاهدة الشاشة البيضاء أقلّ ، لكن جدتى كانت تريد أن تجعلَ منى آلةً لا تفْترُ عن العمل ، إذ كانت تحاسِبُنى على كلِّ صغيرة وكبيرة من شئونى ، فكان استجوابى شيئاً لا بدَّ منه عقبَ كل غيبة أو تأخر عن البيت ، ولا بدَّ من البحث عن وجوهِ الإنفاقِ التى أبعثرُ فيها نقودى كما تزعم ، حتى لعبتى المفضلة — كرة القدم — كانت تعتبرُها إهمالا وضياعاً للوقت لا يليقُ إلا بالأطفال — قلت لها ذاتَ مرة :

— يا جدتى : العقلُ السليمُ فى الجسمِ السليمِ . والرياضة البدنية تقوى الجسمَ ، وتنشّطُ العقل . . .

— رياضة . . . ؟ ؟ يا سليمانُ دعْ هذا الكلامَ الفارغ . . . إذا أكلتَ لقمة نظيفةً كقطعة من اللحم مثلا ، أو طبقِ قِشْدَةٍ ، فستجلبُ لك كلَّ صحة وعافية .

— صحيحٌ الأكلُ مهمٌّ ، لكنَّه ليس كلَّ شىء يا جدتى . . ؟؟

— اسمع كلامى واترك هذه الثَّرْثَرة . . . أتحاول أن تخدعَنى وتُقنِعَنى بأن الرَّقْص ، والتَّنْطِيط ، والجرْىَ تقوِّى الجسم ؟ ؟ . . . . يا ولدى إن شَعْرى قد شاب . . . إن هذه الأشياء تقصِفُ الأجلَ ، وتُضْحِك الناس عليك . .

فضحكت وقلت لها : أنت أفكارُك قديمة جداً يا جدتى . . أنت رجعِيّة .

ثم وثبت من فوقِ الأريكةِ إلى حيث فرشت حصير جدتى وأخذت فى مزاولة بعض التمرينات الرياضية . بينما أخذتْ هى تُمَصْمِصُ بشفتيها وتنعى حظ هذا الجيل المتمرد « المهووس » الذى يبعثر قواه وطاقتَه هدراً ، ويبدو أنها ضاقت ذَرعاً بى وبإصرارى على اللعب ، فقالت وهى تُزمع الخروج :

— ستظل هكذا نحيفاً (كالسِّنَّارة) ، ولن تبدُوَ عليك عَلاماتُ الصحة والنموِّ ، ما دمتَ راكباً رأسَك ولا تَكفُّ عن هذا العبث . .

وحاولتُ إرضاءها فقلت :

— سأكفُّ عن الرياضة يا جدتى . . . تعالَىْ إذاً ولا تخرُجى .

— لا ، سأتركُكَ كى تقرأ لك كلِمَةً تنفعُك ، عند الامتحان يكرمُ المرء أو يهانُ يا سليمانُ . . .

— لن أذاكرَ الليلة .

فقالت فى دَهْشة : ولمه ؟ اللهم اخْزِ شيطانَك . ماذا حدث ؟ .

فقلت فى جدِّيَّة واهتمام : اسمعى يا جدتى ، سأطلبُ منك طلباً وأرجو ألا تحرمينى من تحقيقه . .

— قل يا حبيبى ، روحى لك . . .

— ألا تأتين معى لمشاهدةِ رِواية جميلة ؟ ؟

— السينما ؟ ؟

— نعم ، إنها جميلةٌ جداً يا جدتى .

فقالت فى انبهار : ماذا جرى لعقلِك يا سليمانُ . . يا قليلَ الحياء . . أتريدُ أن تفضحَنا . . ؟ ؟ أتريدُ أن تذهبَ لترى البناتَ العارياتِ والطبلَ والغِناءَ والمزامير ؟ ؟

— وماذا فى ذلك ، سنرفه عن أنفسنا قليلا . . .

— إنها بداية الخيبة والخسران . . . حذار أن أسمع منك هذا الكلام مرة ثانية ، لا فى الهذر ولا فى الجد .

— أنا أتكلم بصدق يا جدتى .

— اسكت عمى فى عينك ، قليل الأدب ، فاجر .

— الله يسامحك يا جدتى . . أتشتمينى هكذا ؟ ؟ لن آكل وان أشرب ، ولن اذاكر ولن أكلمك منذ الآن . .

وبعد قليل من الوقت جاءت جدتى وجلست بالقرب منى وقالت :

— لقد أعددت لك عشاء جميلا الليلة يا سليمان . . . اللحم والأرز والبطاطس .

وكانت جدتى تعلم مدى حبى الزائد للبطاطس ، لكننى لم أجب حتى أوهمها بأنى ما زلت متأثراً من كلامها ، ولهذا ربتت على ظهرى ورأسى وهى تقول :

— يا رب لا تخيب له تعباً ، ولا تحرمه من أمله ، سليمان بن عبد الدايم ، واكتب له طول العمر ، والوظائف العالية يا رب . . .

* * *

عندما ذهبت إلى المدرسة فى اليوم التالى ، وجدت الطلبةَ منهمكين فى المناقشاتِ السياسية ، وفى ركن قصيٍّ من فناء المدرسة وقف بعض زملاء « التوجيهية » وقد احتدم الجدالُ بينهم ، وقال أحدهم :

— كذبوا علينا ، وقالوا ستنالون استقلالَكم بعد الحرب ، وها هى ذى الحال مثلما كانت عليه ، بل وأبأس من ذى قبل .

فرد آخر :

— يا أستاذ ، الإنجليز لم يُظْهِرُوا لنا طولَ تاريخهم الطويل معنا إلا الكذِبَ ونقضَ الوعود ، ليست ألاعيبُهم بالجديدة علينا ! !

وقال ثالث :

— كان يجب أن نفهمَ منذُ أن تولَّى « صدقى باشا » برغم أنف الجميع ، ودون استفتاء الشعب استفتاءً حقيقيا ، كان يجب أن نفهم أن هناك سياسةً مملاةً ، وأموراً مدبَّرةً فى خفية عن الشعب ، وفى غفلة منه . . .

— صدقت ، لقد أصبحْنا بين نارين ، ضياع القضية الوطنية فى الخارج ، والظلم السياسى والاجتماعى فى الداخل ، ولسنا ندرى ماذا نعمل . . . ! ! !

— العملُ هو ما أرادَه « صدقى » و « القصر » ، مفاوضات

ومحادثات ومباحثات ، ثم مفاوضات ومحادثات ومباحثات من جديد ، وهكذا تدورُ الدائرةُ على رءوسنا . . .

— الشيء الذى يَغيظنى هو أن « صدقى باشا » قد نصَّب نفسه وكيلا للشعب ، ومتحدِّثاً باسمه فى قضيَّتِه الكبرى ، ولستُ أدرى من أعطاه هذه الثقة . . .

— الملك طبعاً . . . لكن المهم عندنا هل نتركُ الأمور تجرى على هذا النَّمط المخزى ؟ ؟

— لن يكونَ ذلك إلا على أشلائنا . . . لا تحالُفَ مع الإنجليز بعدَ اليومِ ولا معاهدات ، وسيكون ارتباطُنا بهم مدعاةً لتأخرنا وضيعتنا . . فلن نتركَ صدقى يتمادى فى تصرفاته . . . ألا تقرءون كتُبَ التاريخ ؟ أنسيتم أن صدقى هذا هو الذى ألغى الدُّستور ، وأذاق الشعبَ الوَيْلَ والثُّبُور ، برغم أنه كان يُسَمِّى حِزبَه حزبَ الشعب ، وجريدَته جريدةَ الشعب ؟ ؟ . . . لا . . لن نسكت أبداً . .

— إن صدقى معه من القوة ما يجعلنا نسكُت برَغْم أنوفنا .

— إن الشعبَ كلَّه فى ثورة عارمة ضده .

— الملك والإنجليز يحمونه . . .

— ليس هذا جديداً علينا . . لن نجعلَهم يشعرون بالراحة

والاستقرار فى بلادنا ، حتى يجدوا أنه لا مفرَّ من التسليم . .

— وماذا ستعمل الهُتَافاتُ والُخطَبُ الرنانةُ والسيرُ فى شوارع طنطا ؟

— إنها أصواتُنا نُطلقِها فى وجوهِ الحاكمين ، ولا بد أن تطرُق أسماعَهم أرادوا أم لم يريدوا . .

وعلى هذا النمط دار الجِدالُ الصَّاخِب ، وكان كل منهم يحاولُ مقاطعةَ الآخر ، ولم يكن هذا إلا صورةً لما يحدث فى كل المجموعات المتناثرة فى الفناء ، وما إن صلصل الجرسُ ، حتى عــلا التصفيقُ والهتافُ ، وتسابقَ الطلبةُ إلى الشُّرفة التى يقف فيهـــــا عادةً زعماء الإضراب . .

وصاح صائح : « اليوم حرامٌ فيه العلم . .

« الجلاء بالدِّماء . .

« يسقُطُ الاستعمارُ وأذنابُه . . .

« تسقطُ سياسةُ المفاوضات . . »

وعــلا الضجيجُ والصَّخَب ، واختلطت الصيحاتُ بالتصفيق والضَّربِ على الـكتبِ والـكراساتِ ، وظهر أقوامٌ فوق أكتاف أقوام ، وزعيم يخطُب ويصرُخ من أعماقه ، حتى احتقن وجهُه وصار

مثلَ قطعةِ الـكَبِد ، والعرق يتصبَّبُ من جبينه ، وشعرُه منتفِشٌ متناثِرٌ ، يلوِّحُ بيده تارة ذاتَ اليمين وتارة أخرى ذاتَ الشِّمال ، والكلمات الملتهبة تنتزع الهتافَ من الحناجر ، وتقابل بالحماس المشتعل ...
ثم ظهر الناظر بابتسامتِه التقليدية وعودِه القصير ، فارتفعت حرارةُ المظاهرة وازداد الحماسُ والهُتاف الدَّاوى ، ثم أخذت الأصواتُ تخفت رويدا رويدا حتى تتركَ فرصةً للناظر كى يتكلَّم . . . قال الناظر :

— أبنائى الطلبة . . . لست أقلَّ منكم وطنيةً ، ولا أقلَّ بغضا للإنجليز ، ولـكن . . .

فصاح أحدُ الطلبة : « عاش الناظرُ ، الرجلُ الوطنى » .

فردد الطلبةُ الهتافَ ، بينما رفع الناظر يدَه بالتحية وقال : « متشكر » ، ثم استطرد : « لـكن إعلموا يا أبنائى أن واجبَكم الآن ، وفى هذا المـكان ، هو العلم . . العلم أولا » . .

فردَّ أحدُ الطلبة هاتفا : اليومَ حرامٌ فيه العلم .

فبان الضيقُ والغضبُ فى وجهِ الناظر ، لـكنه تمالَكَ نفسَه وقال : من الذى حرَّم العِلْم فى هذا اليوم ؟ إن هذا زعمٌ باطل ، بل إنه لمما يُثْلِجُ صدر المستعمِر أن نبقى فى ظلامِ الجهل ، ونتبعَ كلَّ ناعق ، ونقنعَ بالمظاهر والحركات الجوفاء التى لا مدلول لها غير جهلنا بقضيتنا

وظروفنا السياسية . . . واظِبُوا على العلم ، وانْهَلُوا منه ما استطعتم ، وبهذا تستطيعون أن تطرُدوا الدخيلَ من أرضكم وتنالوا حريتَكم ، أما التهريجُ والفوضى التى لا طائلَ تحتها فهى التمكينُ المستعمِر ، ومعاونتُه على بلوغ مراميه . . .

فهتف زعيمُ الطلبة فى إصرارٍ وحماس :

— بالدماءِ تُحرَّرُ الأوطانُ . . . أرواحُنا فداءُ مصر . .

فقال الناظر مُنْهياً حديثه : ليس هذا من شأنِكم أنتم ، بل هو من صميم عملِ أُولى الأمر ، فإذا ما جدَّ الجِدُّ ، ولزم الأمر التضحيات ، فسيندبونكم لخوْضِ المعارك ، وإنى لأُكرِّرُ لكم النصحَ ، وأرجو أن تستجيبوا لقوْلى ، وتعُودُوا إلى فصولِكم ، والسلام عليكم . .

كنت أرقب هذه المشاهدَ كلَّها عن كثَب دون أن أدفعَ بنفسى فى غمارِها ، وكانت نصائحُ عمى تبرُزُ إلى ذهنى بوضوح ، لأنها كانت تنطبق انطباقاً كاملا على ما قاله ناظر المدرسة ، لهذا فضَّلْتُ أن أذهبَ من فوْرِى إلى الفصل مُغالباً شعوراً فطريا يعتمل فى نفسى ، ويحرِّضُنى على المشاركة فى التهريج ، ويحبب لى التسكُّعَ فى الشوارع ، والتخففَ من مسئولية الدروس إلى حين ، لكنى كظَمْتُ هذا الشُّعور . وعادت الحرارة والاشتعالُ إلى جموع الطلبة من جديد ، وكانوا مُصرِّين على

الخروج إلى الشارع ، والتظاهرِ العلنى برغم كل شىء ، ودون التفكير فى أى عاقبة ، لأن الحماسَ يُعْمِى ، والثورة تدفع الإنسان دفعا إلى السير فى الطريق . ولفت نظرى أن « سعيدًا » من أوائل المتحمسين والثائرين ، بل كان يسْخَر من الطلبة الذين فضَّلوا الذهابَ إلى الفصول ، بل ويتهمهم بالخيانة والجبن والطفولة ، وبدا أن الطلبةَ قد انشطروا شَطْرَين : أولهُما يفضل مواصلةَ الدراسة ، وهم أقلية ، وثانيهما مصممٌ على التظاهر مهما كان الأمر ، لكن موقفَ الفريق الأولِ أضعفُ من موقف الفريق الثّانى الذى جُنَّ جنونُ أصحابِه ، وأخذوا يُحطِّمون أثاث المدرسة . ولمحت سعيد حافظ يهز « الدرابزين » الخشبىّ فى غيْظ وحِقْد ثم ينتقلُ إلى بعض القمطرات ليكسرَها بلا هَوادة ولا رِفق ، ثم ينتزعُ اللافتات ويُنزلُ اللوحات المثبتة فى المدرسة هنا وهناك ، فمشيتُ وراءه وحاولتُ الحديثَ معه ، قلت له :

— هل جُنِنْتَ يا سعيدُ ؟ ؟ ماذا يجدى هذا التحطيمُ والتكسير ؟ ! لا شىءَ غير الخسائر . . .

فالتفت إلىّ ورشقنى بنظراتٍ غاضبةٍ ، وضغَط بأسنانه قائلا :

— وما شأنُك أنت ؟ ؟ اذهب أنت إلى الدرس مع أمثالِك من الأطفال واتركْنا نفعلْ ما نشاء .

فعلمت أنه لا سبيلَ إلى التفاهُم معه وهو فى ثورته ، فابتعدتُ عنه قليلا لأرقُبَ ما يفعلُ من هذه التصرفات الرَّعْناء . . .

ولقد حاول زميلٌ آخرُ أن يُثْنِيَه عمَّا يقترف ، فرفع سعيدٌ قطعةً من الخشب وهوى بها على ظهرِه ، ولولا أن أفلت الزميلُ وجرى بعيدا عنه لتركت فيه جُرْحاً كبيرا . . .

وتطوَّرَ الموقفُ تطورا لم يكن فى الحُسْبان ، لقد بيَّتَ المتظاهرون أمراً ، إذ قرروا الاعتداء على « الجبناء » الذين تسلَّلوا إلى الفصول ليواصلوا الدراسة ، ولم أسلم من بعضِ اللكماتِ والصَّفعاتِ فى هذا اليوم ، وكان سعيدٌ فى مقدمة المتحمِّسين المعتدين — لاعليَّ أنا بالطبع — لكن على غيرى ممن لا تربِطُهم به صداقةٌ ولا معرِفةٌ ، وقرَّر الناظرُ تعطيلَ الدراسة فى هذا اليوم تفادياً للأخطار ، وفتحَ الأبوابَ على مصاريعِها ودعانا للخروج ، فتدفقَ سيْلُ الطلبة ، والهُتافاتُ تُدَوِّى بعنف ، ولم نكد نبرحُ المدرسة ونسيرُ فى الشارع مسافةً قصيرة حتى ظهرتْ عربات الشرطة ، ونزل منها الجنودُ بقبعاتهم المعدنيةِ ، وعِصيِّهم الغليظةِ .

حاولوا التفاهمَ مع زعماء المظاهرة لكن دون جدوى ، فقد ظن الطلبةُ أن هـذا لم يحدث إلا لأن الموقف فى يدهم هم لا بيدِ رجال

الشرطة . . . وفى لحظات كنا نجرى فى كل اتجاه ، والعصىُّ تنهال علينا ، واستطاعوا أن يقبضوا على بعضٍ منا ، ويحشرُوهم حشْرا فى عرباتهم لحجزهم فى الأقسام .

وكان سعيد حافظ ضِمْنَ من ساقوهم إلى « الحبس الاحتياطى » .

كنت أجرى لاهثَ الأنفاسِ ، متصببَ العرقِ نحوَ مسكنى . . .

وأخذتُ أستعرضُ ما فات فى هذا اليوم العصيب ، شيءٌ وَاحدٌ كان يحيِّرنى تماما ، وهو أمر « سعيد حافظ » . لقد كان ثائراً هدّاما يحطِّم بلا شفقةٍ ولا رحمةٍ ، وكان يزاولُ ما يعمل وهو مؤمنٌ به ، متحمسٌ له غايةَ التحمس ، بل كان يفنى فيه فَناءً تاما ، حتى لكأن القمطر واللافتات ، والنوافذ التى كان يكسرها ليست من خشب ، ولكنها جنودٌ إنجليز . . .

أكان سعيد وهو يَقترِفُ هذه الأعمالَ يثأر لجدِّه المطارَدِ أم كان ينتقم لأخته المفقودة بسيمة ؟ ؟

أعلى الحرب كان يصب لعنته أم على المآسى التى خاض أبوه غِمارَها ؟

لقد كان سعيد حافظ تعبيراً صارخا عن بيئة مظلومة ، وأوضاع مقلوبة ، واستعبادٍ طويل الأمد ، وكنت أظنه قطعةً من أبيه الذى

عاش طول حياته — وما زال — يجعـلُ السياسةَ مادةَ حديثهِ ، وسلوتَه فى دهره ، وكنت أعتقـد أنه امتدادٌ لجدِّه الضابط الثائرِ المطارَدِ ، ومعركة من معاركه الطويلة مع الإنجليز . .

والآن ما العمل ؟ ؟ ، إنى لا أستطيعُ أن أعملَ لسعيدٍ شيئاً . . .

كل ما أقدِرُ عليه أن أرسِلَ له شيئا من الطَّعام والمال يكفيه هذا اليوم ، ثم أقصِدُ من فورى إلى « القرشية » ، كى أرْوِىَ لوالده ما حدثَ بالتفصيل . . .

* * *

وصلتُ إلى بيتِ الشيخِ حافظٍ فى « القرشية » فنظر الرجلُ إلىَّ مَشْدُوهاً . . . لم يكن سعيدٌ معى ، لهذا طارت نفسُه شَعَاعا من الخوْف والهَلَع . . ! !

— أين سعيدٌ يا سليمانُ ؟ ؟ هل حدَثَ شىء . . ؟

قالها وهو يكاد يبكى من أثرِ الانفعالِ الشديد الذى ظهر جَلِيًّا على وجهه ، فقلت له :

— اطمئن . . . لم يحدثْ ما يستوجِبُ الانزعاج .

ومع هذا لم يدخلْ الاطمئنانُ إلى نفسه ، فأنساه ذلك أن يدعوَنى للدخول ، بل انتظرَ منى أن أُكمِلَ حديثى ، وأُفسِّرَ له الأمرَ حتى

يهدأ خاطرُه ، ومن يدرى ؟ لعل مأساةَ بسيمةَ أخذت تراودُه من جديد ، وتُوحِي إليه بالأفكارِ السوداء ، وتصوِّرُ له نكدَ الطالع الذى يلازمه . . . هل كان قلب الشيخ حافظ دليله كما يقولون ؟ ؟ أظنُّ ذلك . فقد بادرنى بالسؤال الآتى :

— لقد سمعتُ أن فى طنطا مظاهراتٍ اليوم فى المدارس والجامع الأحمدى ، فهل أصيبَ سعيدٌ بسوء ؟

شرحت للشيخ حافظ ما حدث ، وبدا عليه فى أولِ الأمرِ ظِلالٌ من الوُجوم ، لكنَّ الشىءَ الذى أدهشنى حقيقة ، أن الشيخ حافظ قد انشرح صدرُه بعد ذلك ، إذ لم يَخْفَ علىّ شُعورُ الفخر والفرح الذى غمرَه . . لقد صار سعيدٌ رجلا وطنياً فى نظرِ أبيه ، ومن الفخرِ أن يُقبَضَ عليه ، ويُودَعَ فى الحبس الاحتياطى من أجل قضية بلاده ، ومن أجل ثورتِه ضدَّ نظام الحكم الفاسد وأعوانِه من الإنجليز . . . لقد حرمتْ الأقدارُ الشيخ حافظاً الثأرَ من الإنجليز كما حرمت أباه ثِمارَ النصر من قبل ، فلعل ما فاته يمكن تحقيقُه على يد ابنه سعيد . . . وهتلر ، الذى كان الأملُ معقوداً عليه كى يؤدبَ هؤلاء الأوغادَ جرفَه التيارُ هو الآخر ، ولم يدعْ وراءه غيرَ الذكرى الباكية التى تتهافت على الأنقاض والخرائب المبثوثةِ فى شتّى أنحاء ألمانيا . . .

قال الشيخُ حافظٌ ونحن فى طريقنا فى اليوم نفسه إلى طنطا :

— الأمرُ بسيطٌ . . . فإن لى صلةً ببعض الموظفين بالمديرية وهم يعرفون المديرَ معرفةً وثيقة ، وأعتقد أن سعيداً سيطلقُ سراحُه فى أقربِ وقت .

— إن شاء الله . .

لقد حسبت أن الشيخ حافظاً سوف يُثْنِى على موقِفِى لأنى تجنبت هذه الأزمة ولم أشارك الطلبةَ فى مظاهراتهم وعُنفهم ، وخرجتُ من ذلك سالماً . لكن يظهر أن موقفى هذا لم يُلفِتْ نظرَ الشيخ حافظ ، ولم يحظَ حتى بمجرد كلمة تقريظ واحدة منه ، مما جعلنى أشكُّ فى سلامة تصرُّفى ، وأتذكر ذلك الوصفَ الممقوتَ الذى وصَمَنا الطلبةُ به حينما قالوا « يسقط الجبناء » ، وشَعَرْت بالخجل يُضَرِّجُ وجنَتَىَّ ، ويُسيلُ عرقى ، فأُحِسُّ بالتضاؤل المُشين . . . لكنَّ كلامَ الناظر المنطقى السليم ، ونصائحَ عمى المنقوشةَ على صفحة قلبى أمدتنى بالسلوى والعَزاء ، وأرجعتْ إلىَّ ثقتى فى سلامة تصرُّفاتى ، وصحةِ سلوكى .

وحينما استقرَّ بنا المقامُ فى مسكنى المتواضع قلت للشيخ حافظ :

— لقد حاولت جاهداً أن أصرِفَ سعيدا عن التحطيمِ والتكسيرِ ، لكنَّه غضب منى .

فانطلقت جَدَّتى تقول : كلكم شياطين سواء أنت أم هو .
ثم اتجهت إلى الشيخ حافظ وقالت :
— لازم أن تحسن تربية ابنك وتقسو عليه . . . إن هؤلاء الأولادَ الملاعينَ لا يعرفون النفعَ من الضرر ، فيورِّطون أهليهم فى المشاكل ، ويجلِبُون لهم المصائبَ .
فابتسم الشيخ حافظٌ مظهِراً شكرَه لإخلاصِها فى نصيحتِها وقال :
— لا شك أن اللهَ سيصلِحُ الأحوال . .

* * *

عدت إلى المدرسة فى اليوم الثانى ، وصورةُ الأمس لا تفارِقُ ذِهنى ، وآثارُ المعركة من أخشابٍ وأوراقٍ وطوبٍ ما زالت متناثرةً هنا وهناك . قلت لأحد أصدقائى :
— أتعتقد أن الدراسةَ ستنتظم اليوم ؟ ؟
فقال فى دهشة :
— دراسة ؟ ؟ كيف هذا وزملاؤنا مودَعون فى الأقسام ؟
— وماذا نعمل لهم ؟ ؟
— من بابِ الوَفاء أن نطالِبَ بعوْدَتِهم إلى المدرسةِ فوْراً ، فَهُم لم يسرِقوا ولم يقتُلوا حتى يعامَلوا هذه المعاملة . .

— ألم يمتنعوا عن الدروس ويحطِّموا الأدوات ، ويعتدوا على زملائهم بالضرب ؟ أوطنيةٌ وزَمالة هذه ، أم عبث وجنون ؟

— دعنا من هذه الأمور ، فهى كثيراً ما تحدُث ، ولا تخلو منها مُظاهرةٌ من المُظاهرات ، المهمُّ عندنا الآن هم أولئك الطلبةُ الأبرياء المحجوزون لَدَى الشرْطة . .

— لا تقل أبرياء لأنهم متهوِّرون ومجانين ، أيشوِّهون جَلال اليوم ويقلبون المظاهرةَ إلى شِجار بين أبناء المدرسة الواحدة ؟ ؟ هل هذه تصرفاتٌ عاقِلةٌ ؟ ؟

— لا تقسُ هكذا يا سليمانُ . . إنهم إخوانُك ، وما ثاروا إلا من أجلِ حريتهم المسلوبةِ ، فإذا كان هناك شيء من التطرُّفِ أو الخطأ ، فيجب أن يغتفرَ لهم . .

— يا صديقى ، لقد كانت دورُ الخيالة متكدسة بهم فى الأمس . .

— ومن أدراك ؟

— لأنى شاهدتُهم بعيْنَىْ رأسى يتسابقون إلى الحفلاتِ النهارية بعد تفريق المظاهرة ! !

وقطع حديثنا حدوثُ ضَجَّةٍ واضحة من مكان مظاهرة الأمس . .

— لا انتظامَ بدون الطلبة . . . أفْرِجُوا عن الأحرار . . .

الإضرابُ حتى تُجَابَ مطالبُنا . . . يسقط عهد الظلم والاستعباد . .
وردد مئاتُ الطلبة الهُتاف . . .

وفى نفس اليوم صدر قرارٌ بإغلاق المدرسة لمدةِ أُسبوع ، وكتبت قوائم بأسماء الطلبة بعد تقسيمهم إلى ثلاثِ فئات بِحَسَبِ خطورتهم ، وكان اسمُ سعيدٍ بالطبع فى قائمةِ الخَطِرين الذين لن يدخلوا المدرسة قبل أسبوعين على الأقل ، أما أنا فنظراً لسلوكى الذى لا غبارَ عليه فقد كنتُ فى مقدمة الداخلين . . .

لقد فات سعيدًا بعضُ الدروس ، وضاعت منه بعضُ الفُرَصِ العلمية ، ومع هذا فقد كان سعيد كبيرا فى عينى ، وأدعى إلى الاحترام والتقدير عن ذى قبل ، وكنت أسمعه وهو يرددُ نوادِرَه وهو محبوس فى القسم ، فأشعر بشىء من الغيرة لأن الله حرَمنى مثلَ هذه الفرصة . . وقلت لنفسى :

— ماذا ؟ ؟ هل أريد أن أكون مشاغبا هدّاما مثلَ سعيد ؟ ؟ هل أعرّض نفسى لهذا الأسلوبِ الفوْضَوِىِّ للتعبير عن وطنيتى ... ؟؟ ألم يكن الأجدرَ بى أن أقبِّلَ يدى ظهرا لبطن لموقفى الذى وفَّرَ علىَّ وعلى أسرتى بعضَ المتاعب ؟

ولا غرابةَ فى أن يراودَنى مثلُ هذه المشاعر المختلطةِ المتضاربةِ ،

فشعورُ الثورة والنقمةِ على الأوضاع الفاسدةِ قد ملأ النفوسَ ، بالإضافة إلى حيويتنا وشبابنا الباكر ، ورغبتنا فى حياة أفضل . . . لكننا لم نكن نعلم الطريقَ الصحيحَ ؛ لأن طولَ الاستعباد ، وألاعيبَ السياسة فى الداخل والخارج ، قد طمَست المعالِمَ ، و بلبلت الأفكارَ ، فاختلفنا وتباعدْنا ، و إن الذى حدث فى المدرسة وفى الشارع ما هو إلا ترجمةٌ حيَّةٌ لهذه الفترة من تاريخنا .

الفصل الحادي عشر

هل صحيحٌ أن الظـلامَ والأرقَ يجسِّمان الأوهامَ ، ويكبِّران الأحلامَ ، فيحيا الإنسانُ في جوٍّ من الأكاذيب والخُدَع ويتمادى فيه ، فإذا ما صدمته الحقيقةُ شَعر بالألم والخيبة وترك لدموعه العِنان ؟؟ وهل ما حدث في تلك الليلة كان تطبيقا لهذه النظرية ... ؟؟ لقد نِمْت كعادتي في كل ليلة ، ونمت لـكي أرى « بسيمةَ » على غيرِ ميعاد ... يا لها من رؤيا . . . كلُّ شيء في بسيمةَ كان قد تغيّر ، لقد طال عودُها واكتنز ، وانتفخ صدرُها ، وامتلأ عنقُها ، كانت تمشي بلا غاية أو هدف ، ذاهلةً عن كل ما حولها حتى أنا . . . حاولتُ أن أجاذِبَها الحديثَ فلم تلتفت إلىّ ، كنت أكلّمها من صميم قلبي وروحي ، معبّراً عن مَكْنونِ مَشاعري ، لـكنها لم تُعِرْني التفاتاً . قلت لنفسي : « ماذا جرى لها ؟؟ هل نَسِيَتْني لطول العهد أم أنهـا وهبت قلبَها لغيري ؟ ؟ » وشعرت لهذا السؤال الذي ترددت أصداؤه في كياني شعور الحسرة والهزيمة والإهانة لعواطفي ، فانطلقت وراءها من جديد . . كنت ألح . . وأطارد . . وأبكي . . . وكانت توشك أن تلتفت إلىّ

— أو لعلى خُيِّل إلىّ ذلك — لكنى صحَوْتُ من نومى . . . لم أتذكر
شيئاً آخر من الرؤيا غير هذا . . كان هناك أشخاصٌ وحوادثُ
وأماكنُ ، لكنها لم تَعْلَقْ فى ذهنى لأنها كانت مشوّهةً غامِضةً .

تلفت بعد أن صحوْتُ فرأيت الظلامَ مُطْبِقاً ، والسكونَ شاملا ،
وأخذت أستعيد ما رأيت فى نومى ، وأقارِنُه بماضىٍّ مع بسيمةَ ونحن
أطفالٌ أغرارٌ وُدَعَاء ، وغمرنى سيلٌ جارفٌ من الحنين والشّوْقِ
إليها . . « يا عجباً ، أهكذا تستثيرُنى ذِكْراها ، فتلعبَ بى أضغاثُ
الأحلام وتهاويلُ المنام ؟ ؟ لقد انتهت بسيمةُ ، وطُوِيَتْ صفحتُها
إلى الأبد ، ومضى عليها ما يقرُب من ثلاثِ سنَوات . ففيم النزوعُ
إليها والتمسكُ بهواها ؟ ؟ يا لعقلى المسكين ! ذلك الذى يتعلق بالمستحيل،
ويجرى وراء السّراب . . . ! ! ! إن شوارع طنطا وحاراتِها ملأى
بالعشَرات ممن هنّ أجملُ من بسيمةَ ، وآنقُ منها بمراحل ، أفلا يكون
فيهن عزاءٌ وسلْوَى حتى أنسى تلك الصورةَ التى اندثرت أو بهَتَت ؟ ؟ »

ولعِب الظلامُ دوْرَه مستعينا بمراهَقتى وحِرْمانى ، فوجدتنى
أعودُ لتذكرها ليلة سفرها إلى الاسكندرية ، حينما كانت تحدثنى
عن البحر الكبير ذى الضّفة الواحدة ، وعن النساء اللاتى يسبحن فيه
بمايوهات بلا خجل أو حياء ، وعن العمارات الكبيرة ، والعربات

الـكثيرة ، والحلوى والفواكه المعروضة فى كل مكان ، ثم سارع شيطانى وقدّم لى صورة أخرى . . . صورة لغارة عنيفة مدمِّرة من غارات الألمان على الإسكندرية ، والناسُ يجرون فى كل اتجاه خوفاً من الموت وطمَعاً فى الحياة ، و بسيمةُ الصغيرةُ هى الأخرى حائرةٌ مرتجفةٌ بلا أمٍّ تحنو عليها ، ولا أب يؤويها ، تتلمس الطريقَ إلى أحد المخابئ والدموع تتسابق من عينيها ، ثم تفاجئها القنابلُ المتهاويةُ من السماء قبل أن تصِلَ مأمنها ، ولعلها كانت تصرُخ وتستنجد ، ولعلها تمسّكت بأهدابِ أحدِ الهاربين ، وحاولت اللجوءَ إلى كنفه ، فدفعها بعيـداً عنه فى غِلْظة . . . ثم . . . ثم أصابتها شَظِيّةٌ فصلت رأسها عن جسدها ، وقذفت بكفّها الجميلةِ إلى مكان ، وقدمِها الصغيرةِ الدقيقةِ إلى مكان آخر . . . و . . . و . . . ووصل خيالى إلى هــذه الصورة البشِعة ، فجرت دموعى فوق خدى دون أن أشعُر ، وما إن أحسَسْت بذلك حتى مدَدْت يدى لأمسَحَها ، وصدرى يبعث ببعضَ التنهُّدات ، فسمعت جدتى تقول وهى واقفةٌ عند رأسى محملقةً فى وجهى :

— ألفُ سلامة تلبسُ بدنَك يا حبيبى ... أتبكى ؟ ؟ قم يا سليمانُ .. هل أنت مريض يا ولدى ؟ ؟

وارتعدت فرائصى من أثر المفاجأة ، وقمت من سريرى وأنا أقول لها :

— لا شيء . . . أريد أن أشربَ لأنى شديدُ العطش . . .

— ففيم بكاؤك إذاً ؟ ؟

— لا أعرف ، لعلها رؤيا مفزعة . .

— خيرٌ إن شاء الله يا حبيبى . . البكاء فرَجٌ قريب . . .

— كلٌّ خير إن شاء الله .

وبالطبع لم أنم بقيةَ ليلتى تلك ، ولم تغادرْ صورةُ بسيمةَ خيالى مطلقاً ، وأعنى بسيمةَ الجديدة بشبابِها الرَّيّان ، ووجهِها النَّضِر ، وعينيها الذاهلتين الحالمتين . وحاولت أن أصرِفَ عن نفسى صورة الغارات القاسية التى كانت تهز الإسكندرية هزاً ، وتتركُ عشراتِ الضحايا تحت الأنقاض وفى الشوارع . . .

وتضايقت من نفسى لاستطرادى فى عَرْض هذه الصورة المؤلمة فقلت :

— وبعد ؟ ؟ أليس لهذه الأفكارِ الحالكةِ من نهاية ؟ ؟

وأخيراً وثبتُ من سريرى ، وغادرت الحجرة قاصداً (دورة المياه) ، وجدتى ما زالت تطاردُنى بأسئلتها القلقة عما بى ، وعن سبب الأرَق الذى انتابنى ، لكنى أؤكد لها أنى بخير ، فتبادِرُ من باب الاحتياط إلىّ ، وتتمتم بتعاويذِها المعهودة ، وتستعيذُ بالله والأنبياء والأولياء وتستنجدُ بهم ضدَّ من « رأونى ولم يُصَلُّوا على الحبيب النبى » ،

وتمرُّ يدَها العجفاء على جسدى ، وتتأسف أعمقَ الأسف لأنها لم تحتَطْ لمثل هذه الظروف ، وتحتفِظْ بمقدار من « الشبة والفاسوخة » وهما عماد كل علاج عندها ، والعاملُ المضادُّ لهُواة الحسد ذوى العيون الصفراء كما كانت تسميهم دائما . .

وفى الصباح تناولت إفطارى على عَجَلٍ و بدون شهِيَّة ، ومضيت إلى المدرسة ، وكان جو اليوم وجو المدرسة أيضاً شاحبين كئيبين انعكاساً لما انتابنى من قلق ووحْشة فى ليلتى الماضية . . . لكنَّ هذه الكآبَةَ خفت حدتها قليلا عند رؤيتى لسعيد . . .

لقد ازداد حبى لسعيد حافظ ، كانت هناك أوْجُهُ شبه بينه و بين أخته بسيمةَ . . . ضحكته . . . نظراته . . . غضبه . . إخلاصه ، والإيحاء الغامض الذى يشيع منه إلىّ إذا ظهر أو تكلم أو ذكر فى أية مناسبة . . .

لذلك لم أكن أفارقهُ ونحن فى المدرسة إلا فى أثناء الدرس ، لأنه كان فى فصل غيرِ فصلى ، حتى الدقائق الخمس التى بين كل درسين كنت أنتهزها وأسارع للقائه ، وكنت أوصِّلهُ كلَّ يوم إلى سيارته ، وأشعر أن شيئاً ما ينقُصُنى إذا ما فارقته . . . وكنت أشعرُ بالوَحدة والضيق إذا ما تغيب يوما عن المدرسة لعُذْر طارىء كمرض

أو خِلافِه ، وأحسست أننا أكثرُ من صديقين تجمعهما رابطةٌ قديمةٌ في السكن ، وعَلاقةٌ حديثةٌ في المدرسة . وكان شعورُه ناحيتي يكادُ يشابهُني إن لم يزد ، وبرغم اختلافنا في الوسائل السياسية ، والاستجابة للمظاهرات ، وبرغم ما كان يحدث بيننا من تباين في وِجْهاتِ النظر ، فقد كانت تلك الأخوّة الوثيقة تجمعُنا في ظلها الوارفِ الواسع ، وتغتفرُ لنا التوافِهَ والصَّغائِرَ من الأمور التي لابدَّ أن تشوبَ الصداقات . .

* * *

قبل انتهاء العام الدراسي ، وصلتني رسالةٌ من عمي سُرِرْتُ لها كثيراً .

قال عمي فيها . . « . . . . . . إن الذي يعيش في القاهرة يا سليمانُ ، ويقضي أيامَه في العمَل الشاقِّ ، يُحِسُّ بأنه يفتقر إلى شيء ما ، فالحياة المادية البحتة — برغم أن هناك ما قد يملأُ فراغَها — تبعث في النفس الكثيرَ من الملل والسآمة . . حقا ستذهب إلى عملك . ثم تعودُ إلى مسكنك ، وأنت في مسيس الحاجة إلى الرّاحة ، فتروحُ في سُباتٍ عميق ، وقد تزورُ زميلا أو تجالسُ صديقا أو تقرأ كتابا ، كل هذا لن يسُدَّ كلَّ حاجاتك . . لهذا وجدتني في حاجة إلى من أجد عنده شيئا من الزاد الروحي والهدوء النفسي . . . إلى إنسان أشعر أنه أشدُّ

التَصاقا بي ، وأكثرُ اهتماما بأمري ومشاكلي ، وأعمقُ مشاركةً لآمالي وأفكاري . . .

« وفعلا فكّرت . . . وبحثت . . . ووجدت ما أريد . . . فتزوجت . .

« قد تعجب لأني أصبحت ربَّ أسرة وأنا أُشْرِفُ على الأربعين من عمري . . . لقد أدركت حقيقةَ فراغ أيامي بعد فوات الأوان ، لكن لا بأسَ من أن أسُدَّ هذا الفراغ برغم أني في سن الأربعين . . .

« وقد تظنُّ أني جلبت لنفسي أثقالا فوق أثقالي ، وأضفتُ إلى متاعبي شيئاً جديداً ، لأن موردَ رزقي لا يكادُ يفي بكل حاجاتي منفرداً فما بالك باثنين ؟؟ لكنَّ اللهَ لم يتركني وحدي في خِضَمِّ التبعات والآلام . . .

« إن زوجتي أرْمَلَة تكاد تقرُبُ مني سنا ، وهي تفهم أنها لم تأت للبذَخ واللهو ، لأن تجربتَها وسنها وأصالةَ منبَتِها تحرُسها من مثل هذه النزواتِ الطائشة . . . وعلى أي حال فهي لم تكلفني كثيراً . . . لقد جاءت إليَّ بأثاثها وملابسها ، ولم أكلفْ نفسي إلا بعضَ الهدايا البسيطة . . . وهي مع ذلك تستطيع أن تَخيطَ الملابس ، ولها بعض الزبائن الذين يتعاملون معها وإن كانوا قِلَّةً . . ولم أجدْ في ذلك

مايشينني أو يشينها ، فليس الكسبُ عن طريق العمل الشريف مما يبعث على الغَضَاضة .

« الآن لا أكاد أعودُ من عملى حتى أجِـدَ اللقمةَ الطيبةَ المتواضعةَ ، واليدَ الحانيةَ التى تمسحِ عن جبينى عرَقَ النهار ، أو مَشقةَ الليل ، وأجد جواربى مُرَتَّقة ، وملابسى نظيفة ، وفوق ذلك الراحة النفسية التى تغمُرنى بفيضها حين أجِـدُ من أبثه خواطرى ، وأقطعُ فترات الفراغ والراحة فى مسامرته وألجأُ إليه حين يدهَمُنى داهمٌ ، أو يُلِمُّ بى شىء مزعج . . .

« لقد كان زواجى هـذا تجربةً جميلةً انشرح لها صدرى ، وما أظننى إلا محظوظا سعيداً برغم حياةِ الكَفاف ، والذكرياتِ الماضيةِ التى قد تطوف بذاكرتى أحيانا ، لكنها لا تستطيع أن تستبدَّ بى طويلا لأن زوجتى تُسليني ، ولا تتركنى لمثل هذه الأوهام والذكريات وقتا طويلا . .

وبهـذه المناسبةِ يسرُّنى أن أخبرَك بأن « منيرة » — وهذا اسمها — تحبك حبا شديدا ، وتتوسَّلُ إلىّ ليلَ نهارَ أن أطلب منك إرسال إحدى صُوَرِكَ « الفوتوغرافية » ، وما أظنُّك إلا مجيبا طلبَها ، ولا عجبَ فى ذلك ، فأنت كثيراً ما تكون مادّةَ الحديث بيننا ،

بل وأكثر من ذلك أنها قد اقترحت اقتراحا جميلا ، فوافقتُ عليه من فَوْرى ، ولـكنى لن أخبرَك به الآن ، وموعدُنا بعد نجاحِك هذا العام إن شاء الله . . .

بقى شىء . . .

إن جدَتك لا شكَّ ستتأثر وقد تغضَب منى وتبكى لأنى لم أستشرْها فى مسألةِ زواجى أولا ، ولأنى لم أدْعُها إلى حفلة الزفاف ثانيا ، ولأنى تزوجت من « قاهِرِيّة » ثالثا . . . لـكن أرجو أن تطمئِنَها يا سليمانُ ، فإن اعتراضاتِها الثلاثةَ ستذوبُ حينما نأتى — أنا ومنيرة — لزيارتـكم فى العيد إن شاءَ الله .

وأخيراً أدعو لك بالتوفيق . . . ولا تنسَ جانبَ الله فى حياتِك ، وابتعدْ عن المظاهرات واهتمَّ بدروسك . . .

* * *

سارعتُ إلى جَدتى وقلت لها :

— معى لك خبرٌ جميل . . .

— خيْرٌ إن شاء الله يا سليمانُ ما هو ؟ ؟

— لا ، لن أقولَ لك إلا بعد دفع الثمن . .

— عيناى لك .

— لن يخدعَنى هذا الكلامُ ، هذه هى كفِّى ممدودة إليك فضعى فيها مبلَغا محترما ، و بهذا تسمعين النبأَ السعيد . .

— وحياتِك عندى ، وحُبِّى لك — وهو أعز قسم عندى — لأعطينَّك ما تريد . .

— اسمعى يا جدتى . . . لقد تزوَّج عمى من مصر .

— تزوج عمُّك ؟ ؟ لا تمزَحْ يا سليمانُ . .

— أُقسِمُ بالله أنَّ هذا حدَث . . .

— ومن مصر ؟ ؟

— أجل من مصرَ و إليك الخطاب .

— كيف تم ذلك دون أن نعلم ؟ ؟ هل تزوج بلا طبل وزمر وكلك وولائم . . ؟ ؟

— هذه مسائلُ غيرُ مُهِمّة . . . لقد تزوج وانتهى الأمرُ .

— لا بد أنه كان مأتما ولم يكن عُرسا . .

و بان التأثرُ على جَدَّتى وقالت :

— سامَحه الله . . . أيتزوجُ فريدٌ دون أن أعلم ؟

ثم غلبها البكاء وقالت :

— مسكينٌ يا ولدى . . . غريبٌ طولَ عمرك . . لم تجدْ

من يفرحُ ولا من يُزَغْـــرِدُ لك . . .

— ولِمَ لا تفرحين له هُنا يا جدتى ؟ ؟ ألا يكون الفرحُ إلا هناك في القاهرة ؟

— لـكن يا ولدى أنت صغيرٌ ولا تعرفُ الواجبَ والأصولَ التى دَرَج عليها كِرام الناس يا سليمان . .

— على كل حال حقُّكِ على بَدلا من عمى ، ولتـكونى مطمئنةً فسيحضر إلى البلد بعد شهرين — فى العيد — وسنعقد الصُّلْحَ بينكما ، واعملى له ما شئت من كحك وولائم .

— ألم يقل لك عن صِفاتِها وأحوالِها كلمةً واحدة ؟

— لقد قال الـكثير ، فاسمها « منيرة » وهى أرملة و . . .

فقاطعتنى جدتى وقالت فى استنكار وأسف :

— أرملة ؟ ؟ طبعا ، لأن عَذَارَى مصر لا يَحُمْنَ حوْلَ الفقير الـكادِح مِثْلِ عمك . .

— يا جدتى ليست العِبْرَةُ بالعذارى أو الأرامَلِ ، يكفى أن تـكون زوجةً طيبة مؤدبة ، مُحبّةً لزوجها مطيعةً لأوامره .

— اسكتْ يا سليمانُ . . . أنت لا تدرِكُ الفرقَ لأنك — كما قلت لك — طفلٌ صغـــير ، تأكل من أى طعام

يُقدّمُ لك . . . زواجُ العذارى مُتْعَةٌ وسعادةٌ . .

لكنّها استدركت قائلة : قم أنت لتذاكرَ دروسَك . . .

— وأين الثمنُ الذى وعدتنى به عند سماعك الخبر ؟ ؟

— غداً سأجهِّزُ لك أكلةً طيبة . .

— لا دخلَ لى بالأكلات . . . إننى أريدُ نقوداً . .

— لكى تذهبَ إلى الروايات الفارغةِ . . طبعا . .

— أبدا يا جدّتى . .

— إذاً فلماذا تطلبُ النقود ؟

— أليس هناك غيرُ الروايات فى نظرِك يستحقُّ الإنفاق ؟

ولم تجدْ محاولاتى أذنا مصغية لدى جدتى كى أنتزع منها قرشين أو ثلاثة ، بل تركتنى وأخذت تردِّد بعضَ الأغنيات الشعبية المتداوَلةِ فى الأفراح ، بصوت خفيض ترعشه الشيخوخة ، ويُرْوِيه الحبُّ والحنان الأُمِّىُّ الفيّاض ، لقد كانت تغنى لعمى « فريد » ، لطالما ألحت عليه أن يتزوجَ من زمن بعيد ، أيام أن كان يملك فدانا ونصف فدان من الأرض الطيبة ، لكنه كان يتكاسَل ويتهرّب منها ولا يعبأ بإلحاحها وتوسُّلاتِها المتكررة ، وكانت أغنياتُ جَدّتى برغم قدمها وبساطتها وأدائها المضحك تثير فى نفسى الكثيرَ من الحنين

والعواطف ، ربما لأن هذه الألحانَ خفقاتٌ من قلبها ، وذوبُ مشاعرها ، وترْنيمةُ روحها . . . قلت لها فى خُبْث :

— يا جدّتى إن صوتَك جميل . . . جميل جداً . .

— يا ولدى لا تسخَرْ من شَيْبتَى ، دعنى فى حالى . . .

— أتَشُكّين فى كلامى يا جدتى ؟ ؟ والله إن غناءك ليحرِّكُ نفسى . .

فسرحت جدتى ببصرها تنظر إلى لا شىء وهى تقول :

— رحِم اللهُ أيامَ زمان . . كان صوتى مثلَ الكَرَوان . . وكان العُرْسُ الذى لا أغنِّى فيه يُعَدُّ سيّىء الحظ ، ناقصَ الأفراح . .

الله يرحم جدَّك . . كم تعب وشَقِى وتشفَّع إلى أبى حتى يتزوجَنى . .

— هل كان جدى يحبُّك لهذه الدرجة ؟

— وأكثر من ذلك . . كان يقف الساعاتِ الطِّوالَ حتى يرانى حينما أخرج إلى التُّرعة لإحضار الماء ، أما اليوم الذى لا أخرج فيه ، فقد كان يحوم حولَ البيت ، ويظل يلِفُّ ويدور حتى يرانى فيرجع من حيث أتى ، وكأنه « أبو زيد الهلالى » . .

وظلت جدتى سابحةً فى خيالاتهـــا وذكرياتِ ماضيها ، ثم قالت حانقةً :

— يا سليمانُ ، الحبُّ فى هذه الأيام ما هو إلا ميوعةٌ وخلاعةٌ وقلةُ دين . ولا أنسى « العلقة » التى تلقيتها من أبى حينما نما إلى سمعه أننى فى أثناء عودتى من الترعة تـكلمّت مع خطيبى — أى جدّك الله يرحمه — أما اليوم فلا حياءَ ولا شرَفَ ، والناس تغيّروا يا ولدى . . ويظهر أن الدنيا فى آخر أيامها ، فالحديدُ أصبح يتكلم ، ويطير فى الجو ، ويمشى على قضبان ، والصُّوَرُ تجرى وتتحرَّكُ ، والنور يَسْرى فى الأسلاك . إن رأسى يدور ، وأكاد لا أعِى ما أمامى من هَوْلِ ما أرى من العجائب . . .

ولم أشأ أن أثيرَ ثائرةَ جدتى ، أو أقطعَ عليها أحلامَها ، أو أنتزعَها من الجو الجميل الذى تسبح فيه ، كانت تتكلمُ عن الماضى وأحداثِه وتقارِنُه بالحاضرِ وعجائبِه ، فلا أملكُ إلا الاحترامَ والتوقيرَ للجيل الماضى وهو يتكلم . . . لقد كانت جدتى فى نظرى — حينذاك — تحفةً فنيةً قديمةً ، وأثراً خالداً جميلا . وأيقظتنى جدتى من تفكيرى فى أمرها حين قالت :

— ما كان أجملَ أيامَ زمان ولياليها الفريدة !!! كانت العروس تُزَفُّ لدار خطيبها وهى فوق فَرَسٍ جميلٍ خفيفِ الحركة ، يتراقصُ فى مِشيته على أنغام الطُّبول والمزامير ، وسَط الزغاريدِ والموائد العامرة ،

أما الآن فإن العَرُوسَ تذهبُ إلى بيت عريسها فى خمسِ دقائقَ فى عربة تنطلق كالصاروخ أو مَشْياً على الأقدام كما حدَث لزوجة عمِّك ..

فقلت : هذا الزمان زمنُ السرعة يا جدتى .

فقالت فى ثورة :

— بل زمنُ الحروب والشَيْطَنَةِ والفسادِ والخيْبة التى حطَّت على الناس جميعاً . .

— سامَحَكِ اللهُ يا جدتى .

الفصل الثانى عشر

حينما عُدْتُ إلى منزلنا فى القرية فى آخر العام الدراسى بعد نجاحى، كان هناك فى انتظارى أشياء تؤلم النفسَ حقا ، لقد باع أبى كلّ ما عنده من أبقارٍ ونِعاج ، حتى حمارنا لم أجده فى مكانه ، أما أمى فلم تُبْقِ على الطيور ؛ لهذا كان البيتُ فى صَمْتِ القُبور . وأدواتُ الزِّراعة من : (طُنْبور) ونَوْرج وزحّافات قد اختفت بدوْرها . والأدهى من ذلك والأمَرُّ ، أن البيت الإِضافىّ — حيث كانت توجد البهائمُ والأدواتُ الزراعيةُ من قبل — هو الآخر لم يعُدْ فى حَوْزتنا . ولم يكن من الصّعب أن أُدْرِكَ مظاهرَ العَوَز والفقر تظهر بوجهها الكالح فى كل ركن من الأركان . . .

أما أبى فجلبابُه الأزرقُ هو هو لم يتغير اللهم إلا فى لونه الذى حال وأصبح باهتا ، و بعض الرُّقعات التى أضحتْ جليةً واضحة ، وليلى ومحمود وجدت أمى قد حجزتهما فى إحدى الحُجُرات وأغلقتْ عليهما البابَ ، ولما تحريتُ عن الحقيقة علمت أنهما يرقدان هناك مجرَّدَيْن من الثياب تماما حتى تنتهىَ أمى من تنظيف الثوب الوحيدِ لكلٍّ

منهما وغسله... والمضخة (الطلمبة) التى كانت أمام البيت قد اجتثوها من أصولها وباعوها . . . قالت لى أمى :

— ألفُ ألفُ مبروك يا سليمانُ . . . إننى أدعو اللهَ أن يكتبَ لك النجاحَ الدائمَ حتى تنالَ الشهادةَ الكبيرة . .

فقلت وأنا أشيرُ بيدى إلى بيتنا الخاوى ساخراً :

— الحمدُ لله على الفقر والنّجاح . .

— وماذا نعمل يا ولدى . . ؟ ؟ ثم اتجهتْ ببصرِها إلى السماء وقالت :

— اللهم انتقمْ منه . . . مرسى أبو عفر .

— ماذا حدث يا أمى ؟

— هو السببُ فى كلّ ما تراه . . . تسبَّب فى حرمانِنا من بهائمنا ومن سمنِها ولبنِها ، وأرغمَنَا على بيع ما عندنا ، لأنه لم يتنازلْ عن شكواه برغم رجائِنا وتوسُّلاتنا . . . لقد كان يظنُّ أن أباك سيبيعُ له قطعةَ الأرض مقابلَ الديون ، لأن هِوايةَ مرسى المفضلةَ فى هذه الأيام أصبحت شِراءَ الأراضى حتى يصيرَ من ذوى الضياع الواسعة .

— و بعد ذلك ؟

— لم نترك شيئا فى البيت إلا بعناه ، لكن لم نستطع أن نستوفى

سَدّ كلِّ ما علينا من الديون فلجأ أبوك إلى بعض الأخيار واقترض منهم مبلغا ضئيلا ثم قذف بالمبلغ فى وجه مرسى الملعون . .

وابتسمت أمى ابتسامةً مشرِقة وقالت :

— ولا تظن أن هــذا الدينَ الجديدَ شىءٌ يُهتم بأمره لأنه بسيط ، وسنَسدده قريبا .

وتنهدت من الأعماق وهى تقول :

— الحمدُ لله . . . الديون يا ولَدى عبءٌ ثقيل جدا . . . حاول ألا تقعَ تحت سلطانِها طولَ حياتك تعشْ سعيدا . .

وهنا تذكرت الدعاءَ المأثورَ عن محمد صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ » . .

وبرغم أن البيت قد أصبح مجردا من كل شىء إلا الجدران والسقوف وبعض الأحطاب فإنى كنت أشعرُ بأنه ممتلىء وغَنِيٌّ بالشىء الكثير . كانت الملابس ممزقةً ، لكننا كنا نشعر بالسَّتْر ، وكان الطعام قليلا وفقيراً ، لكن شَعَرْنا بالشِّبَع والرِّىّ . . . إن الخلاصَ من أعباء الديون شىءٌ يبعث على السعادةِ والمُتعة ، ويُشْعِرُ بالحرية التى لا يشوِّهُ جلالَها قيودٌ ، واسترحنا إلى الأبد من وجه مرسى واستذلالِه لنا ، واستنزافِه لمواردِنا بإضافةِ الأرباح المركبةِ بعضها إلى بعض ، والعجيب

أن أمي قد خفت عنها حِدَّةُ الآلام القلبية لدرجة كبيرة . . .

وانفرجت أساريرُ أبى ، وأصبح وجهُه ضَحُوكا باشاً يداعب ليلى ، ويبتسمُ لمحمود ، ويُقبِلُ على عمله فى الحقل أو المنزل بروح طيبة قوية ، وشَغَفٍ زائد . . . لقد خرج من المعركةِ ظافراً على ما يبدو ، لأنه لم يفقِدْ قيراطا واحدا من أرض أبيه التى تركها إرْثا حلالا ، وأمانةً فى عنقه لا يفرط فيها ، ولا ينزلُ عنها لأحد . . . وبالنسبة لى كانت أسعدَ إجازة فى حياتى ، وخاصة أن محصولَ القطن كان ينبيء عن خيرْ كثير ، فأملنا فيه أن يمسحَ ذيولَ الشقاء ، ويبدِّدَ هذا التقشفَ الإجبارىَّ الشديد . .

سامح الله عمِّى والمخدراتِ والحربَ والقطنَ الزهيد الثمن ومرسى أبو عفر ، فقد كانوا مِعْوَلا لهدمِ أُنْسِنا ورخائنا . . .

قلت لأبى :

— إن العيدَ أوشك أن يَحُلَّ ، وعمى وزوجته « منيرة » من المنتظر أن يصلا إلينا فى هذه المناسبة المباركة ، فلم لا تشترى لك جلبابا جديدا ؟ ؟

قال وهو يبتسم :

— صحيحٌ أنى مُهَلْهَلُ الثِّياب ، لكننى أمشى بينَ الناسِ منتصبَ

القامة مرفوعَ الهامة . . . أما الملابسُ الجديدة الخضراء أو الزرقاء فهى مما يستهوى الأغرارَ والسّذَج من الأطفال والرجال على السواء .

— لكن الملبسَ الحسن أمرٌ محبوب يا والدى .

— حسناً ، أتوافق على أن تَستدينَ من أجل شراء ثوب ؟ وهل هذا من الأمور الحسنة المحبوبةِ أيُّها الذكى النبيه . . ؟ ؟

فلم أجدْ ما أجيب به فسكت وأطرقتُ برأسى ، فبادرنى قائلا :

— أظن أن ملابسَ العام الماضى ما زالت متماسكةً ومناسبة ، وتستطيع أن تذهبَ بها إلى المدرسة فى العام الجديد إن شاء الله .

فتمتمت : أجل . . أجل إنها مناسبة جداً . .

فربت على ظهرى قائلا :

— بارك الله فيك . . إنى ليعجبُنى منك أنك تقدرُ ظروفى ، وتشعرُ بالتَّبِعة الكبيرة الملقاةِ على عاتقى . . . إنى لأفخر برجولتِك المبكرةِ أكثرَ من فخرى بنجاحك كل عام . .

فأحسست بالخجل يغمرُنى لهذا الإطراء من والدى الذى قلَّما كان يحدثنى بمثل هذه اللهجة ، فقال أبى مستطرداً :

— تأكدْ يا سليمانُ أن سرَّ نجاحِك هو رِضَاى عنك ودَعَواتى لك فى الليل والنهار .

فقلت فى تخابُث وتضاحُك :

— ومذاكراتى الطويلةُ المضنيةُ . . . أليس لها هى الأخرى نصيبٌ فى هذا ؟ ؟

— صحيحٌ إن المذاكرة من الأهمية بمكان ، لكنَّ توفيقَ الله لا يقل عنها أهميةً أيُّها اللئيم . .

— وجدتى التى كانت تجلس لى بالمرصاد ، تهدد وتتوعد وتنذر ، وتجرعنى المذاكرة تجريعاً ، أليس لها هى الأخرى نصيب ؟ ؟

وفى هذه اللحظة ظهرت جَدَّتى بانحناءتها المُزْمِنة ، وخَطَواتِها البطيئة المُتَعَثِّرة وقالت :

— ومقامِ سيدى عيسى العراقى يا عبدَ الدايم ، لولا وجودى معه لما خرج من هذا العام بما يُساوى بصلة . . .

— طبعا طبعا يا أمى . . . أنتِ الخيرُ والبركة . أنتِ كلُّ شىء . . أطالَ الله عمركِ .

وقبل أن أنتقِل من مكانى أصرَّ أبى على أن أسطِّر خطاباً للشيخ حافظ شيحا ، وأبعث إليه فيه بتحياته وتسلياته وتهنئاتِه بنجاح سعيد .

* * *

لم يأت عمى فى العيد حسبما توقعنا . . .

والحقيقة أننا فرِحنا جداً لأن هذه الزيارةَ لم تتم . فقد كنا على غير استعداد للقاء زوجة عمى التى تزورُنا لأول مرة ، إذ ليس مما يشرِّفُ أن تأتِيَ إلى بيتنا فتراه مجرداً من أل والإضافة ، ولعل عمى أدرك هذا أو علمه بطريقة ما ، وخاصّةً أننا لم نرسلْ إليه بخطاب واحد ندعوه إلى مثل هذه الزيارة ، أو أن فى نيتنا إرجاءها إلى وقت آخر حتى تتحسنَ الأحوال ، فنستطيع أن نستقبلَها بما هى أهلٌ له من الكرم والضيافة التى هى من صميم تقاليدِنا وواجباتنا . . . فلا شكَّ أن عمى حدَّثها عن خيراتِ الريف ونعمِه ، وحدثها عن أرض أخيه الخِصْبة التى تجودُ بكلِّ شهِىٍّ طيب . . ؟ ؟

فكيف يكون موقفه حينما تأتى فلا تجد شيئا مما أطال فيه وأطنب . . ؟

وبعد العيد بأيام ، وصل خطاب من عمى يعتذرُ فيه بلَبَاقة وحِذْق عن عدم تمكنِه من الزيارة ويرجئها لوقت آخر ، وفى هذا الخطاب أخبرنى بالاقتراح الذى أشار إليه فى خطابه السابق والذى اقترحتْه زوجته ، فقال : « . . . وإنه ليسرنى يا سليمانُ أن تحوِّلَ أوراقك إلى إحدى مدارس القاهرة القريبةِ من السيدةِ زينب ، وتنتقِلَ إلينا فورَ انتهاء الإجازة مباشرة . . وأعتقد أن والدَك لن يضِنَّ علينا بتحقيق هذه

الرغبة البسيطة ، ولا شك أنك ستكون مصدرَ سعادة لنا ، وفى الوقت نفسه ستجد من يسهرُ عليك فى غُربتِك وخصوصاً أن « منيرة » أمٌّ من الطِّراز الأول ، برغم أن الأقدارَ قد حرمتْها إنجابَ الأطفال .

وَستجد فى القاهرة عالَماً جديداً عليك . . . قد تزور الأهرام . . ودار الآثار ، والمبانيَ القديمة ، وسيكون قربُك منى مدعاةً لطمأنينتى عليك ، لعلى أستطيع أن أجنبَك كثيراً من العثَرات التى أوْدَت بمستقبلى فى سالفِ الأيام ، أم أنك لستَ معى فى هذا القول وتؤمن بالرأى القائل : إن كلَّ جيل يتعلّم و يأخذُ العبرة من خلال تجاربه الخاصة ؟ وسواء أكنت مع هذا الرأى أم ذاك ، فإنى أعتقد أن فى تحويلِك إلى القاهرة فائدةً . . . بل فوائدَ كثيرة . . .

« وسيكون فى انتظارك مفاجأةٌ جميلة أعدتْها لك زوجتى . . . ولماذا نجعلها مفاجأة ؟ ؟ سأخبرك بها الآن وليكن بعد الحوادث ما يكون (! ! !) لقد اشترت لك منيرةُ قطعةً من الصوف لا بأسَ بها كهدية فى يوم مقدَمِك العزيز ، إذ لا بد أن تدخل المدرسة بثياب جديدة أسْوةً بباقى الطلبة كما تزعم هى . . . وإنى لأشعرُ بالسرورِ العميقِ نيابةً عنك نحو عملها النبيل ، لأنى أعلم أن منيرةَ كانت تجمع المليم على المليم ، وتدَّخِر جاهدةً فى كل مناسبة حتى وفَّرتْ لك ثمنَ هذه

الحلّة . . . كنت إذا عزمت على شراء رِطْلَين من اللحم قالت :

— ولم كل هذا ؟؟ يكفي رِطْلٌ ونصف رطل ونوفر الباقي من أجل حُلةِ سليمانَ ، ثم تنشَبُ معركة كلامية لكنها معركة لطيفةٌ ومحببةٌ إلى قلبي ، وتنتهي بفوزِها عليَّ أخيراً ، لا لأني ضعيفٌ متسامِحٌ ، بل لأني أفضِّلُ تلك الهزيمة . .

« إني لأحسدُك على هذا الحب من جانبها يا سليمان ، فأنت محظوظ لأن منيرةَ طيبةُ القلب مخلصةٌ لحد كبير ، فمن حَظِيَ برضاها كان موفَّقا سعيدا . . »

. . . .

« عمك »

كانت هناك نقطةٌ هامّة لم يحاولْ عمى « فريد » أن يكشِف عنها في خطابه . . . لا شك أنه كان يحبني ويريدُ أن أكونَ بجانبه . لكنه كان في الوقت نفسه يودُّ أن يكفِّر عن بعض ما سببه لأبي من متاعب ، فأنا أعلم أن أجرَه اليوميّ لا يستطيع أن يَسُدَّ كلَّ حاجاته ، فما بالك بي إذا انضممتُ إلى أسرته المتواضعةِ كفرد ثالث . . . ؟؟

صحيحٌ أني سأحملُ معي بعضَ المال لمصروفاتي الخاصة ، لكنها

لن تُقاسَ بما أنا فى حاجة إليه . . . ويظهر أن عمى استعذبَ التضحياتِ والكفاحَ ، وأصبح التمادى فى التقشف — ما دام من أجلى — نوعا من أنواع التقرب والعبادة . .

قال أبى يوم وصول هذا الخطاب :

— يا ولدى هذا لا يمكِنُ . . ففى ذلك إرهاقٌ لعمِّك لا مبررَ له . .

— لكنى مشتاقٌ فعلا لإتمام دراساتى فى القاهرة . .

— ليكن ذلك ، لكن ينبغِى ألاّ يكون هذا على حساب سعادة عمك . .

— إنك تهوِّلُ فى الموضوع كثيرا . . . إنى سأذهبُ ومعى كلُّ ما أحتاج إليه . .

— إنى أعلم أن عمَّك يُجِلُّك كثيرا ، وسيحاولُ أن يدخِلَ على قلبك السعادةَ ، ويهيئ لك وسائلَ الترفِ والراحةِ ، مما سيؤثر فى مجرى حياته . .

— لا ، لن أقبلَ مثلَ هذه التضحيات التى لا ضرورةَ لها . . .

— هذا مجرد كلامٍ تنطِقُ به فَحَسْب يا سليمانُ . . .

— إنى أعِدُك بتنفيذه . .

— لا أصدِّق . .

— بل أقسم لك على ذلك .

ولم يكن أبى فى حاجة إلى كثير من الإلحاح كى يقبلَ هذا المشروعَ لأنه لن يكلفَه كثيرا ، ولم تـكن هناك من عقبة سوى الإشفاق على عمى « فريد » من التكاليف والتَّبِعات . .

ونمت ليلتى أحلم بالأهرام الثلاثة التى تَشْمَخُ فى تحدٍّ سافِر نحو الأفق ، وأحـلم برؤية الأحياء القديمة والحديثة وأضرحةِ الأولياء والمآذن والقِباب ، والمسارح العديدة ، ودورِ الخيالة المنبثة فى كل مكان ، وقصور الملك وعرباته الحمراء ، والأمراء والوزراء والباشوات ، ورجال الفـكر والفن ، وكل ما خطر على قلب بشر مثلى . . .

هل صحيحٌ أن مصرَ أمُّ الدنيا ، وأن هذا الاسم على مسمى ؟

هذا ما سنراه فى الغد القريب . . .

لـكنَّ شيئا واحدا كان يشوبُ لذَّتى الطارئة ، وهو أنى سأفارق سعيد حافظ . . .

الفصل الثالث عشر

وفى عام ١٩٤٨ نُفِّذَتِ المُؤامرة العالميةُ للقضاء على فِلِسْطِين ، فكان هذا بِدايةَ الانطلاقِ للشعوب العربيــة التى ضاقت ذَرْعا بألاعيب الاستعمار . . .

ثورات فى العراق . . ومصر . . والأردن وسوريا . . والحجاز . . فى كل بلد يؤمن بالحريّة والعدالة . . .

وكانت مدرسة « الخديوى إسماعيل الثانوية » — وهى المدرسة التى حوَّلْتُ إليها أوراقى شعلةً من المظاهرات والاحتجاجات الصاخبة ، لأننا كنا نريد دخولَ الجيوش العربية أرضَ فلسطين لتطهيرها من اليهود . . .

ولم نكن نعرف الكثيرَ عن جيش البلاد ، كل ما أدخلوه فى رُوعنا أن الجيشَ قد نما عدداً وعُدَّةً ، وأن صفقاتِ الأسلحةِ تتدفَّقُ عليه من كل مكان ، وأنه فى موقف يستطيع معه أن يمحوَ إسرائيل الوليدةَ من الوجود . .

فكان من العارِ ألا يدخلَ جيشُنا أرضَ فِلِسْطين ما دمنا نملك

السلاح والـكِفَايات ، ولا تنقصنا الروحُ المعنوية ، إذ أننا ندافعُ عن حق العرب ، ونستجيبُ لنداء الدّين الذى يحرِّضنا على الجهاد فى سبيل الله . . .

أيام لا تنسى تلك التى تدفقت فيها أفواجُ المتطوِّعين . وكتائبُ الجيش المصرى ، والشعوبُ العربية تتابعُ هذه الخطوات بخفقات قلوبها ، وحارِّ دعوانها . إن قضيةَ فِلِسْطين كانت — وما زالت — قضيةَ أمة ، وليست قضيةَ شعبٍ صغير . وهذا ما فهمه الناس ، وهذا ما أبعد عن قلوبنا كثيرا من الشكوكِ والأوهامِ التى كانت تلازمُ كلَّ عمل رسمى آنذاك ، فلم يستطعْ أحدٌ أن يحذر من اللصوص والمستغلين والخونة من أعوان الاستعمار ، لأن الأمرَ ليس مجىء وزارة وضياع أخرى ، بل القضاء على مؤامرة واسعة النطاق توشك أن تضعَ لنا سَرَطانا خبيثا فى جسد أمتنا العربية . . .

عدتُ إلى عمى ذات مساء ، فقلتُ له بعد أن فَرَغَ من صلاته :

— كان اليومُ رائعا حقّا ، وسيُسَجَّل بأحرفٍ من نور فى تاريخنا القومى . .

وأنهى عمى أدعيةَ الصلاة والتفت إلىَّ قائلا :

— احْكِ لنا ما حدثَ يا سيد سليمان .

— لست أدرى يا عمى ماذا أحكى . . . أأحدثك عن الهُتافات المدوية أم الخطبِ النارية ، أم أصفُ لك ذلك الإصرارَ العنيدَ الذى ارتسم فى وجوه الجميع شيباً وشبّاناً وشعباً وقادة ؟ ؟

فضحك عمى فى وقار وقال :

— يظهر أن الحماسَ جرفَك أنتَ الآخر ، فلم تَعُدْ سليمانَ الهادىء الذى يقابل تلك المظاهرَ المألوفةَ المتكررةَ برزانته المعهودة . . .

— يا عمى ليست كل المظاهر بالتى يقف الإنسان إزاءها هادئاً . . . إنها مسألة حياة أو موت ، وليس هناك توسُّط فى الأمر .

— لِتَقْصُصْ علينا ما حدث .

— كان مؤتمر « الكونتننتال » مؤتمراً شعبيا ضخما ، جمع شتى الهيئات المعنية بأمور السياسة العربية ، والحركات التحريرية ، وتعاهدوا على تخليص فلسطين مهما كان الثمن . .

وانتظرت من عمى أن يعلّقَ على ما سمع لكنه هز رأسه وسكت ، فاستطردت :

— وكانت ألوفُ الطلبة قد احتشدت وأتت من شتّى أنحاء البلاد وكلهم يطلبُ التّطوُّعَ ، ويريد السلاحَ والتمرينَ على استعماله .

فارتسم الجدُّ على وجه عمى وقال :

— خِدَاعٌ وَدَجَلٌ رخيص .

فقلت فى دهشة : وكيف ؟ ؟

قال : إنهم يستغلون عواطفَ الجماهير ، ويسخرونهم أبشعَ تسخير . . .

— إن كلامَك يحيرنى يا عمى . . أتفضل أن يسكتوا ويدعوا قرارَ التقسيمِ يمرُّ بسلام ويخضعوا للأمر الواقعِ ؟

— إن المؤامرة تُدبَّرُ ضدَّ فِلِسْطِينَ من زمن بعيد تحت سمع زعماء العرب وبصرهم ، كانت فلسطين تموت عُضْواً عُضْواً بحَسَبِ خُطة خبيثة مرسومة ، فقد أرادوا القضاء عليها بالتسمُّم البطىء . . . فماذا فعل زعماء العرب حينذاك ؟ ؟ تصريحاتٌ . . . تهديداتٌ وعدمُ اكتراث باليهود حتى بعد وعْدِ بِلْفُورَ المشهور . .

— لنفرضْ معك أن هذه أخطاء حدثت فعلا ، أفنتدارَكُها الآن أم نسكت على فلسطين فتضيع ؟ ؟

— أنسيتَ يا سليمانُ أن الجيشَ الأُرْدُنِىَّ قائدُه إنجليزى ، وأن القــواتِ البريطانيةَ تعسكر هى الأخرى فى أماكن كثيرة (استراتيجية ؟ ؟) وهلْ نسيت القواعدَ الإنجليزية فى العِرَاق والقَنال ؟ ؟ وهذه القوات الإنجليزيةُ المسيطرةُ هى بنفسها التى سلَّمت مواقعَها

وأسلحتها فى فلسطين لليهود ، وهى بنفسها التى ثبّتت قدم إسرائيل . . .
وهى أيضا المحركةُ لحكوماتنا العربية « المتحمسة » فماذا بقى بعد ذلك ؟؟

— لكن ، سنرغمهم على التراجع بقوة مقاومتنا . .

— الإنجليز هم الذين أرادوا التقسيمَ ، وهم يعرفون مدى استعداداتك ، ويفهمون نوايا زعمائك الحاكمين لكثرة التعامل معهم . . فهل تظن أنهم سيتركوننا نفعل كما نشاء ؟ ؟

فسكت عنى ليرى ما أقولُ ، لكنى لُذْتُ بالصمت ، فقال :

— هذا ما لا أظنه مطلقاً .

— شىء محيِّرٌ حقًّا . .

— بقيت نقطةٌ هامّةٌ وما أظنها قد فاتتك . .

— ماذا ؟ ؟

— من أين يجىء السلاحُ لجيشنا وللجيوش العربيةِ يا سليمانُ ؟ ؟

— من إنجلترا طبعاً .

— وهل تعتقدُ أن إنجلترا ستعطينا ما نريد من السلاح ؟ ؟

— ولم لا ما دُمْنا سنعطيها ثمنَه ؟ ؟

— إنجلترا ليست مجنونةً لدرجة أنها تُسَلِّحُك تسليحاً كاملا ، ففى ذلك كارثةٌ عليها وعلى وضعها هنا ، فلا بد أنك ستوجه هذا

السلاحَ يوماً إلى صدرِها إذا ما رفضَتْ الجلاءَ عن بلادنا ، ولأنك ستضرب اليهود بهذا السلاح ، وهم أصدقاء الإنجليز وعملاؤهم .

— فلنشترِ السلاحَ من أيِّ دولة أخرى .

— يوم أن يحدُثَ هذا فثِقْ أنك قد أصبحتَ حرا فعلا . .

— عجباً ، ما الذى يمنعُ الحكومةَ من ذلك ؟

— لأن فى ذلك مقامرةً ببقائها فى الحكم ، وخطراً على سيِّدِ البلاد مولانا صاحب الجلالة يا سلمان .

وأخذت أفكر فيما يقوله عمى فبدا لى منطقيا معقولا ، وسمعته يقول :

— فعلا سيتحرَّكُ الجيشُ المِصرِىُّ نحو فلسطين . . . هذا ما شاهدته فى المعسكرات التى أقوم بعملى فيها ، لكنَّ النتيجةَ ماذا ستكون ؟ ؟ سيذهبون بسلاح لا يصلُح لأن يحملَه خُفَرَاءُ القرى ، فلا استعداداتٍ تُذْكَرُ ، ولا قوَّةَ يعتمد عليها ، إن الذهابَ إلى فلسطين فى نظرى مغامرةٌ انتحاريةٌ ليس إلا . .

وتذكرت حينذاك أفواجَ الشباب وهم يشتعلون ثورة وحماسة ، وتذكرت سعيد حافظ زعيم مدرسة طنطا الثانوية الجديدة وقد أتى من طنطا على رأس مدرسته فى المؤتمر : « ما مصير هذه الطاقة القوية التى

فى صدور الشباب حين تتكشفُ لهم هذه الحقائق المُخزية التى يَرْوِيها عمى ؟ ؟ وهل هم يؤمنون حقاً بأن الزعماء والملكَ والاستعمارَ جبهة واحدة ضدّ إرادة الشعب ؟ ؟

ثم صحت قائلا :

— مادام الأمرُ كذلك يا عمى فيجبُ أن نثورَ . . . نثور بكل قوة من أجل فلسطين ، ومن أجل مصرَ والعراق و . . . و . . . فكلُّنا ضحايا ، ونثورُ ضدّ الإنجليز وضدَّ من ينتمون إليهم بيننا .

— هذه مسألة كبيرة . . . وطريقٌ طويل . . . طريقٌ وَعْرٌ ، وهيهات أن يتمّ بين يوم وليلة . .

— إذاً فستضيع فلسطينُ يا عمى ، وسيحملُ جيلُنا التبعةَ . . أو قل الخِزْىَ والعارَ أمام الأجيال المقبلة .

— من يدرى ؟ ؟ لعلّ الأقدارَ ترسُم طريقاً آخر ، وعلى كل حال لا بدّ من هذا الحماسِ الشعبى ، ولا بدَّ من دخول الجيشِ أرضَ فلسطين ، ولا بدّ من هذه الحركة وهذا الوعيِ برغم ما فيه من مخاطر ، فهذه كلُّها تجاربُ ومعاركُ لا بد من خَوْضها ، وبغيرها لن يصفوَ معدِنُنا من الكَدَر ، وتنقى صفوفُنا من المستغلين .

* * *

ودخل الجيشُ فِلسْطين ، وتواترت الأنباء ، وصدرت البلاغات الحربية ، وامتلأت أعمدةُ الصحف والمجلات بقصص البطولة وآيات الفداء ، وأخذتُ أشكُّ فى كلام عمى وتحليلِهِ للموقف . . . فكيف أعلل هذه الانتصارات الداوية ؟ ؟ ولم لا يقف الإنجليز فى طريقنا أو يطعنوننا من الخلف ؟ ؟

شيء واحد كان يؤلمنى ويغيظنى فى الوقت نفسه . .

لم تكن حالة القاهرة ومظاهرُها تدل على أننا نخوض معركة جبارة ، اللهم إلا أولئك المتجمهرين من أفراد الشعب الكادح وهم يتجمعون حول أجهزة المذياع وقت النشرات الإخبارية ، فيستمعون إلى البلاغات الموجزة ، وغالبا تكون هذه البلاغاتُ مشرِّفةً طبقاً لما ترى القيادة ، فيمضى المستمعون وهم شاكرون لله ، حامدون هذا النصر . .

كانت المعركة تدورُ فى فلسطين ، لكنَّ القاهرةَ كانت هادئةً وادعةً جميلة . . مسارحُها مضاءةٌ ودورُ اللهو والسَّمَرِ مكتظةٌ بالرُّوَّاد ، والحفلات الخيرية وسيدات المجتمع الراقى ، ومآدب الأمراء ، والوزراء ، أخبارها لا تخلو منها جريدة أو مجلة . .

ومع ذلك فقد كانت أخبارُ الحرب تُقِرُّ عينى ، وتُرضِى الكثيرَ

من طُموحى وكبريائى . . قلت لعمى وفى صوتى رَنَّة الفرح والنصر :

— ألا ترى هذا النصرَ المتلاحق ؟ ؟ ماذا تقول فيه ؟ ؟ ها هم أولا الإنجليز لا يتكلمون ولا يحركون ساكناً ، بل ينظرون إلى كفاحِنا المجيدِ نظرةَ المتوجِّس الخائف ، ولا يسعهم إلا أن يحنوا رءوسهم لانتصاراتنا . .

— وهل أنا أكره النصرَ لجيوشنا يا سليمان ؟ ؟ سامحك الله . .

— كلا يا عمى . . ما قصدتُ ذلك ، وإنما أردتُ أن أقولَ لك إن الاستعمارَ كثيراً ما يطأطىء رأسه أمام إرادة الشعوب . . فماذا يعمل الإنجليز الآن ؟ ؟ إن الشعبَ ثائرٌ متمرِّدٌ ، والجيشَ فى تقدُّم ، ومتطوعى الدول العربية يعملون جنباً لجنب مع الجيوش . .

— أنت لا تعلم شيئاً يا سليمانُ عن القِطارات المحملةِ بالمئات من القتلى والجرْحى التي تفِدُ إلى القاهرة تحتَ سِتار الظلام ، وليستْ المسألةُ أمراً هيّنا سهلا ، ولقمةً سائغةً نبتلِعُها ، ولكنَّها حرب . . . حرب . . .ألست معى ؟ ؟

— بلى ، لكن لابد للحرب من ضحايا كثيرين ، وهذا شيء لا يدعو إلى القلق واليأس ، فلن تتحققَ أطماعُنا ونحن ننعَم بالنوم العميق . .

— على كل حال ، القضية أمامَ هيئة الأمم ، وأحاديثُ الهدنة يتردد صداها فى أنحاء العالم ، ومن هذه الثُّغرة — أعنى الهدنة — ستتسرب ألاعيبُ الاستعمار ، و يقوم الإنجليز بدورهم على أكمل وجه ..

— كيف ذلك ؟ ؟

— ستكون الهدنة — إن حدثت — فترةً لتسليح إسرائيل ولَمِّ شَعَثِها ، وقد تكون فرصةً أيضا لبذرِ بذورِ الخلاف بين بعض الدول العربية ، وهذا كثيراً ما يحدُثُ منذ أن دهمنا الاستعمار .

— خُذْهَا صريحةً يا عمى .. إن كلامَك يؤسفنى ويملأ نفسى بالنِّقمة والحسْرة الأليمة . . .

— خير لك أن تعرفَ الحقائق وتفهمَ الموقف كما هو ، من أن تخدعَك الأباطيلُ وتسيرَ مُغمَّضَ العينين حتى تصدمك الحقيقةُ المرة فتنهارَ على أثرها .

— سنرفض الهدنة حتى لا يتحققَ ما تخافُه من الألاعيب . .

— لا بدّ أن تقبلَها لأن ساسَتك سيقبلونها . .

— إن الشعبَ سيقف لهم بالمرصاد .

— أنت خيالى ، أتظن أن الشعبَ هو الذى يحكم الآن ويوجه ؟؟

— طبعا ، وإلا لما تحركَ الجيشُ تحت الضغط الشعبى إلى فلسطين ؟؟

— مهلا يا سليمان فإن الشعبَ لا يحكم . . . ألا تعلم أن الحكومة التى تراها اليوم تحكم برغم أنفى وأنفك ، إذ لم تَسْنُدْها أغلبيةٌ ولم يأتِ بها شعبٌ ، وإنما الملكُ ورضاء الإنجليز هما سِنَادُها ؟ دع أسطورةَ الحكمِ للشعب ، وإن كنتُ أنا شخصيا أعتبرُ أحزابَ الأقلية والأغلبية على السواء نسخةً واحدة لا يختلفون إلا فى القليل ، مادام الإنجليز بين ظَهْرَانَيْنا . .

— يا عمى لابد أن هناك شيئا من الكرامة والحياء يمنعُهم من قبول الهُدنة هذه المرة ، ثم إنهم فى وَضْعِ المُنْتَصِر ، والمنتصر يكون عادةً فى يده المصيرُ .

— باسم السلامِ سيقبلون الهدنة . . وباسم الهدوء والاستقرارِ فى الشرق الأوسط سيضعون السلاح ، ولن يمرَّ طويلُ وقت حتى تصبحَ إسرائيلُ فى حكم الدولة المظلومة المعتدَى عليها والتى تستغيثُ بالضمير العالمىّ ، وسيصيرُ العرب مجموعةً من المتعصبين الغاصبين الذين يهددون الأمنَ والسلامَ ، ولا يكترِثُون لقراراتِ المنظماتِ الدولية . .

— مصيبة . . ! ! ! !

— بل مصيبةٌ كبرى . .

الفصل الرابع عشر

كنت أقرأ فى خطاب وصلنى من سعيد حافظ ، وكان سعيدٌ يتحدث فيه عن أشواقهِ وعواطفِه نحوى ، و يصفُ المظاهراتِ التى يقودُها فى المدرسة ، وأخبرنى أنه عازمٌ على التطوع فى صفوف المجاهدين فى فلسطين . .

دخل عمّى وأنا أقرأ فى الخطاب فقال :

— خيرٌ إن شاء الله . . . ماذا عندكَ من أخبار ؟

— إنه خطابٌ من سعيد حافظ . .

— أما زالَ زعيما فى المدرسة وقائدَ المظاهرات ؟ ؟ ؟

— ليس هذا فحسب ، بل إنه عازمٌ على التطوُّع فى حرب فلسطين . .

فابتسم عمّى ابتسامةً شاحبة وقال :

— قل له يوفرْ على نفسه هذا المجهودَ .

— كيف ؟ إنه يريد أن يجاهدَ فى سبيل الله فلا مانعَ فى نظرى من ذلك . .

— لقد قبلت حكومات الدول العربية الهدنة اليوم ، وسيقفُ إطلاقُ النار خِلالَ هذا الأسبوع ، ومعنى ذلك انتهاء فِلِسْطين .

— أصحيحٌ ما تقول . . ؟ ؟

— طبعاً ، أتستغرب ذلك ؟ ؟

— لقد انتصرَ اليهودُ أخيراً ، بعد أن نقضوا الهدنةَ السابقةَ مراتٍ ومرات . . .

— بل انتصرتْ السياسةُ البريطانيةُ والأمريكية .

— يا للعــار . . . ! ! !

— وأى عار يا سليمان ! ! إنها سبع حكومات عربية مقابلَ دولة صغيرة .

— لشد ما آلمنى هذا الخبر وحطم آمالى .

— ثق أننا — الشعوب — لسنا ضعفاء ، وإنما نحن فى حاجة إلى قادةٍ مخلصين يرسُمون لنا الطريق السليم ، ويؤمنون بحق الشعوب ، ويعفّون عما فى أيدى المستعمرين من إغراءات . .

— إنها جريمةٌ أيضا يا عمى أن نلقِيَ بقيادنا لمن يبيعوننا ويشترونا ، دونَ نظر إلى شرف أو قومية عريقة يجب أن يصونوها من العبث .

— هذه فترة كثيرا ما تمرُّ بحياة الشعوب ، فتخرج منها وقد تعلمت الكثيرَ ورأت وقاست مالا يستهانُ به ، لكن بعد ذلك تأتى الحرية . . . الحرية التي نَعض عليها بالنواجذِ ، ولا نُفرِّطُ فيها . . . وماذا تظن الاستعمار يفعل بنا . . ؟

— أليس له سياسةٌ غيرُ التحطيم والتمزيق والتمكين لنفسه ؟

— هذه هى الحقيقة . .

— لكن على أى أساس قبلوا الهدنة يا عمى ؟ ؟

— على أساسِ الأسلحةِ الفاسدةِ التي لا تقدِّمُ فى المعارك ، بل تؤخِّرُ ، وعلى أساسِ أوامرِ القصر التى تأبى إلا أن تكون قيادةُ الحرب من القاهرة لا من فوق أرض فلسطين . وعلى أساس الفساد الذى عَمَّ كلَّ الأنحاء . . هذا هو الأساسُ الحقيقِى ، لكنهم للأسفِ لا يعترفون بذلك بل زعموا أنهم قبلوا الهدنةَ الأخيرةَ باسم السلام ، وانصياعا للقوانين الدولية . .

صدمنى الواقعُ المرُّ ، وأخذت أتساءلُ : أهكذا تذهب أرواحُ المخلصين من أبناء هذه الأمة بلا طائل ؟ ؟ إن قادتَنا قتلةٌ سفاكون ، فهم سببُ هذه المجازر ، وهم الذين أجرموا فى حق هؤلاء الضحايا . . إما إن سياستهم كانت تنبنى على الدَّجل والشَّعْوَذَة ، وإما أنهم

يحظَوْن بجانب كبير من الغباء والبَلَه ! ! كلتا الحالتين لا تشرف بل تثير الغيظ وتدفع إلى الألم المحض . .

صدقت يا عمى إن الوطنية كثيراً ما تُشَوَّهُ معانيها ، وتُستَغلُّ استغلالا فاحشا فتصبحُ تجارةً رخيصة فى أقذرِ الأسواق ، والسياسةُ لم تعدْ إلا مدلولا على الكذب والرياء والاستبداد .

قلت لعمى : لم لا يتركونَ عربَ فلسطين ومن معهم من المتطوعين يواصلون كفاحهم ، ويمدونَهم بالمال والسلاح الكافى ؟ ؟ ستكون المدنة حينئذ حبراً على ورق ، وفى الوقت نفسه تكون الحكومات قد قامت — ظاهريا — بالتزاماتها الدولية الجائرة . .

قال عمى :

— لن يجرؤَ رئيسُ وزارة مصر ولا من هو أعلى منه على ذلك .

— لماذا ؟ ؟

— لأن الأمرَ لن يخفى على الإنجليز ، وبذا يصبحُ مصيرُ الوزارة فى كف القدر . .

***

وفى الصباح مر بى فخرى زميل الدراسة قائلا : أتعلم أن هذا اليوم يستحقُّ مظاهرةً ضَخْمة تجوبُ الشوارع ، وتقلِبُ (الترام) وتعطى فيها الشرطةَ « علقة محترمة » . . ؟ ؟

— لماذا ؟ ؟

قلتها وأنا متشوقٌ لمثل هذا العمل شوقا جارفاً لأول مرة ، فقد كنت أتمنى فى هذا اليوم أن أغيبَ عن المدرسة وأعودَ إلى نفسى أجمعُ شتاتها ، وأعيد إليها هدوءها . فقال فخرى على الأثر : ألا تعلم لماذا ؟ ؟ لقد وقعت الحكومة الهدنةَ مع اليهود بصفةٍ نهائية . . . الهدنةُ التى نُقضَتْ عشراتِ المرات ، وكما سمعنا أن هذا معناه ضياع فلسطين .

— وما قيمةُ العمل على قلب الترام واحتراق عرباته وقذفِ الشرطة بالطوب والأحجار ؟ ؟

— وكيف نعبِّرُ عن شعورنا وسُخْطِنا ؟ لا مفر من ذلك .

كان قيامُ المظاهرات فى هذا اليوم أمراً مستبعداً ، إذ أنه من المحتمل أن يطربَ الجميع للسلام الذى سيسودُ ، ولاختفاء شبح الحرب ، لكن الشعب كثيرا ما لا تنطلى عليه مثلُ هذه الدعاوى والمزاعم ، فللشعب حاسة عجيبة يدرك بها خافية الأمر ، ولا تفلح حينذاك الطنطنات والأبواق المأجورة التى تدوى فى كل مكان ، ولم يكن هناك دليلٌ على صدق ما أقول غير المظاهرة الكبرى التى حدثت فى مدرستنا وفى غيرها فى شتى أنحاء البلاد . .

الفصل الخامس عشر

وأتيحت لى زيارةُ صديقى « سعيد حافظ » فى القرشية ، لقد تغيرَ شكلُ سعيدٍ كثيراً ، فأصبح ذَا شاربٍ أسودَ منسقٍ ، وذَقَنٍ حليقةٍ ، وترعرع عودُه عن ذى قبل ، وغدا منظرهُ منظرَ رجل مكتملِ النمو . ولاحظت أن المشاجرات التى كثيرا ما كانت تنشِبُ بين خضرةَ والشيخ حافظ أصبحت فى حكم المنعدمة ، وأخت الشيخ حافظ هى الأخرى لم تعدْ تتشاجرُ مع خضرةَ كثيراً ، وما زالت كعادتها فى انتظار العريس المرتقَب ، تتزين له بأبهى زينة ، وتلبَسُ له أفخرَ الثياب ، وتبحثُ عنه فى كل المظان ، لكن يظهر أنها كلما ألحت فى طلبه ، ازدادت الأقدارُ عِنادا بها . . قلت لها :

— ما هذا الهدوء الذى تنعَمُ فيه الأسرة ؟ ؟

فقالت :

— لا بدَّ أن نسترَ أنفسنا فى القرشية » فنحنُ غرباء عنها . .

— أظنُّ أن حالةَ الشيخ حافظ التجارية تحسنت كثيرا ، وهذا طبعا من أسباب الرضا والهدوء .

— صحيح ، لـكن خضرةَ تبلع كلَّ شىء فى بطنها ، ولا أحدَ يعلم أين تخفى كلَّ ما يصل ليد الشيخ حافظ من مكاسب .

— أتعودين للشجار والغيرة من خضرة ؟

— غيرة ؟ ؟ صلِّ على النبى . ولماذا أغار منها ؟ أمن أجل وجهها الشاحبِ ذى البروز ، أم عيونِها التى لا تستطيعُ فتحَها فى الشمس ؟ ؟ أنا أحسنُ منها ستين مرة ، لـكنَّ حَظِّىَ مائل . .

أما الشيخ حافظ فقد أصبح من رواد المقهى البلدى هناك ، وسُرعان ما وجد له أصدقاء جُدُداً يحبذون آراءه السياسية ، وتعليقاته على الماضى ، والوقائع الزاهرة التى كان صداها يرنُّ فى أرجاء العالم فينحنى إعجابا لهتلر ولألمانيا . . .

قلت للشيخ حافظ : إن ألمانيا سيئةُ الحظ ، لم تُصَبْ بالهزيمة فحسب ، بل قسموها إلى شرقية وغربية . حتى برلين نفسها سيطر الروس على جزء منها والحلفاء على الآخر ، إن مثلَ هذا التقسيم سيقصِمُ ظهرَ ألمانيا ، ولن يتركَهَا لتقومَ من كبوتها هذه المرة .

فأبدى الشيخ حافظ شيئا من الألم والتأثر وقال :

— سبحانَ من يحيى العِظامَ وهى رميم .

— إن التقسيمَ وسيلةٌ استعمارية دنيئة .

— لكن تأكدْ أن كلَّ فريق سيحاول أن يقوّيَ منطقته ويسلحَها بأفتك الأسلحة ، وهكذا سيخلقون قوتين متضاربتين ، ولن يسكتَ الصراعُ الدائرُ بينهما إلا إذا التهمت إحداهما الأخرى ، وبهذه الوسيلةِ تعودُ إلى ألمانيا وَحْدَتها . .

— بعد عمر طويل . . .

— ليكن . . . ، ثم تبدأ دوراً جديدا فى التاريخ لا يقل أهميةً عن دورها فى عام ١٩١٤ ، وعام ١٩٣٩ ، فهذا الشعبُ لم يخلقْ ليموتَ ما دام يعتز بقوميته وأمجاده . . .

— لكن ألا تظن أن مثلَ هذا الصراعِ قد يجر إلى حرب عالمية ثالثة ، لا تشمل ألمانيا وحدها بل العالم من أقصاه إلى أقصاه . ؟؟

— هناك حقيقةٌ هامّة يا سليمانُ . . . إن العالمَ يُبغِضُ الحروب بغضا شديدا ، والشعوبَ تريد أن تعيشَ فى سلام ، والزعماء الذين سيحاولون إشعالَ نار الحرب سيقامرون بمستقبلهم ومستقبلِ أمتهم . .

— لن يعيشَ الناسُ بغير حروب أبداً . .

— تستطيع أن تسمّيَ هذا مناوشاتٍ فى حدود ضيقة كما يحدث بين مصرَ وإسرائيل مثلا ، أو بين كوريا الشمالية والجنوبية ، لكن اتساعَ المجال حتى يشملَ العالمَ كلَّه ، أمرٌ قد يكونُ شبيها

بالمستحيل ، إلا إذا أصيبَ العالمُ بلوثة جنون .

كنت أستمع إلى الشيخ حافظ وهو يَرْوى هذه الحقائقَ ، فأزداد عجبا ، لقد كان فى الماضى يُبدى من ضروب التحمُّس للحرب والاهتمامِ بها مبلغا كبيراً ، بل كان يطربُ طربا للمعارك الدامية فى الحرب العالمية الثانية . أما الآن فقد أصبحت نظرتُه أبعدَ ، وأمانيه أسلمَ ، وأصبح يؤمنُ بالسلام كعقيدة لابد أن يعتنقَها الجميعُ ، وينفِرُ من الحرب وأهوالها . ويبدو أن تقدُّمَ العمر به قد أسبغ عليه هذه الصورةَ الجديدةَ من الأمل والحب للسلام . . .

قلت للشيخ حافظ :

— وما الحل بالنسبة لهؤلاء الإنجليز الذين يرفضون الجلاء عن ديارنا ؟ ؟

— إن رأيى معروفٌ من زمن بعيد ، فهم لن يخرجوا إلا إذا رأوا شعباً مصراً على ذلك ، وحكومةً لا تستمِدُّ بقاءها منهم ، وكتائبَ للتحرير تحرِمُهم لذّةَ الراحة .

— عدنا لحديث الحرب من جديد .

قلتها وأنا أغمزُ بعينى ، فرد قائلا :

— ليست حربَ عدوان ومطامع ، وإنما هى دفاعٌ عن حق ،

ورغبة فى الحرية . ولن يستطيع إنسان أن يلومنا على ذلك ، بل ستحنى الدول رءوسها احتراما وتوقيراً لنا .

— صدقت ، هذا عين الحقيقة . . .

— فشلنا فى نهضتنا الصناعية ، أتدرى لماذا ؟ ؟

— لماذا ؟ ؟

— بسبب الإنجليز . . . وهزمنا فى فلسطين ، وعلة ذلك هم الإنجليز . ثم اختلفنا فى وجهات النظر مع بعض الدول العربية والإسلامية ، وليس بيننا فى الواقع ما يدعو إلى ذلك ، لكن السبب هم الإنجليز . .

— أجل ، فهم أصل كل بلاء ، ومنبع كل رذيلة وانحطاط .

ثم انحنى الشيخ حافظ نحوى ، وهمس فى أذنى قائلا :

— فى الحقيقة أن الملك هو الآخر عقبة كؤود فى سبيل استقلالنا وحريتنا ، مثل الخديوى توفيق الذى طعن عرابى من الخلف ، وبدلا من إعطائه حقوق الشعب الدستورية استعان بالإنجليز عليه ، وصار ورقة رابحة فى أيديهم . .

— كفاية يا عم الشيخ حافظ . . الحيطان لها آذان . . وأولاد الحرام كثير ، وأنت بذلك تطعن فى نظام الحكم الحاضر ، وتسب فى الذات الملكية ، وتعلم طبعاً العقوبة المنصوص عليها فى القانون .

فضحك الشيخ حافظ وضحكت معه ، ودخلت خضرةُ فى هذا الوقت ، ثم التفتت إلى الشيخ حافظ وقالت مداعبة :

— أمرُكَ عجيبٌ يا شيخُ حافظ . . . الكلام فى السياسة هو داؤكَ وشغلك الشاغل . يا رجلُ استرح قليلا من وجَعِ الدِّماغ ، والنبيِّ السياسةُ ليس وراءها غيرُ الفقر وخراب البيوت والصداع . .

— اخرسى يا خضرةُ وإلا سددت فَمَكِ بطريقتى الخاصة . .

— طولَ النهار لا يسكت لسانُكَ عن الكلام فى اليهود والإنجليز و . . . و . . . حتى أفسدتَ عقلَ سعيد ، ومن آن لآخر يقبضون عليه فيتعطلُ عن دروسه ، والمصيبة أنه كان عازماً على الذهابِ إلى فلسطين ليحاربَ اليهود ، وكلُّ هذا بسببك أنت . .

— اسكتى يا مغفلة . ! ! لكِ الشرفُ أن يكون ابنُكِ من الوطنيين والمجاهدين فى سبيل الله . . . الدنيا فانيةٌ يا خضرةُ .

— غداً ترى ، سيكونُ مصيرُه مثلَ جده تماماً ، وسيمشى هائماً على وجهه من بلادِ الله لخلقِ الله ، وسأفكرُكَ ياحافظ إن كان لى عمر .

— اخرجى من هنا يا امرأة ، اذهبى وجهزى « الملوخيـة » أو اطبخى اللحمَ أو قشِّرى البصلَ . . . أنت لا تفهمين شيئاً . .

— كفانا أنت بعقلك النظيفِ وأفكارِكَ النَّـيِّرة

يا شيخ « حافظ هتلر » .

وتبسَّمَ الشيخُ حافظٌ لهذه التسميةِ القديمة التى كنا نطلِقُها عليه فى حارتنا ، ولم تخرج خضرةُ حسبما أراد لها بل قالت :

— ما رأيك يا شيخ حافظ ، سليمان أصبَحَ عريساً محترماً ، وأنا أخاف أن توقعَه بناتُ مصر فى شبا كهن ، فيقع فى ورطة لا يفلت منها أبداً . .

— وماذا تريدين له ؟ ؟

— إنى أتمنى أن نخطبَ له من القرشية هو وسعيد كلٌّ واحد منهما عروسة حلوة و بنت ناس كرام .. أحب أن نفرحَ بهما قبل أن نموت .

— يا خضرةُ لا داعىَ لهذا الكلام الفارغ . . سعيد وسليمان لهما مستقبلٌ أهمُّ من الزواج ، ثم إن زواجهما مسألةٌ تخُصُّهما وحدهما ، فهما صاحبا الشأن ، وما زال أمامَهما فرصٌ كثيرة جداً . .

فشرَدتُ بأفكارى حول « ثريا » ، وحولَ نافذة بيتِها فى شارع الطولونى ، وتبدَّى لخيالى ألوانٌ وسيمةٌ جميلة استراح لها قلبى ، وهفَتْ إليها روحى ، لكنى صَحَوْت منها على صوت خَضرةَ وهى تقول :

— آهٍ يا سليمان . . . لو عاشت بسيمةُ لزوجتُها لك . . . كانت تحبك وكنت تحبها . وهل كنت تجد لك صهراً أحسنَ

من سعيدٍ ومن عمِّك الشيخِ حافظٍ ؟

ثم تنهدت قائلة : آه يا حبيبتي يا بنتي .

وسُرْعان ما سادنا وجومٌ ، وحزنٌ ألجمَ الشيخَ حافظاً ، فلم ينطقْ بكلمة ، واغرورقت عينا خضرةَ بالدموع ، بينما شعرت أنا بشيء من تأنيب الضمير وقلت لنفسي : لقد تنكَّرت لذكرى بسيمةُ ، وأحببتُ غيرها ، أصبحت ثريا حِلمَ شبابي ، بعد أن كانت بسيمةُ جنةَ طفولتي وصباي . . . إن الناسَ قد طبعوا على عدم الوفاء . . لكن كيف أعيش راهباً بعد أن اختفت بسيمةُ من الوجود على ما يبدو ؟؟ هذا عملٌ خياليٌّ لا يُعقَل . . لقد كانت طفلةً وكنت طفلا ، وأحببتها فعلا ، ولن أستطيعَ نِسْيانَها ، غير أن التعلقَ بها برغم ما حدث ، والشعورَ بالجريمة لأني أحببت غيرَها عملٌ لا يليقُ ولا يصح . . وعادت إلىَّ صورتُها الوادعةُ الباسمة ، وسذاجتُها اللطيفة ، وغضبُها مني حينما عدت إليها من « ميت غمر » بلا حلوى ولا فواكه ، ففاضت مشاعري ، وأحسست بميل للبكاء . . .

* * *

في المساء خرجتُ مع سعيدٍ قاصدَيْنِ المُقْهى القريبَ من شريطِ السكة الحديدية ، و بينما كنا نشرب زجاجات «المياه الغازية» قال سعيد :

— أين أيامُك الحلوةُ يا أبا داود ؟

— لقد تشوَّقت إليك كثيراً يا سعيد ، ويعلمُ الله مدى تلهُّفى على خطاباتك فى القاهرة . .

— لا . لا يا سليمانُ . . لقد اتضح لى أنك مهمِلٌ جداً . . ألم نتفقْ على أن ترسلَ إلىَّ خطاباً أسبوعياً وأنا كذلك ؟ ؟ وحافظْنا على هذا الاتفاقِ لمدة شهر ، وبعد ذلك أصبح الخطابُ لمدة أسبوعين ، ثم كل ثلاثة أسابيع ثم شهريا ، وفى آخر العام لم ترسلْ خطاباً إلا بعدَ مرور شهرين ونصف شهر .. يظهر أن القاهرة قد صرفتْك عنا بجمالها ... إن من يلتقى بأحبابهِ ينسَى أصحابَه .

— لا يا سعيدُ ، أنت الصاحبُ والحبيبُ وكلُّ شىء ، ولن تتساوى مَعَزَّةُ أىِّ إنسان بمعزتك عندى مهما كان .

فقال سعيدٌ بدَهَاء :

— إذاً فلا بدَّ أن هناك إنساناً ما تعتزُّ به ، وينافسُنى فى منزلتى لديْك . . فابتسمتُ وأنا أجرع ما بقى من المشروب الغازى . .

إن كل همى أن أحقق رغبة أمى فى أن أكون طبيبا أخدم الفقراء من أبناء وطنى ، أو أذهب إلى ميدان القتال إن دعا داعى الحرب .

— أنا لا « أحبُّ » إلا السياسةَ وأحاديثَها ، وليس أعذب إلى

قلبي من ذكريات ليلة قضيتُها في السجن ، لقد صرفتني هذه الأحداثُ عن أمثال ثريا ، فوجدت فيها كثيراً من العَزاء والأعمال التي شغلتني .

— هذا جانبٌ واحد ، فأين الجانبُ الثاني ؟ ؟ لماذا أغفلته ؟ ؟ لا تحاولْ أن تحوِّلَني عما أريدُ معرفتَه ، فلستَ أنت بحجرٍ حتى تعيشَ بلا قلب . . .

— لن تصدقَني ، لـكن والله تلك هي الحقيقة ، أما الجانب الثاني الذي تشيرُ إليه فأعتقد أن له وقتَه ، قد يكون غداً أو بعد غد لا أعلم ، والآن أما زِلْتَ لا تصدِّقُني ؟

— أتعتقد أنك ستظلُّ متحكِّما في نزعاتِك إلى هذا الحد ؟ ؟

فهز سعيدٌ رأسه وقال : مثلك تماما يا سليمان .

لم يكن يجانبُ الحقيقةَ وهو يلقي على سمعي باعترافاته هذه ، لأنها كانت تنطبق على طبيعتِه الثائرةِ ، وأطماعِه الوطنية ، و بدا لي أن هناك أمراً ترك أثرَه في حياة سعيد . . . فالنساء إما مشاغِبات لا يهدأ لهن شجارٌ مثل عمته وأمه ، و إما ثرثاراتٌ نمَّامات مثلُ نساء حارتنا اللاتي كن يتحدثن عن « بسيمةَ » الخادمةِ ، وعن الشيخِ حافظٍ الذي لا يجدُ قوتَ يومه له ولأولاده . . .

الفصل السادس عشر

فى عام ١٩٥٠ كانت مصرُ كلها فى شُغُل شاغل من أجل الانتخابات . .

كانت المعركةُ حاميةَ الوَطِيس فى قريتنا بسبب انقسامها إلى شَطرين : الناحية الشرقية ، وهى تؤيد حِزبَ الوفد وتؤمن به . والناحية الغربية ، وهى تعطى أصواتَها لمرشح الحزب السعدى . ولقد اتخذت المنافسةُ صورةً عنيفة ، لكنها مألوفة ، فلقد دارت المعاركُ الداميةُ بين شَطرى القرية الواحدة ، فسقط الجرحى والقتلى ، وأُتْلِفَت المزارع بالأفدنة ، وأُحرِق كثير من البيوت والسواقى . لم يكن هذا الصراعُ يعطى غيرَ معنى واحد قاس غايةَ القسوة ، وهو أن أهلَ هذه القرية فيما يبدو قد انقسموا إلى ألمان وإنجليز ، أو عرب ويهود ، وتناسَوا الأرحامَ والأواصرَ ، والصفاتِ الإنسانيةَ ، وكانت هذه الأعمالُ المزريةُ تَلْقَى تشجيعاً كبيراً من (س. بك) مرشحِ الدائرة ، والنائبِ القديم ، وكان يَمُدُّها بماله وبتشجيعه الأدبى ، فيظهر براعته وسلطانَه بالإفراج عمَّن يُتَّهَمُون فى هذه الحوادث . . .

وظلت القرية أياماً فى الولائم والاحتفالات والشراب والوعود الخلابة والهُتافات الراعدة ، فقد وعدهم (س . بك) ببناء مسجدٍ كبير ، ووعدهم بإقامة مستشفى ومدرسة ، و بتوظيفِ المتعطلين منهم ، وما أكثرَهم ، تماما كما كان يفعل فى كل مرة ، ووعد الموظفين منهم بالترقيةِ والنقلِ إلى حيث يريدون . . .

ولم يكن أحدٌ يخرج إلى حقله أو يمشى فى الليل إلا و بيمينه سِكِّينٌ ذو حدين ، أو عصا غليظةٌ ، أو قطعةُ سلاح . .

وكان واضحاً أن الانتخاباتِ ليست وسيلةً لإبداء الرأى الحر ، واختيارِ الأصلح مسئولا عن مصالح البلاد ، بل سوقاً للاستغلال والمنافسة غيرِ الشريفة التى يُستعمَلُ فيها شتى أنواعِ الأسلحةِ والمكائد ، فإن النجاحَ هو الغاية ، وفوزَ الحزب هو المَرَام .

قلت لأحد المتحذلقين من رجال قريتنا :

— إن المرشح (س . بك) هذا إنسان متقلِّب لا مبدأَ له ولا عقيدةَ . فنظر إلىَّ شَزَراً وقال :

— ومن أدراك حتى تحكمَ هذا الحكم الطائشَ . . ؟ ؟

— إنه يرشح نفسه دائماً على مبادئ الحزب الذى يرضى عنه القصر ، بل رشَّح نفسه فى الانتخابات « الحرة » وغير الحرة ، فتراه

وفدياً أو سعدياً أو دستورياً أو مع صدقى باشا . . المهم أنه ورث الدائرة عن أبيه ، ويريدُ أن ينجحَ دائماً مهما كان لونُ الحكم وحالة البلاد السياسية .

فرد الرجل مغتاظاً وقال :

— وفِّرْ هذه الحِكَمَ الغاليةَ لنفسك . . . فأنت لا تفقه فى السياسة حرفاً واحداً ، أتعتقدُ ما دمت فى التوجيهية أنك تستطيعُ أن تحكمَ على مجريات الأمور ؟

فأفلت منى زمام نفسى وقلت :

— طبعاً لا تريد أن تعترِفَ بالحقيقة ، لأن نجاح (س . بك) يهمك كثيراً ، فالجنيهاتُ التى تقبِضها منه كل أسبوع ليست بالشىء الهيِّن . .

فهوى الرجل بكفـه على وجهى ، وأعطانى صفعةَ قوية وهو يقول :

— كفى وقاحةً وقلةَ أدب . .

وكان هذا العملُ بدايةً لمعركةٍ شديدةٍ بين أسرتنا وأسرته . ولم يكن من السهل علَى والدى أن يُضيعَ حقى ، إذ لم يهدأْ له بالٌ إلا بعد أن أحدث جُرحاً غائراً بعصاه فى رأس هذا المتحذلقِ

مأجور . . . وظل العداء بينه وبين أبي حتى توفاه الله . .

وعادت إلى ذهني صورةُ عمي « فريد » وهو يقف بباب (س . بك) يطلب منه عملا يفتحُ عليه بابَ الرزق ، و (س . بك) يروغ كما يروغ الثعلب ، ويُرسِلُ أعوانَه لعمي يطالبون منه الرِّشوة ، وعمي يقف حائراً بين الوظيفة التي تلوح له كالسراب ، وبين يده الفارغةِ وجيبهِ الخاوي ، وقارنت هذه الصورة بالوُعود الخلاّبة التي يبذلها اليوم (س . بك) وعشرات الجنيهات التي يبعثرها بلا حساب ، ثم تواضعه الجم الذي جعله يحضر المآتم والأفراح التي تحدث في القرية على خلاف العادة ، فآلمني هذا الرياء القذر ، وتلك الأخلاقُ الوضيعة . .

ولن أنسى يوم أن جاء المرشح (س . بك) بنفسه إلى بيتنا ليصلحَ بين أبي وبين ذلك الرجل الذي اعتدى علي ، لقد قال المرشحُ المحترمُ وهو يربت على كتفي :

— في أي سنة أنت يا سليمانُ ؟

— في التوجيهية . .

— حسناً جداً . . ما عليك إلا أن تنجحَ ، وسيكون دخولُك الجامعةَ بالمجان أمانةً في عنقي ، وهذا عهدٌ عليّ . .

— أشكرك يا سعادة البك .

وأحاط بى أعوانه من أهل البلد وأوقفونى وقالوا :

— لابدَّ أن تلقِيَ خطبةً من أجـــل سعادة البك . . هيا . . ياسليمان .

كان أحدُهم يجذِبُنى من ذراعى، والآخر يرفعنى فوق الكرسى ، والثالث يصفِّق لى ، وسعادة « البك » يبتسمُ عن أسنانٍ بيضاء لامعةٍ ، فلم أجد مناصاً من أن أرحِّبَ وأشكرَ وأدعُوَ بالنجاح ، كالآلة التى تدور حسبما يراد لها . ويظهر أن مواكبَ النفاقِ والرياء إذا كانت قوية متدفقة فإنها قد تكتسحُ فى طريقها أولئك القلائلَ الذين يحاولون أن ينأَوْا بأنفسهم عن هذا التيار الصاخب . . . وفى أثناء مغادرته لمنزلنا ، جاء أحدُ أعوانه ودسَّ فى يد أبى ورقةً من فئة الجنيهات العشرة وهو يقول :

— هذه من سعادة البك ، ومن أجل الُخطبةِ العظيمةِ التى قالها سليمان . .

فتراجعَ أبى إلى الخلف فى ذُعر ، وأشاح بوجهه عن الرجل وقال :

— ابعد عنى يا رجلُ بمالك . . . حدُّ الله بينى و بينك . . اذهب يا رجلُ ، ربُّنا سابرها والحالُ رضا والحمدُ لله . .

— إنها نعمةٌ ساقها اللهُ إليك . . . أتر كُها بقدمك ؟ ؟

— قلت لك اذهب ، لن أبيعَ ذِمَّتى وشرفى بعشرة جنيهات ، إنها سُحْتٌ و بلاء ، ولن آخذَها ولو خلا بيتى من لقمة العيش . . . أعوذُ بالله . .

وخرج الرجل وهو يهز كتفيه و يسخَرُ من « سذاجة » والدى ، بينما أخذتنى الحميَّة وتذكرت مواقفَ الشجاعةِ والبطولةِ التى كثيراً ما رأيتها على خشبة المسرح أو على الشاشة فصحت فى صوت جهورى :

— اخرج أيها المأجور . . عليك اللعنةُ . .

فَشُدِهَ الرجلُ ، وخرج وهو يَرْثى لحال هذه الأسرة — أسرتنا — لابد أن مساً قد أصابها فاختبلت سـواء الوالد أو الابن . بينما التفت أبى إلىَّ وقال :

— لا داعىَ يا سليمانُ لهذه الألفاظِ الجارحة ، لقد رفضنا ما عُرِضَ علينا وكفى . . ثم سكت قليلا واستطرد : وأقسم بالله أننى لن أذهبَ إلى مكان الاقتراع ، ولن أعطىَ صوتى لـ (س . بك) ولا لغيره .

— لا يا أبى ، يجب أن تعطىَ صوتَك لأيهما تختار .

— كلا ، لا داعىَ لوجع الدماغ ، كلا المرشحين دَعِىٌّ كذاب .

— لابد أن أحدَهما أفضلُ من الثانى .

— لا يتفاضلان إلا فى الخِداع والاستغلال . .

— إن صوتك حينما تعطيه لمن يستحقه ، فإنك بذلك تناصر قضية الحرية .

— حرية ؟ ؟ إنني أذهب إلى الغيط لا يمنعني أحد ، وأعود منه وقتما أشاء ، وآكل وأشرب ما يروق لي ، وأنفق إذا أردت وأفعل ما يحلو لي . فماذا أبغي بعد ذلك ؟ أهناك حرية أكثر من هذا ؟ ؟

— بالطبع يا والدي . . إن بلادنا مثلا يحتلها الإنجليز ، ويصرف الملك أمرها بحسب هواه ، يعاونه في ذلك حفنة من ذوي الأملاك والأموال الضخمة ، وهؤلاء جميعاً هم الذين يستمتعون بكل خيرات البلد ، ويجعلون منا قنطرة إلى مطامعهم ، ولا مقياس في نظرهم إلا المحسوبيات والمعارف والمآرب الشخصية . .

— وما علاقة ذلك بالحرية ؟ ؟

— لو أن هناك حرية بالمعنى الصحيح لنال كل حقه بحسب مجهوده وكفاياته ، ولكان التعليم بالمجان للجميع لا لأولاد الكبراء المحظوظين وحدهم ... إن الحرية توجد حيث لا تباع أصوات الناخبين وتشترى . .

فأطرق أبي قليلا ثم باغتني قائلا :

— لكن أتعتقد أن نجاح واحد من الاثنين المرشحين في قريتنا سينصر قضية الحرية ؟

ولم أجد جوابا شافيا لتساؤل والدى ، فسواء بحجت أحزاب الأغلبية ، أو أريد لأحزاب الأقلية أن تحكم ، فالأمر لن يتغير كثيرا فى مخبره ، ولكن قلت لأبى :

— الحقيقةُ أن الوضعَ محرجٌ ومحيِّر ، لكن اختيارَ الكِفاياتِ الموثوق بها يعد خُطوةً فى سبيل مجتمع وحياة أفضل . .

— أنا لا أرى أمامى كِفايات ، فالنصرُ للمال وللمَرْضِىِّ عنهم من الزعماء ورجال القصر

— فعلا ، إنه شىء يؤلم كلَّ ضمير حى . .

— والعمدة هو الآخر يهدد بالمحاضر وتوقيع الغرامات ، لكل من تسول له نفسه ألا ينتخبَ من يختاره حضرة العمدة .

— ربَّما يُصلِحُ الحال . .

— اللهم آمين .

الفصل السابع عشر

حالما نجحتُ فى التوجيهية شعبة العلوم ، قررت أن أتقدمَ بأوراقى إلى كلية طب قصر العينى ، وكنت بطبيعتى أميلُ إلى الدراسات العملية ، وعندى من المثابرة والصبر مايجعلنى أعكُف على الأشياء العملية بلا ملل أو سأم .

قال لى أبى :

— إنى أتمنى أن أراك قاضيا ، لهذا أفضِّلُ التحاقَك بكلية الحقوق . .

— وماذا لو خاننى الحظ ولم أنلْ الدرجةَ التى تؤهلنى لذلك ؟ ؟ سأكون محامياً ، وبذلك أقامرُ بمستقبلى ، لأن مهنةَ المحاماة تحتاج إلى مَوْهِبةٍ خاصة وطلاقةِ لسان ، وأنا أفضِّلُ النواحىَ العمليَّةَ أكثر من غيرها .

— لكن أنت تعلم يا سليمانُ أن كليةَ الطب طويلة الدراسة ، وتحتاج إلى ما يقرُب من سبع سنوات ، وتحتاج أيضا إلى نفقات باهظة .

— هذا حق ، غير أن طولَ المدة وبهاظةَ النفقات ، سيكون لهما

مقابلٌ ، وهو مستقبلٌ طيبٌ مضمون . . . وهناك مسألةُ الميل الشخصى ، فإذا أُرْغِمْتُ على نوع معين من الدراسة كان ذلك مدعاةً للتعثُّر والفَشَل.

— اختر ما شئت ، فأنا ما زلتُ على أتمِّ استعداد لأن أحقق لك كل مطالبَك ، ولو كان ذلك على حسابِ غذائنا وكِسائنا . . كل ما يهمنى أن أراك رجلا ناجحا تشرفنا ، وتشرف نفسك . . . لأن النتائج السارّةَ تمحو عنا آلامَ التعب . . .

فقمت من فورى وقبّلْت يدَ والدى المتشققةَ الجافةَ ، تلك اليد التى لا تبخَلُ علىَّ بمجهود ، ولا تضنُّ علىَّ بمال ، وقلت :

— أبقاك الله وأطال عمرَك .

— لا تحمِلْ همًّا ما دُمتُ أنا على قيد الحياة .

كانت نفسى مفعمةً بالمشاعر الكثيرة ، وظهر أبى أمامى مكافِحا من الطراز الأول ، وأكبرَ من الزعماء ذوى الهيل والهيلمان ، كان رجلا فلاحا ، لكن بصيرتَه النفّاذة وإيمانَه العميق ، دفعاه لأن يؤمن بميولى الخاصة ، ويؤيد كلامى المنطقى ، لأن نفسَه البيضاءَ الصافيةَ لا تعرف جدلا عقيما ، ولا أنانيةً منحرفة . . . لكم تمنيت أن يكون مرشحُ دائرتنا (س . بك) مثلَ أبى فى هذا الموقف ، لكنها أحلامُ الجائعين بين الثمار المحرمة .

أما أمى فقد جلست تستمع إلينا فى زهو وانشراح ، والغبطة تطفر من وجهها ، فلا تكادُ تلمح أن وراء هذه التقاطيع الضاحكة آلاما قاسية تحز فى قلبها . لقد قالت لى :

— ليت المُنى تتحقق يا سليمانُ . . . أصحيحٌ أنى سأراك طبيبا تختال فى ملابسك البيضاء كالملاك ، والسماعةُ تتدلى من عنقك ، وأنك ستخفف آلام البائسين ؟

— بإذن الله يا أمى . . . إن الأيامَ تمر سراعا . . . الله معنا . .

— لو رأيتك على هذه الصورة لكفانى هذا نصيباً من الحياة ، ولاستقبلت الموتَ راضيةً باسمة . .

ثم رفعت يدها إلى السماء كعادتها ضارعةً : ياربِّ حققْ الآمالَ ، واحفظه من عيون الحاسدين ، واحمِه من الأخطار . . يارب .

وكان قلبي يخفق بقوة وانفعال مع دعواتها الصادقة . . . .

ثم توجهت إلى بالقول مرة أخرى :

— أستحلفك بالله يا سليمان أن تكون رحيما بالناس إذا ما أراد اللهُ لك أن تنالَ مُرادَك ، انظر لأمك . . . ألا تذكر أننى لم أكن أستطيع الذهابَ إلى الطبيب لضيق الحال ؟ ؟ ثم ألا تذكرُ حينما كنا نخرج من المستشفى حيارى لا ندرى من أين

نأتى بالمال اللازم لشراء الدواء ؟ ؟

— إنى لأذكر كلّ ذلك يا أمى .

— إذا فلا تحجبْ نفسك عن مرضاك ، ولكن معاملتُك لهم معاملةَ مباشرةً لا عن طريق الممرضين ، حتى تعلم المحتاجَ وغيرَ المحتاج . . والقناعةُ يا ولدى رأسُ مالٍ كبير . . كبير جدا . . . ويكفيك رضى الله عنك . .

— أعاهدُك على ذلك يا أمى .

لقد كانت أمى تستقى حديثَها من صميم تجاربها ومقاساتِها للأهوال ، ولم أستغربْ حديثَها لأنى أعرفُ دوافعَه وأسبابَه . يالها من إنسانة طيبة نبيلة ذاتِ قلب كبير — ولو أنه مريض . . سأنقشُ هذه العباراتِ على شغاف قلبى بأحرف بارزة منيرة . . .

* * *

أمّا سعيدُ حافظ فقد تقدم بأوراقه إلى الكلية الحربية التى كان يحلُم بها منذ أمد بعيد ، حتى يكونَ ضابطا مثلَ جده ، أو مثلَ عزابى صديق ذلك الجد السيىء الحظ . . . وكان سرورُ سعيدٍ عظيما جداً حينما نجح فى الكشف الطبى ، لكن للأسف كانت فرحتُه شوهاءَ مبتورةً . . . لقد وقفت تحرياتُ رجالِ الشرطة عقبةً كأداءَ

فى سبيل التحاقه بالكلية الحربية ، فلقد كانت التقارير تقول :
« إنه وطنى متطرِّف . . معروفٌ بعَدائه لنظام الحكم الحاضر . . .
ذو ميول ثوريةٍ ومن الخطِرين . . . قد استضافته الشرطةُ
مرات عديدة » .

وقال لى سعيد :

— والآن ما العمل يا سليمان ، إذا لم أدخل الحربيةَ
فستنهارُ آمالى ، وخير لى أن أقذفَ بنفسى تحت شريط الترام
حينذاك . .

— صبراً يا سعيدُ . . الأمرُ لا يحتاج لأكثرَ من توصية ،
أو وساطةِ رجل مرموقٍ له صلة بالموضوع .

— يا للمصيبة . . . ! ! ! ألا يستطيعُ الإنسان أن يصلَ لحقه
إلا عن طريق الوَساطة ؟

— إنه شيء مُخزٍ حقاً . .

— اسمع يا سليمانُ . . . لا بدَّ من دخولى « الحربية » بأى ثمن . .
أنا لا أتصورُ أنى سأحرم منها لمجرد عدم وجود توصية تبعد عن طريقى
هذا التقرير المبالغ فيه . .

— اترك الأمرَ لوالدك فهو كثيرُ المعارف ، وكثيرُ المال أيضا ،

بسمارك الداهيةُ الأكبر يقول : يمكن شراء كل شيء بالمال حتى الذمم . .

— لازم . . لازم دخولها ولو ارتكبت جريمة . .

— اهدأ يا سعيد ، عليك أن تجتهد وعلى الله التسهيلُ .

وصدقت مخاوفُ سعيد فقد حُرِمَ من دخول الكلية التي كان يتعشقها ، وكان هذا مَدْعاةً لحزنه وألمه الشديد ، حتى إنه بقي في « القرشية » ، وفضَّل عدمَ الذهاب إلى أي كلية أخرى ، فقال له أبوه : « ما الذي يجعلك تستمسك هكذا بالكلية الحربية ؟ ؟

فقال سعيد : لأني أميلُ إليها ، وأرى فيها تحقيقا لآمالي ، وهذا يكفي . .

— أخاف يا سعيدُ أن تكونَ ممن تغريهم الأشرطةُ الحمراء ، والملابسُ الزاهية . .

— بل إني أعشقُ الحياةَ العسكريةَ وما فيها من خُشونة وتقشف وكفاح . .

— الجيش الآن هو جيشُ مولانا ، واستعراضاتِ مولانا ، أما الصورة الخيالية التي تتراءى لك عنه فهي وهمٌ باطلٌ لاوجودَ له . .

— إن الرجلَ الشريفَ يستطيع أن يكون شريفاً كريماً

فى أى وسط يحل به ، و إذا كان فى الجيش محاسيب وأذناب ، ففيه أيضا وطنيون مخلصون ، ينأون بنفوسهم عن مواطن الذلة ، و بضمائرهم عن بؤر الفساد . .

— لكن ما أقلَّهم يا بنى ! ! !

— بل هم كثيرون . . . ولو فرضنا أنهم قِـلَّة فلأكن أنا أحدهم . .

— لقد صدقوا فيما كتبوا عنك من تقريرات . . إنك من الخطرين حقًّا ، يظهر أنك لا تريد أن تكون طالباً بالكلية ، بل رسولا للتمرد والثورة فى الجيش ، ولكن لا تنس أن الجيشَ ليس مدرسة ثانوية تصول فيها وتجول بخطبك ومظاهراتك ، فإن أقلّ شبهة أو أدنى غلطة قد تقضى عليك قضاءً مبرما وتُطيحُ بمستقبلك .

— أنا ما زلت فى الشارع ، ولم تقبلنى الكلية حتى الآن ، فلا داعىَ يا والدى لأن تسبِق الحوادث . .

— أما زلتَ مصراً على دخولها بعد أن أصبحَ الرفضُ أمراً مقررا .

— طبعا ، لن أتخلى عن ذلك . .

— ما دمتَ مصراً على ذلك يا سعيد ، فإنى أعدك بأنى سأعمل

المستحيلَ فى الدفعة التالية ، حتى تُقْبلَ فيها إن شاء الله . . . فما عليك إلا أن تلتحِقَ بكليةِ الحقوق بصفة مبدئية « حتى تُمَسِكَ بالعصا من الوسط » وتحتاطَ . .

— لكن باب القبول قد أغلق بصفة نهائية فى جامعة فؤاد .

— من السهل التحاقُك بحقوق الإسكندرية . .

الفصل الثامن عشر

طال انتظارُ الشعب على أمل أن تُحَلَّ قضيتُه الوطنيةُ حلاً يُرضِى آماله . . . وجاءت حكومةُ الأغلبية ، وأمل الجميع أن تستجيبَ لرغبات الأمة ، وتكونَ لسانَها المعبر ، والممثلَ الحقيقى لرغبتها فى التحرر الكامل ، والاستقلال التام . .

وابتدأت سلسلةٌ جديدة من المحادثات والمفاوضات وجسٍّ النبض ، والوعودِ المطاطة ، فلم يُطقِ الشَّعب هذه المظاهر التى ملّها من كثرة تكرارها ، وخرجت الأفواج ثائرة هادرة مطالبة بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وإباحةِ حمل السلاح ، وتشجيع حركة المقاومة الشعبية فى القنال وما إلى ذلك .

وتحت وطأة الضغط الشعبي تمزقت هذه الوثيقةُ التى كانت بيننا وبين الإنجليز ، وتسابقت جموعُ الشباب صوب القنال ، رغم أنف الملك ، وتكررت الحوادثُ التى اشترك فيها عمالٌ وطلبةٌ وموظفون وضباطٌ من الجيش وفلاحون ، فساد الذعرُ معسكراتِ الإنجليز ، فلجئوا إلى وسائلهم البربرية ، وتصرفاتهم الوحشية ، فكان التعسف

واللصوصية هما ديدنهم عند نقط التفتيش التى أقاموها ، وخاصة بعد أن تمردت جموعُ العمال المصريين ، فتركوا معسكراتِهم برغم الإغراء أو التهديد . . .

كان الشعبُ كلُّه فى اهتمام وتحفُّز وإصرار على النصر . . . وازدادت مساحة قوائم المتبرعين فى الصحف السيارة ، وطغت رويداً رويداً على ما يكتب من تسبيح بمجد الملك ، وترنيم « بزاهر » عهده . .

قال عمى لى : أخاف أن يطعنَ الملكُ حركةَ المقاومة من الخلف .

— لا يمكن يا عمى ، فهو وافقَ على إلغاء المعاهدة . .

— كلا ، يقال إنه لم يكن يوافقُ على ذلك ، ثم ، أنسيت أنه كان قد وافق أيضا على حرب فلسطين ؟ ؟

— الوضع مختلفٌ جدًّ الاختلاف فى هذه المرة . .

— لم يختلف كثيرا ، وإذا كان الملك — كما تعتقد — قد انتابته على حين غفلة حمى الوطنية ، فما على الإنجليز إلا أن يُعيدوا مهزلةَ ٤ فبراير الشهيرة . .

— إذا كان الموقفُ لم يتغير بالنسبة الملك ، فإن الشعبَ قد وثب إلى الأمام وثباتٍ طويلةً . ولن يصلَ الإنجليز إلى أىِّ مأرَبٍ من مآربِهم بعد ذلك إلا على أشلائنا . .

— عندك حقٌ فى هذه النقطة نفسها ، فالشعبُ يفهم أن الملك قد يطعنه من الخلف ، ومع ذلك فهو يسيرُ فى إصرار لينالَ حقوقه . .

— لكن ماذا يحدث لو تآمر الملك مرة أخرى ؟ .

— سيخوض الشعبُ المعركةَ الفاصلةَ ضده هو الآخر . .

— ستزيد أعباء المعركة ، وقد لا ترجحْ كَفَّةُ الشعب . .

— خذْها عقيدةً يا سليمان . . الشعبُ هو الفائزُ دائما مهما طال الطريقُ ، وزاد الصراعُ ، ومهما كانت الحرب التى يخوضها سِجالا . . . إن إرادَة الشعبِ المؤمنِ من إرادةِ الله . . .

— أجل ، لكنَّ الطريق طويل . . : طويلٌ وشاق . .

* * *

زارنى سعيدُ حافظ زيارةً غيرَ متوقعة . . .

كان يلبَس سترةً صفراء . . قلت له : كيف تركت الإسكندرية وكلية الحقوق ؟

فقال سعيد : لا شأن لى بالإسكندرية ولا بكلية الحقوق . . الوقت وقتُ كفاح . . ! ! كفاح . . ! ! أفهمت ؟ ؟

— ما هذا الحماسُ الزائدُ يا سعيدُ ، إذا كان أبوك جديراً باسم

الشيخ حافظ هتلر ، فما أراك إلا كفئا لأن يسمى باسم سعيد نابليون . . .

لن أقضى معك غير ساعتين وسأتركك بعدها . .

— إلى أين ؟ ؟

— ألا تعلم ؟ إلى القتال طبعا . . . لقد طالبنا بإلغاء المعاهدة ، وبإباحة حملِ السلاح ، واستطعنا الحصولَ عليه فعلا ، فماذا بقى بعد ذلك ؟ ؟ هل كانت المسألةُ مجردَ هُتافات ومطالبَ . .

— بارك الله فى كفاحِك يا سعيدُ . . . لكن هل يعلمُ أبوك بسفرك ؟ ؟

— الوقتُ ضيقٌ ، وقد طلبونا للسفر بسرعة ، وسأكلفك بكتابة خطاب إليه .

— لكن . .

— لكن ماذا ؟ إنى أعرفُ ما تقول . . اعلم أنها حياتى ، وأنا أتصرّفُ فيها حسبما أشاء ، وليس لأحد دخلٌ فى ذلك ، قد يتألمُ والدى ، أو يحزَنُ ، ويعتبرُنى مغامراً ، لكن هذا لن يثنيَنى عما اعتزمته . . . ومن أدراك أن أبى سيتضايقُ مما أفعل ؟ ؟ إنه لا يقِلُّ حَماسا ووطنيةً عنى . . .

— بل هو الذى غرسَها فيك ورعاها . .

وضغط سعيدٌ بأسنانه ، وكوَّرَ كفَّه السمراءَ ، وضرب بها على المنضدة وقال :

— لابد أن نثأرَ من هؤلاء الأوغاد . .

ما أكثرَ الأشياءَ التى كان سعيدٌ يريدُ أن يثأرَ لها . . جده . . أخته . . حرمانه من دخول الكلية الحربية ، أهوال الحرب وآلامها . . ابن مرسى أبو عفر الذى سخر منه لأن بسيمة خادمة . . الحياة السياسية الفاسدة . . الظلم الاجتماعى . . الرشوة . . المحسوبيات . . الانحلال ؛ لأن كل هذه الأشياء أعراض لمرض واحد هو الاستعمار . .

وانطلق سعيد حافظ بحلته الصفراء ، وعودِه الفارع ، وحقيبتُه فى يده ، ليلحقَ بالجموع الذاهبة إلى الموت — أعنى الحياة — الجموع التى لا تحمل من السلاحِ إلا التافهَ الصدِئَ ، ولا تفخر إلا بما فى قلبها من إيمان وطيد . .

وأخذت أتتبعُ أنباءَ المعركة باهتمام بالغ . . . انفجارات هنا ، وكمين هناك ، لغم تحت جسر . . . نسف لسكة حديدية . . هجوم على معسكر ، منشورات تُلْقَىَ فى أماكن القيادة الإنجليزية . . عبارات « كتائب التحرير مرت من هنا » مخطوطة فى كل مكان

من معسكراتهم . . مواكبُ الشهداء فى القاهرة والإسكندرية والقنال . . قصصُ البطولة فى كل بيت . . أطفال يُشعلون النار فى معسكرات الأعداء . . . أمّةٌ تتحركُ برغم القيودِ الثقيلة التى تكبِّلُها من قديم الزمان .

***

ولم أنس أن أكتبَ للشيخ حافظ شيحا خطاباً كما أرادَ سعيد ، وملأته بعباراتِ المؤاساةِ والتشجيع ، ويظهرُ أن الشيخَ حافظاً رثى لحالى وابتسم لسذاجتى ، فقد قال فى خطابه الذى رد به على : « . . . سامحك اللهُ يا سليمانُ . . أتظن أنى أضِنُّ يابنى على وطنه ؟ ؟ إن دمَ التضحية يا ولدى يجرى متسلسِلا من أب لابن فى شراييننا ، وكم كنت أتمنى أن أكونَ بجانب سعيدٍ ، لكنْ جزى الله الشيبَ بما أوهن من جسدى ، وأضعفَ من جلَدى . . صحيح أن أمّه تبكى بكاء مرا ، وتزعم أننى السببُ فى فِقْدان بسيمةَ ، وسأكون أيضا الجانِيَ على سعيد ، بما أفرِغُه فى عقله من أفكار وآراء . . ولا شكَّ أن خضرةَ زوجتى معذورةٌ لجهلها ، فهى لا تأمُلُ من الحياة غيرَ وظيفة طيبة لسعيد ، وزواج موفق لسعيد ، وسلامةٍ وعافية لسعيد . . . أما التضحيةُ والكفاح والوطنية فهذه مترادفاتٌ مبهَمةٌ ، وطلاسمُ

لامعنى لها عندها ، ولهذا فهى تسبُّ الحكومةَ والإنجليز ، وتسبُّنى معهم ، لأننا كنا السببَ فى حرمانِها من سعيد . . .

قلت لها : لا تحزنى يا خضرةُ إن ابنَك بطل .

فردت على ثائرة :

— بطل ؟ ؟ أنت ياشيخُ حافظ مجنون طولَ حياتك . . وستورث ابنَك الجنونَ هو الآخر . . . يا للمصيبة . . ! ! !

ألستَ معى يا سليمانُ فى أنها معذورة . . ؟ أما أنا فأصلى ليلَ نهارَ ، وأدعو الله أن ينصرَ سعيداً وإخوانَه ويكتبَ لهم النجاة ، فقلبي يخفق — على البعد — مع كل خطوة من خطواتهم ، وروحى تهفو لكل خبر عنهم .

* * *

وجدَّتْ أحداثٌ ضخمةٌ زلزلت مصرَ بعنف وقوة . . .

العدوان الإنجليزىُّ على دارِ المحافظة بالإسماعيلية ، سقوطُ عشرات من رجالِ الأمن صرْعى الرَّصاص الغادر . . . الحادثُ يهُزُّ الشعبَ من أقصاه إلى أقصاه . حريق القاهرة وما فيه من سَلْب ونهب . المنشآت والدور تشتعل ، بينما الملك يحتفِلُ فى قصره بالمولود الجديد ولىِّ العرش . . إقالة وزارة وتولية أخرى . . ليالى القاهرة ميتةٌ صامتةٌ

لمنعِ التجول . انتكاسُ حركة المقاومة ، مصر تعيش فى حلم رهيب ملىء بأشباح الهَلَع والارتياع .

وعادت أفواجُ الشباب من القنال ، لـكنَّ سعيدَ حافظ لم يعد . . .

وخفتت أنغامُ الـكِفاح ، وأناشيدُ النِّضال تحتَ ضغطِ الإرهاب ، حتى أغانى الإذاعة الوطنية لم تعدْ تطرقُ الآذان ، و بقيتْ الأنغامُ الحالمة ، والألحان التى تحـكى عن وله العاشقين ، وهيام المحبين . .

و بكى الشيخ حافظٌ فآلمتنى دموعُه حتى بكيت معه . . . قلت له :

— ألم يكن فى حُسبانك أن يقضى سعيدٌ شهيداً فى المعركة ؟

— بلى ، لـكنى أبوه . . ثم الخيانة التى طعنت كفاحه من الخلف ، إن هذا ما يبكينى ، بل هو أقسى على من فقدان ولدى . . . إن قلبي يغلى بالحقدِ والنِّقمة على المجرمين الذى شوَّهوا حركةَ الـكفاح وجعلوا منها سِلعة وتجارة . .

وتراءت لى صورةُ سعيد بُحلَّته الصفراء وهو يقول . « لا بدَّ أن نثأر . . » فساءلت نفسى : هل ثأر فعلا ، وشفى غليلَه وغليلَ أمته المستعبدة ؟ ؟ أما خضرةُ والدةُ سعيدٍ فقد وَلْوَلَتْ ، وقلبت حياةَ الأسرة إلى صراخ وجحيم ، وأصبحت قابَ قوسين أو أدنى من الجنون ، بل إنها جلست لتبكى بسيمةَ وتبـكى معها سعيداً والشىء بالشىء يذكر . .

وأقبل الشيخ حافظ ذات مساء إلى مسكننا ، وقذف أمامى بورقة صغيرة مكتوبٍ فيها خمسة أسماء بينهم اسم « سعيد حافظ شيحا » ، وقبل أن أسأله عن مدلول هذه الأسماء قال :

— علمت من قيادة كتائب التحرير أن أصحابَ هذه الأسماء الخمسة لم يستشهدوا كما أشيع لكنهم وقعوا أسرى فى أيدى الإنجليز .

— إذاً فسعيدٌ ما زال حياً لكنه أسيرٌ فى المعسكرات البريطانية ..

— يرجح هذا .

— الحمد لله . . . ألف مبروك .

— وسنحاول فى الغد إن شاء الله مقابلةَ رئيس الوزراء أنا ومن يمثلون هؤلاء الأسرى ، ونطلبُ منه أن يتصلَ رسمياً بالحكومة البريطانية لتسليمِهم .

— وسأكون أنا معك أيضاً . .

— ولقد وعدنى بعضُ الصحفيين بأنه سيحاولُ إثارةَ الموضوع فى الصحف ، برغم الرّقابة الشديدة ووجودِ الأحكام العسكرية . .

ووثبت من مكانى لأقبلَ رأسَ الشيخ حافظ وأهنئَه بنجاة سعيد ..

وجلست أفكر : كيف أستقبل سعيدًا عند عودته . . ؟ ؟ لا بد أن أقيمَ له حفلا عظيما . بل إن الحماسَ قد سيطرَ على وفكرت فى

كتابة قصيدة من الشعر ولو مكسورة الوزن ، بالرغم من عداوتى التقليدية للشعر الجاهلى ومقامات الحريرى وما شاكلها . . .

وتواترت الأنباء عن تعذيب الإنجليز للأسرى الأبطال ، وسمعنا الكثيرَ عن الكلاب المتوحشةِ التى تغرزُ أنيابَها فى أجسادهم ، وعن الحمامات المثلجة التى يُقْذَفُ بهم فيها ، وعن تركهم بلا طعام أو شراب والسياط تئز على أجسادهم ، وعن اقتلاع أظفارهم فى عنف وغلظة ، ونزع شعرهم فى قسوة منقطعة النظير ؛ من أجل استقاء الأنباء منهم ، فازداد الضغطُ على الحكومة حتى تلح فى مطالبتها بتسليمهم . . .

وكان سماعُ هذه الأنباء يؤلم الشيخ حافظ فيذرفُ الدمعَ السخينَ ، لكنه كان يعودُ ويحمَدُ الله على أن ابنه ما زال حياً يرزق ، أما التعذيبُ والاضطهادُ فسعيدٌ سيحتملهما حتى تمرَّ الأزمةُ بسلام . .

وأخيراً عاد الأسرى الخمسة . . عادوا وقد طالت شعورُهم ، وضمُرَت أجسامُهم من كثيرة ما لاقَوْا من أهوال ، لقد عاشوا مع الموت أياماً حالكةً مفزِعة . وحضروا فى اليوم التالى إلى الجامعة ، وسط الهُتافاتِ الراعدة ، والترحيبِ العظيم ، ترمُقهم نظراتُ الحب والتقدير من الألوف المؤلفة التى احتشدت لاستقبالهم فى الجامعة ، برغم الأحكام العسكرية ، وتكميمِ الأفواه ، والجو الخانق الذى يسود أنحاءَ البلاد . .

الفصل التاسع عشر

قام فريق الجوالة بكليتنا برحلة كشفية إلى معسكر الكشافة الدائم بجوار بحيرة « قارون » ، وكنتُ مع الرّهط فى هذه الرحلة التى استغرقت أسبوعا كاملا ، وعقب انتهاء الرحلة عدت فى المساء متأخِّراً ، وكان شارع الطولونى هادئاً لا تكادُ تُسمعُ فيه حركةٌ ، والضوء الباهتُ يَزيدُه سكوناً فوقَ سكون ووحشةً إلى وحشة ، ولفت نظرى وجودُ أعلام خضراء وحمراء ومصابيحَ ملوّنة ، وبقية مسرح متنقل أمام منزلنا ، لكننى كنت متعَبا من أثر السفر ، فقصدت من فورى إلى حجرتى لأصيبَ بعض النوم فى هذه الساعة المتأخرة . . . وحوالى الثامنة صباحا أقبلتْ زوجة عمى وهزتنى برفق وهى تقول :

— لقد تأخرتَ فى نومك كثيراً ففاتتك صلاةُ الصبح . . . ألا تقوم ؟؟

فتمطّيْت وتثاءبت ، وأنا أحاول أن أرفعَ أهدابى الثقيلَة التى ما زال النوم يغلقها بالرغم من جلوسى فى السرير . . .

وعند تناول طعام الفطور مع عمى قال :

— لقد وصل لك خطاب من سعيد حافظ .

— وأين هو . . ! !

وقدم عمى الخطاب فوجدته لا يزيد على بضع كلمات موجزة :

« أخى سليمان . . . أرجو انتظارى بعد أربعة أيام من تاريخه ، لأنى سآتى مع والدى إلى القاهرة لاستلام « بسيمةَ » وشكراً . . . »

« بسيمة » ؟ ؟ كيف ذلك ؟ ؟

أبعد سِتة أعوام أو يزيد تعود بسيمة ؟ ؟ إن هذا البعثَ غريب . . ! ! ! لقد انتهت بسيمةُ الصغيرةُ من زمن ، لا يعقل أنها أفلتت من غارات هتلر على الإسكندرية . وإذا كانت على قيْدِ الحياة طوال هذه المدة ، فما الذى حجبها عن الظهور ؟ ؟ يا إلهى ! ؟ هل أنا فى حُلْم أم أن ما أراه حقيقة واقعة . . ؟ ؟

وانتظرت سعيداً على أحرّ من الجمر فى الميعاد المحدود ، لكنه لم يحضر وكذلك أبوه . . وكان الامتحان على الأبواب ، وأمامى كثير من المجهود الشاق والعمل المضنى ، إذ لا بد أن أعيد تشريح الضِّفْدَعَة والصُّرصُور والأرنبِ وثعبانِ البطن ودودةِ الأرض وما إلى ذلك ، ولم يكن هذا بالعمل السهل علىّ ، فبالرغم من عشقى للعلوم وإقبالى عليها إلا أنى كنت أصابُ برعشة فى يدى كلما أمسكت المِبْضع — المِشْرط —

وهممت بالتشريح ، وأمامي الكثيرُ من التجارب الكهربائية والحرارية والكيميائية و . . . و . . . و . . . مما ينوء به طالبُ الإعدادية بكلية الطب ، فرأيت من الواجب أن أنسى ثريا وأنسى بسيمةَ — أو على الأقل أحاول ذلك — ولو إلى حين ، فالأمر يتعلقُ بمستقبلي و بالقروش التي يرسِلها إليّ والدى ، و بِسُمعتي وأنا طالب ناجح في قريتنا ومحسودٌ من الجميع ، وقلت لنفسي :

— يكفيني التفكيرُ في الحب والغرام الشهورَ الماضية ، ولا داعيَ لأن تسيطرَ هذه الأفكارُ على عقلي أكثر من ذلك ، لأن التماديَ فيها معناه الفشلُ الذريعُ ، والضيْعةُ التي ما بعدَها ضيعةٌ . . . ورضخت لذلك . . .

لكني كنت أحِسُّ في قرارة نفسي بمشاعرَ كثيرةٍ مختلطةٍ ، تمتزج فيها ذكرياتُ بسيمةَ ومأساتُها . .

واستطعتُ بعدَ حين أن أغرقَ نفسي في خِضَمِّ الأعمالِ الكثيرة في المعامل والمدرجات وفي البيت ، واستسلمت لذلك ، إذ لم يكن لديّ الوقتُ الذي أضيعهُ عبثاً ، والدقائقُ التي أفرُغُ فيها أستغلُّها في النوم ، أو في مقابلةِ أحد زملاء الكلية للنقاشِ في بعض المسائل العلمية . .

وانتهى الامتحانُ على وجه مُرْضٍ استراحَ له ضميري ، فعولت

على الإسراع إلى قريتنا . بل إنى أحسست بميل جارفٍ وحنينٍ عجيب إلى بسيمةَ ، وأيامِها الساذَجةِ الجميلة ، ووجدت من اللهفة والقلق ما يدفعنى دفعا إلى لقائها . . .

فهل تيقظ الحبُّ القديم ، وأراد أن ينفُضَ عنه أكفانَه ليُبعثَ من جديد برغم تقادُم العهد ، وتوالى الأحداث ، وتغيرُ الأفكار والآمال ؟ ؟ وقبل سفرى بيوم واحد نزل علىّ سعيدُ حافظ بغتةً . . .

قلت له : خيرٌ إن شاء الله . . ما الذى أتى بك هكذا فجأةً ودون سابق إنذار ؟ ؟ لعلك انتهيتَ من الامتحان ، وآثرتَ الاستمتاعَ بليالى القاهرِ .

— كلا لم أُمْتَحَنْ على الإطلاق . .

— أصحيح ما تقول . .

— لقد أتيت لاستيفاء بعض الأوراق ، وإنهاء بعض الأعمال المتعلقة بشأن قبولى فى الكلية الحربية . .

— من جديد ؟ ؟ أما زلت مصرًّا ؟ ؟

— وعندى أملٌ مائة فى المائة هذه المرة بعون الله . .

— هكذا أنت دائما يا سعيدُ . . إذا أردتَ شيئا تفانيْتَ فيه ولا تبغِى به بديلا ، ما عيبُ كلية الحقوق ؟

— أنعود للحديث عنها مرة أخرى ، دعنا من هذا ، لقد استقر رأيي .

وعادت إلى ذهنى حكايةُ بسيمةَ ، وكان المفروضُ أن تكونَ هى بِدايةَ حديثنا ، لكن وجدتُ نفسى فى شبه إحراج لا أعرفُ له سببا وجيها ، حتى لكأن هناك هاتفاً فى داخلى يوسوس لى أن فى الأمر شيئاً قد لا يرتاح له قلبى ، أولا يرتاحُ إليه سعيدٌ ، وأحسست بميل جارفٍ لمعرفةِ الأمر ، ولم أستطعْ الانتظارَ أكثرَ من ذلك ، فقلت :

— لقد أرسلتَ لى خطاباً تطلبُ منى انتظارَك أنت ووالدك . .

— أجل ، لكن لم أجدْ ما يدعو لمقابلتك تلك المرة .

— إذاً فقد أتيتم إلى القاهرة ؟ ؟

— طبعاً . .

وبدا التأثرُ والألمُ على وجه سعيد ، فأوجست خيفةً ، لكنى تشجعت وقلت : وهل وجدتم بسيمةَ وعادت معكم ؟ ؟

— نعم ، لكن ليتَها لم تأت . . ! ! !

وهب سعيد واقفاً والضيقُ قد أخذ منه كلَّ مأخذ ، وقال :

— هيا بنا نَجُلْ قليلا فى القاهرة . . .

— ألا تنتظرُ حتى يعودَ عمى ونتناولَ العَشاء معاً ؟

— فى الإمكان تأجيلُ ذلك بعضَ الوقت .

ومع تلهُّفى الشديد لأخبار بسيمةَ وما حدث لها ، لم أستطعْ أن أفاتحَ سعيداً فى هذا الموضوع مرة أخرى حتى لا أولِمَه أو أحرجَه . .

* * *

وهيأت الظروفُ فرصةً طيبة لتحقيق أمنيتى . ففى أثناء توقيع الكشفِ الطبىِّ على سعيدٍ لدخول الكلية ضمن الدفعة الجديدة جدت أمورٌ ، وقال لى سعيدٌ :

— أنا فى حاجة ماسةٍ إلى عشرين جنيهاً ، بأسرع وقت . .

— ما الحل ؟ ؟ إن مرتبَ عمى كلَّه لا يتجاوز العَشرةَ الجنيهات . .

— عندى فكرة . .

— قل ، وأنا مستعدٌ لتقديم كل ما فى إمكانى . .

— أنا لا أستطيعُ مغادرةَ القاهرة الآن حتى لا أتغيبَ عن الكشف الطبى .

— طبعاً . . . طبعاً . .

— لهذا أرى أن تسافرَ إلى « القرشية » فتحضرَ هذا المبلغ من

والدى وتعودَ إلى القاهرة فى الغد مباشرة .

— لـكن . .

فقاطعنى قائلا :

— ليس أمامنا غيرُ هذه الطريقة . . . فلا مجالَ للتردد إذا . .

— على بركة الله . .

* * *

وعلمت بكل ما حدث لبسيمةَ حينما بلغتُ القرشية . . . أخبرتنى أختُ الشيخ حافظ بكل شىء ، قالت لى :

— آه لو تعلمُ حالنا حينما وصلتْ بسيمة إلينا ! ! !

— لقد آثر سعيدٌ الصمتَ ولم يخبرْنى بشىء . .

— له العذرُ . . . لقد صُدِمْنا صدمةً قاسية . .

— كيف ؟؟

— كان يوما مشئوما ، أقسى ممـا لو كنا دفنا بسيمةَ فى القبر وأهَلْناعليها التراب . . لقد أتى بها أبوها تحتَ ستار الليل . . . وعندما دخلت البيتَ كانت تصرُخُ وتبكى وتهذِى كالمحمومة . . . وظلت حياتُها بعـد ذلك مقسمةً بين فتراتٍ من الذهول قد تطولُ وقد تقصُرُ ، وفتراتٍ من الهَياج والهَذيان والبكاء . . وكلما رأت أحدا

أو سمعت صوتاً مقترِباً فزِعت وارتاعَت وتمسكّت بأهدابِ من حولَها . . .

— وماذا تقول فى هذَيانها . . ؟ ؟

تتحدث عن الغارات العنيفة فى الإسكندرية ، وتروى الكثيرَ عن الدماء والأشلاء والموتِ والمخابىء ، وتزعُم أن سيدَها — ثرىّ الحرب — فى إحدى المرات قد جمع أولادَه وزوجتَه وولى هارباً عن البيت ، وتركوها وحدَها حيثُ الظلامُ والألمُ والخوفُ وطيفُ الموت الذى يحوم . .

لم يكن عنده وقتٌ ليأخذَها ضمنَ أولاده ، ثم تتحدثُ عن هجرة سيدِها إلى أسيوط مَسْقَطِ رأسه ، وبقائه فيها بعد الحرب بعام أو أكثر . . وهناك طلبت منه أن ترى والدَها فضحك ضحكة ساخرة ، وماطلها ولم يحققْ لها ما تريد . . . ثم انتقل سيدُها إلى مِنْطَقَةٍ ريفية قربَ أسيوط حيث توجدُ ضياعُه الواسعةُ ، وفى إحدى هذه الضياع حدثت لبسيمة مأساة . .

فقلت فى لهفة :

— ماذا حدث ؟ ؟ . .

— سمعتها تهذى وتقول : حرامٌ عليك يا سيدى . . حرامٌ عليك . . . ماذا تريد منى ؟

أتوسلُ إليك . . لا أريدُ الزواج . . اتركنى . . اتركنى . . وعندئذ تنهمرُ دموعُها ، وتنشِبُ أظفارها فى جسدها وتمزقُ ثيابها ، وتجرى فى الحجرة هنا وهناك ثم تبدأ فى هذيانها من جديد : « ماذا تريد مرة ثانية يا سيدى ؟ . كلا لن أقبلَ هذا . لقد وعدتَنى بالزواج ولم تفعلْ . . ماذا تقول ؟؟ أتهددنى بالطرد ، و بتسليمى لقسم الشُّرطة ؟ حرامٌ عليك ياسيدى إنك تظلمنى . . وعدتنى بالزواج وما زلت تماطل . . إذا فأنت ما زلتَ عند وعدك بالزواج منى . . وتسودُ فترةُ صمت تضحك فيها بسيمة ضحكات هستيرية ممتزجة بالبكاء ، ثم تطوف بوجها سحابةٌ من الحزن القاتل وهى تواصل هذيانها . . إلى أين يا سيدى . . ؟ ؟ إلى بور سعيد ؟ ؟ أتقيم فيها بدلا من الإسكندرية ؟ ؟ ليكن فأنا معك فى أى مكان ، ولكن أريد أن تتزوجنى أولا حتى أطمئنَّ ، ماذا يحدث لو جاء أبى ووجدنى على هذه الحالة ؟ أقسم لك يا سيدى أنه سيشرب من دمى . . ثم تصمت قليلا ، وتقول فزعة : مات ؟ كيف ؟ ؟ أتقول إن أبى الشيخ حافظ مات . . . ؟ ؟ لا يمكن . . لن يموت قبل أن يرانى . . يرانى زوجةً . . . إنك تخدعنى يا سيدى . . »

وهكذا تمضى فى هذيانها على هذا النمط المحزن ، وتظلُّ طولَ الليل تهرف بهذه الأقوال ، فتسأل وتجيبُ على نفسها ، وفهمت من كلامها أيضا أن سيدها حينما غادر بور سعيد إلى الإسكندرية مرة ثانية ، تعمد أن يَهرُبَ منها فى محطة « سيدى جابر » بعد أن ترك معها حقيبةً فارغةً وأمرَها بالانتظار حتى يعودَ . . . .

ومضى هو وأسرته إلى حيث لا تعلم بسيمة . . ويظهر أن المسكينةَ قد هالتْها الصدمةُ والمأزقُ المحزنُ الذى تورطت فيه ، ففضلت أن تقذفَ بنفسها فى البحر ، ولكن أمنيتَها لم تتحقق إذ سُرعان ما أنقذوها ، وقادوها إلى أحد الأقسام ، فوجدت نفسَها بين عشية وضُحاها وسَط السارقات والعاهِرات ، وأصبحت موضعا للزِّراية والاحتقار . . فانهارت أعصابُها . . . ! انهارت حينما فكرت فى أبيها كيف تقابله ؟ ؟ وحينما فكرت فيما مرّ بها من أحداث ، وحينما وجدت نفسها طريدةً شريدة لا تعرف لها ملجأ ولا مأوى ، فسارت فى الطريق . . .

وسكتت أخت الشيخ حافظ لتستردَّ أنفاسَها ، بينما رددتُ عليها من فورى قائلا :

— أى طريق تقصدين ؟ ؟

— مستشفى الأمراض العقلية . . .

— يا خبر أسود . . ! ! !

— وهناك عثرنا عليها بطريقِ الصُّدْفةِ بعد هذه السنوات التى مرت . . ويا ليتنا ما عثرنا عليها . . ! ! !

— ومن قادكم إليها . . ؟ ؟

— أتعرف « الشيخةَ روحيةَ » الموجودةَ فى بلدكم . .

— تلك المقرئةُ الضعيفةُ البصر والتى ذهبت إلى مستشفى الأمراض العقلية من مدة ؟

— أجل ، إنها هى . . . لقد التقت ببسيمةَ هناك ، وعرفتْ حكايتَها كاملةً من أفواه المرضى . وكانت حالة « الشيخة روحية » مجرد لوثة خفيفة ، سرعان ما شفيت منها ، فاتصلت ببسيمةَ فى الأوقات التى كانت تهدأُ فيها أعصابُها ، وسألتها عما إذا كانت ترغب فى العوْدَة إلى أبيها الشيخ حافظ ، فارتاعتْ وبكتْ وفرت من أمامها . .
ولما عادت الشيخة روحية ، وأخبرت الشيخ حافظ بما حدث ، ذهب إلى القاهرة وأتى بها ، ولما عرضها على بعض الإخصائيين أفهموه أن حالتها قد تتحسن ، لكنها قد تستغرق وقتا طويلا . .

— هذا أمرٌ غريب حقا . .

— يظهر أن مستشفى الأمراض العقليــة مجتمعٌ مقفلٌ مثلُ

السجن تماما ، سُرعان ما يلم نزلاؤه بقصة كل نزيل جديد ونوادره وبلده . .

وبعد فترة التفتتْ إلىّ أخت الشيخ حافظ وقالت فى دهشة :

— أتبكى يا سليمان . . ؟ ؟ إنك لطيب القلب . .

فقلت فى ثورة واندفاع :

— لقد جعلها ذلك الوغد حطاماً ، وتركها كُومة من الألم والبؤس ، أقسم لو عرفته أو لقيته يوما لحطمت جمجمته . .

— هذا نصيب . . . والمكتوبُ على الجبين لا بدَّ أن تراه العين . .

— قد يكون بعضُ هذا « النصيب » المكتوبِ مما يثيرُ النفسَ ويدفع للتمرد على الأقدار . .

— لكن ما الحيلةُ ؟ ؟ لا نتيجةَ ترجى من ذلك . .

ووثبتُ من مكانى مغتاظاً محاولا الخروجَ من بيت الشيخ حافظ ، فأمسكت أختُه بكمى وقالت :

— أتريدُ أن ترى «بسيمةَ» قبل أن تأتىَ خضرةُ من الخارج ؟؟

فلم تتركْ لى فرصةَ للتردد ، بل جذبتنى فسرت وراءها وهى تنصحنى قائلة :

— حذارِ أن تحدثَ صوتاً ، أو تفتحَ الباب . . . فإن هذا ممنوعٌ ، ومَدْعاةٌ للمتاعب . .

— إذاً فكيف أراها . . ؟ ؟

— من ثقب الباب .

واستطعت أن ألقى نظرةً شاملةً على بسيمةَ ، كان قلبي يدُقُّ بعنف وسرعة وجسدى كلُّه ينتفِضُ انتفاضاً . . . كانت تجلس داخلَ الحجرة ذاهلةً عن كل شيء تحملق في اللامنظور . . ولست أدرى ما الذى جعلنى أشبهها بالأميرة المسحورة ، برغم أنى لم أعرف شيئاً عن هذه الأميرة اللهم إلا ما قرأته عنها فى الأساطير . .

كانت بسيمةُ — كما صوّرَها لى خيالى دائماً — جميلةَ القوام جذابةً ، حُلوةَ التقاطيع برغم الشحوب الذى يكسوها و بروزِ وجنتيها ، و برغم الذهولِ الذى تسبح فيه . . . . وألهانى النظرُ فى وجهها عن التدقيق فى ملامحِها وهندامِها ، وفجأة سمعنا طَرقاتٍ على باب البيت فسارعْنا حيثُ كنا جالسين من قبلُ ، مخافةَ أن يرانا أحد ونحن نتجسس على بسيمةَ . . التى يقولون إنها فقدت عقلها . . .

***

وأصررت على السفر إلى القاهرة مباشرة بعد أن أخذت العشرين

جنيهاً من الشيخ حافظ ، ولم أستجب لرجائه فى قضاء ليلة معه .

ولن أنسى منظرَ « خضرةً » زوجةِ الشيخ حافظ وهى تقول لى فى حزن :

— لقد عادت بسيمةُ . . .

فقلت لها :

— أعلم ذلك . .

واندفعت خارجا من البيت قبل أن يلمحوا دموعى التى أخذت فى الانحِدار من جديد .

الفصل العشرون

اليوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ . .

عربات الجيش تطوف بالشوارع ،والموقف يوحى بالرهبة والتوجس، لكنّ الناسَ كانوا على عكس ذلك . . فالشعبُ يقابلُ هذه المظاهرَ بالهُتاف والتصفيق ، أما الزعماء والقادةُ القدماء ومن يدور فى فلكهم فقد جمدوا لينتظروا مجريات الحوادث . .

الملك يستجيبُ لبعض مطالبِ الجيش . . حركاتُ تطهير فى الحاشية . . . المفاجأة الكبرى وهى « فاروق يرحل على ظهر المحروسة خارج البلاد فى تمام السادسة مساء يوم ٢٦ يوليو . . »

لقد انهارَ الإلهُ الأكبرُ . . والناسُ بين مصدقٍ ومكذب . . هذا لا يمكن أن يحدثَ بين يوم وليلة . . المجدُ والدنيا والصولجان . . كل هذا أصبح لا شىء ؟؟؟ يا العجب . . . ! ! !

قال عمى فريد :

— ها أنت ذا ترى يا سليمان أن حركةَ الجيش وطردَ الملك نتيجتان حتميتان للمخازى التى رزحنا تحت نيرها زمناً طويلا . .

— إنه نجاح منقطع النظير يا عمى . .

— الثورة أمامَها أعمالٌ كثيرة جدا يا سليمان . . أمامها الإقطاعُ . . الأحزابُ . . وأمامها قواتُ الأعداء الرابضةُ فى القنال . . ألا ترى أن النجاح الآن لم يتحققْ منه إلا جزءٌ يسير . . . ؟ ؟ ؟

— فعلا فالأمرُ أعقدُ مما أتصور . .

— لقد ورثنا عن الملك تركةً مثقلة بالديون والمفاسدِ المنبثة فى شتى مرافق حياتنا — سياسية واقتصادية واجتماعية — وهذا هو الميدان الحقيقى الذى يجب أن تُرَكَّزَ فيه الجهودُ ، وتَتَكَتَّلَ الجهودات .

— والاستعمار ؟ ؟ أتعتقد أنه يرضى عن هذه الحركة . . ؟ ؟

— الاستعمار — كما تعلم — يعادى كلَّ تحرر وطنى ، وكلَّ انطلاق نحو حياة أفضل ، لهذا فلن يسكتَ عن مؤامراته وتدابيره ، وعزاؤنا الوحيد أن نكونَ شعباً يقظاً واعياً لهذه الألاعيب ، وأؤكد لك أن الاستعمار عندما يرانا كتلةً واحدةً متماسكةً سيحمل عصاه ويرحل ، ويحاول أن يخطبَ وُدَّنا ، ويكسَبَ صداقتنا . . . صداقةَ الحر للحر ، لا صداقةَ التابع للمتبوع . . .

— يا عمى إنى أكادُ أطيرُ من الفرح . .

— لستَ وحدَك . . . سر فى الشارع فسترى على كل وجه

ابتسامةً ، وفى كل عين أملا ، أملا واسعاً نضيراً . . . يكفى يا ولدى أن هذه أولُ مرة يحكم مصرَ مصريون دماً ونشأةً وعواطفَ . . إنه حلم تحقق . .

— الآن أستطيع أن أقولَ إن الحياةَ أصبح لها معنى يجعلنا نحرِصُ عليها ونفنى فى سبيلها . . لقد رُدَّتْ إلينا قوميتُنا واعتبارُنا ، وفى اعتقادى أننا أصبحنا شعبا فى استطاعته أن يسودَ ويحكمَ نفسه ، وينالَ المنزلةَ اللائقةَ به . . .

* * *

حينما تم جلاء القوات البريطانية عن مصر بمقتضى اتفاقية ١٩٥٤ ، قلت للضابط الملازم سعيد حافظ شيحا ضاحكا :

— لم تكد تتمُ تعليمَك بالكلية الحربية حتى كان الإنجليز فى طريقهم إلى بلادهم . . مسكين أنت يا سعيدُ !!! لم تمكنْك الظروفُ من أن تثأرَ منهم .

فلوى سعيد شفتَه السفلى وقال :

— أنا سيء الحظ دائماً . . . ويؤسفنى أن يكونَ هذا هو ختام الرواية .

— وماذا كنت تريد أكثرَ من ذلك ؟ لقد خرجوا صاغرين

أمام إصرارنا واستمساكنا بحقوقنا ، فهل بقى شىء بعد ذلك ؟

— لقد كانت إساءاتُهم لنا كثيرةً بحيث لا يمسحُها هذا الخروجُ الهادىء . .

— إنك غريبُ الأطوار حقاً ، لعلك تريدُ أن تقولَ لهم قفوا مكانكم ، لا تخرجوا من ديارنا الآن لأننا سنلقنكمُ درساً قاسياً لن تنسَوْه حتى نثأرَ لأنفسنا ، وحتى لاتسوِّلَ لكم أنفسُكمُ العودةَ من جديد . . ؟ ؟

— لا داعىَ للسخرية منى ، يجب أن تفهمَ أن معركتَنا مع الإنجليز ما زالت ممتدةً ، ما دام لهم جندىٌ واحدٌ فى أى بقعة عربية ، وما دامت أسلحتُهم تتدفق على إسرائيل بغزارة ، بينما يضنون بها علينا لحاجة فى نفس يعقوب . إن إسرائيلَ خطرٌ داهمٌ علينا ، وهى مخلبُ القط ، وعنصرُ الاضطراب بيننا . . .

— ولماذا يا سعيدُ لا نشترى السلاحَ من أى مكان غير إنجلترا ؟ ؟ ألم نعد أحراراً ؟ ؟ أليس من حقنا — بل من واجبنا — أن نحمِىَ أنفسنا من عدوان إسرائيل ، ونُحْضِرَ السلاح حتى من الشيطان نفسه ؟ ؟ إذا لم نفعل ذلك فستؤرق إسرائيلُ علينا حياتَنا ، وتنغصُ عيشَنا . .

- هذا ما طالبَ به ضباطُ الجيش ، ولعلى لا أذيعُ سرا حينما أقول لك إن هناك صفقاتٍ فى طريقها إلينا من بعض دول الكتلة الشرقية . .

— غداً يتهموننا بالشيوعيـــــة ويملئون الدنيا ضجيجاً ودعاوى باطلةً . .

— فليفعلوا ما شاءوا لأننا لن نسكت حتى تدهمنَا إسرائيل فى عُقْر دارنا .

— أجل ، لا حقّ ، ولا حريةَ ، ولا كرامةَ إلا فى ظلٍّ القوة التى تحرس وتحمى هذه القيمَ والمُثلَ العليا التى تحكم بها الإنسانية . .

وتمر فترةُ صمت ، ويقول سعيدٌ بعدها :

— نسيتُ أن أخبرك يا سليمان بأنى سأنتقل إلى مِنْطَقة القنال فى حركة التنقلات القريبة . .

— إذن ستحرمنا من أنسك إلى مدة لا يعلم إلا الله مداها . .

— انتهى عهدُ التلمذةِ ... عهدُ الاستقرار ، وبدأنا فى تحمُّلِ أعباء الوظيفة ، فعلينا أن نقاسىَ الغُربةَ ، والبعدَ عن الأهل والأحباب . .

— هل أحمَدُ الله إذاً على أنى ما زلتُ طالباً بكلية الطب ؟ ؟

— لا مبالغةَ فيما تقول . .

— يا صديقى إننى أتعجلُ الأيامَ حتى أحصلَ على شهادة إتمام الدراسة . .

— للأسف ، نحن لا ندرك جمالَ هذه الأيام إلا بعد فوات الأوان ، عندئذ نجلسُ لنتغنى بذكراها ، أو نترحَّمَ على جمالها . . .

— ومع ذلك فإنى أحسُدُك لأنك تخففت من أعباء التعليم ، وضمنت مستقبلَك وأصبحتَ موظَّفا لا يستهانُ به . . . أما أنا فما زِلْتُ طالبا ، طالبا لا أكثر برغم أنى فى المرحلة النهائية . . . ليتنى دخلت الكلية الحربية معك لكنتُ استرحت من زمن بعيد . . . أما الدراسةُ الطبية فهى أشغالٌ شاقّةٌ . . لقد هصَرَتْ عُودِى ، وأحنَتْه من طول ما تفحصت وشرحت وذاكرت . .

— لكنك ستكونُ طبيبا سامِيَ المنزِلة ، غنىَّ الموارد . .

وغمزَ سعيدٌ بعينيه ضاحكا وهو يقول عبارته ، بينما تمتمت قائلا :

— المهم أن يوفقَنا اللهُ ، ويحققَ لنا الآمال . .

* * *

كانت كارثة ضخمة تلك التى حلت بى بعد أيام . .

لم يكن فى استطاعتى أن أصمُدَ لها ، لأنها كانت أكبرَ من رُجولتى وصبرى وتعليمى ؛ بل إنها زلزلت إيمانى بالحياة ومن فيها

وكفرت بالطموح والأمل والناس والمـال وكل ما فى الوجود . . .
وخيل إلى أن الأقدارَ تتحدانى دائما ، وتوجهُ إلىَّ صفعاتٍ ظالمةَ
قاسية . . . أتدرى لمـاذا ؟ ؟

لقد ماتت أمى . . .

فصرخت : كيف ؟ ؟ لا أريدُ أن تموتَ الآن . . . إننى أذاكر
وأكُدُّ وأستعجلُ الأيامَ حتى أردَّ لها الجميل . . كنت أودُّ أن أقدمَ
لها ثمن شقائها وتعبها من أجلى فوضعتُ عشراتِ المشروعات كى أطبقَها
بعد تخرجى من الـكلية ، لقد انتويت أن أحضرَها من قريتنا
هى وأبى ، ونعيشَ معا فى إحدى المدن حيث الراحةُ والهدوء والهناء
الذى يلزمهما فى شيخوختهما . . . بل إننى كنت قد أعددت العدةَ
لنقلها إلى قصر العينى حتى يتمَّ علاجُ قلبها تحت إشرافِ أحد أساتذتى
المختصين ، بعد أن اتفقنا على ذلك . . . ليتنى أسرعت . . . ليتنى
فـكرت فى هذا الموضوع من قبل . . . واشقائى الذى لا ينفد . . .
ما أكثر حزنى عليك يا أماه ! ! ! إن قلبها برغم علله وأمراضِه كان
— كما قلت — رحيما كبيراً ، وهل أنسى نصائحَها الغاليةَ بشأن
مستقبلِ حياتى ومعاملاتى مع الناس . . ؟ ؟

لقد حطمتنى هذه النـكبةُ ، وأحنقتنى فى نفس الوقت ، وأصبح

الكتاب الذى أذاكر فيه عدوا لدودا ، وشبحا ثقيلَ الظل ، وأصبحت ضيقَ النفس لا أرتاح لكلام الأصدقاء ، ولا لمواساة المعارف . . ! !

أهكذا يكون المصير ؟ ؟

يا لتعاسة الإنسان ؟ ؟ لقد كنت أرى العشرات يموتون فى قصر العينى فلا أكادُ أشعرُ بشىء ذى بال ، أترحمُ عليهم بكلمة مقتضَبة ، ثم أذهب إلى حجرة الدرس وكأن لم يحدثْ شىء ، لهذا كنت أتقززُ من النساء الغارقاتِ فى الملابس السوداء واللاتى يقفن أمامَ قصر العينى يبكين ويندبْن . .

أما هذه المرة فإنها أمى . . ولماذا يسيرُ الناسُ فى طريقهم كالمعتاد . . . ترى أريدُ منهم أن يحزنوا مثلَ حزنى ، ويبكوا من أجل أمى دون أن يعرفوها ؟ ؟ ؟ لستُ أدرى . . يبدو أن الإنسان بسيط . . بسيط جدا . . ياله من درس قاس . . . ! ! !

ولاحظ عمى إغراقى فى الحزن و إدمانى فيه ، فقال وهو يغالب عواطفَه الجيّاشة :

— كفى حزنا يا سليمان . . . إن كأس الموت طوّافة على الجميع . . .

— ليتها طافت علىّ قبل أمى ، إذا لأقبلت على الموت سعيداً . . .

— « كان » فعل ماض ، فلا تقْلِقْ بالَك بأمرٍ مضى وفات ، وإلا جلبتَ لنفسك الشقاء المُقيم . . .

— لـكنها كان يجبُ أن تعالَج من دائها . .

— إنه قدَرٌ مكتوبٌ . . . سنةُ الله فى خلقِه ولن تجدَ لسنةِ الله تبديلا . . . رحِمَها الله . . . لها الجنةُ . .

— الجنة . . ؟ ؟ ربمـا . . . لقد عاشت طولَ حياتها فى جحيم ، أمراضٍ وفقرٍ ، و . . .

— أنت واهمٌ يا سليمان . . لقد كانت سعيدةً ! ! سعيدةً برغم الداء وضيقِ ذاتِ اليد . . . كانت تجدُ فى الحرمان بناءً لمستقبلك ، وتـكوينا لشخصيتك ، وكانت تجدُ فى دائها امتحانا لصبرها ورضائها بقضاء الله وقدره ، وتـكفيرا لمـا قد تـكون قد اقترفته من صغيرِ الآثام . . إن هؤلاء الفلاحين البُسَطاء يا ولدى — أمثالَ أبيك وأمك — هم الذين يجدون السعادةَ فى حظائر الماشية ، ومخازنِ الغلال ، وخلفَ المحراث والنورج والساقية ، وفى الرضى بما قسم الله . . .

والخلود . . . ! ! ! إنه لن يكونَ فى هـذه الدنيا لغير الله . . فعُدْ إلى نفسك يا سليمانُ ، وتذكرْ والدتَك وهى تدعو إلى الله ساجدةً راكعةً آملةً ، ثم انهضْ من يأسِك وغمِك هذا ، وابتهِلْ إلى الله

كما كانت تفعل . . اضرَعْ إليه بقلبٍ خاشعٍ خالصٍ فستشعرُ ببرْد الراحة والسلام يغمرُ قلبَك وكيانَك كلَّه ، وستصبحُ بذلك إنسانا آخر ، إنسانا صقلته التجربة ، وجَلَتْهُ الأحداث ، ورجلا يؤمن بالله أعمقَ الإيمان ، ويرضى بالقضاء الذى لا حيلةَ له فيه . .

— أشكرك يا عمى فقد أعدتَ إلىَّ الثقةَ ، ورددتَ علىَّ معانِيَ الإيمان التى أوشكتُ أن أفتقدَها لهولِ الكارثة . .

— لا تأسَ يا بنى . . أنت بخير دائما ما دمتَ تركَنُ إلى الله ، وتستلهمُه الرشدَ والتوفيقَ حين تنزلُ بك النوازلُ ، وتحُطُّ عليك المُلِمّات . .

— إنا لله وإنا إليه راجعون . .

— واستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين . .

— اللهم إن كانت محسنةً فزد من حسناتِها ، وإن كانت مسيئةً فتجاوَزْ عن سيئاتها . .

— اللهم آمين . .

الفصل الحادى والعشرون

ذهبت إلى الكلية يوم ٣٠ أكتوبر عام ١٩٥٦ . . كان الجميع ذاهلين مشدوهين سواء فى ذلك الطلبة والطالبات والأساتذة ، والسخط والألم يرتسمان على وجوه الموظفين والفراشين والمرضى . . . وقفنا — نحن الطلبة — فى رحبة الكلية تجثم علينا حيرةٌ قاتلة ، وحان موعدُ تلقى المحاضرات والذهاب إلى المعامل والمشارح ، لكن لم يتحركْ أحدٌ من الطلبة والأساتذة . . .

لم نكن نتوقعُ مثلَ هذا الغدر والهجومِ الوقحِ الذى قامت به إنجلترا وفرنسا وإسرائيل مشتركين ، لقد أممنا قناة السويس ، وهذا حقٌّ لا جِدالَ فيه ، وأعلنا أمام الدنيا بأسرها ضمانَ حريةِ المِلاحة للجميع ، ووعدنا بتحسين القناة والاهتمامِ بأمرها ، وأيدتنا أغلبيةُ الدول فى ذلك ، فما معنى هذا العدوانِ الثلاثى . . ؟ ؟

أهذا هو معنى الصداقة فى المفهوم الإنجليزى الفرنسى ؟ ؟ أهذا هو معنى الاستقلالِ والحرية اللذين نلناهما بعد كفاحِ السنين الطويلة ؟؟ أهذا هو السلامُ الذى يدّعيه العالمُ الحر ؟ ؟

وعدت إلى البيت من فورى ، ودخلتُ صامتا لا أتـكلمُ . .
وأخـذت أجمع الـكتبَ وأحشرها فى الدولاب وفى الحقائب ،
وأخرجت إحدى ملابسى الـكشفية وارتديتُها على الفور ، ولم أنس
أن أحمِلَ معى بعضَ الآلات والموادِّ الطبية . .

ووقفت أمامَ عمى على هذه الصورةِ فنظر إلىَّ فى استغراب وقال :

ـــ ما هذا ؟ ؟ إلى أين ؟ ؟

فقلت فى صَرامةٍ وإصرار :

ـــ إلى القتال . .

ـــ ماذا ؟ ؟ أصحيحٌ ما تقول ؟

ـــ طبعا ، إننى لا أمزَحُ . . هل أنتظرُ هنا حتى يأتىَ الأعداء
ليعسكروا فى الأزهر ويذبحونا كالشياه ، وكلنا يعرف مدى نذالةِ
اليهود وخِسَّةِ الفَرنسيين ووحشيةِ الإنجليز ؟ ؟

ـــ إن أمامك الامتحانَ النهائىَّ بعد شهر ونصف شهر ، والواجبُ
عليك أن تـكمِّلَ استعدادَك للامتحان أولا ، وحينما تصيرُ طبيبا
تستطيعُ أن تقومَ بواجبِك على أتمِّ وجه ، أمَّا حماسُك الذى طرأ عليك
اليوم فهذا ما لا أُقِرُّك عليه . . .

ـــ أعَمِّى الذى يقول هذا الـكلام ؟ ؟ لا أصدق ! ! كنت

لا أعبأ بمثل هذا الحماسِ من قبل ، أما اليوم فهو جد مختلف . . يجب علينا أن نقفَ على حدودنا ونقطعَ رقاب من تسولُ له نفسه أن يعتدى علينا . . إنها حريتُنا يا عمى . .

وأطرقَ عمى دون أن يُجيبَ ، فأنا أعلم أنه كان يتكلمُ بما لا يعتقد ، وما دفعه إلى ذلك إلا خوفهُ على وعلى مستقبلى ، وعلى مجهود أبى الطويل المضنى ، لكن متى كان مستقبلُ الأوطان التى تنشد الحرية ، يعبأ بمثل هذه التَّعِلاَّت والأسباب ؟ ثم هز عمى رأسه وقال : عندك حقٌ . . . غير أنى أخاف هذه الحادثةَ خوفا شديدا ؛ إذ أن العدوانَ هذه المرة تقوم به دولتان كبيرتان بالإضافة إلى إسرائيل ، وانتصارهم معناه الضياعُ لنا ، وتحطيم قوتنا وقوميتنا . .

— إنها تجربة قاسيةٌ نمر بها ، تجربةٌ أثبتت أن الإنجليزَ ليسوا حلفاء ولا أهلا للصداقة ، وسنخرج منها أحراراً شرفاء يعتز بصداقتنا العالمُ ، وإلا فالموتُ أشرفُ لنا . .

فسارع عمى قائلا :

— لا تذكر ذلك الاحتمالَ الثانِيَ ، إن قلبي يحدثني بأنه لن يكونَ .

— لن أنتظرَ هنا أكثرَ من ذلك ، بل سأسافرُ فورا يا عمى .

— لكن ماذا أقولُ لوالدك ؟؟ إنه لن يتصورَ أنك ستقدِمُ على مثل هذا العمل . .

— قل له ذهبَ يدافعُ عنك وعن إخوته وعن الشيوخ والعجائز . .

— وماذا تنتوى أن تفعل ؟ ؟

— سأستخدم مهارتى الطبية فى إسعاف الجرحى فى الميدان ، وغير ذلك من الإسعافات الأولية ، وسيكون مسدسى فى جيبى ، فإذا ما رأيت غريبا يزحفُ نحونا قتلته . .

— المسدس فى يمينك ، والمبضع فى يسارك . .

— أتقصد أن يمينى شيطان ، ويسارى ملاك ؟

— الدنيا مزيج من الرحمة والقسوة ، والخير والشر . .

— ليس هذا شرا بالمعنى المعروف ، لكنه دِفاعٌ عن النفس ، وعن حقِّ الحياة الحرة . .

— على بركةِ الله يا سليمان . .

* * *

التقيتُ بالضابط الصديقِ سعيد حافظ فى بور سعيد ، وكانت المعركةُ حاميةَ الوطيس . قال سعيد :

— إنهم أنذال ، ويبيتون لنا أسوأ النوايا ، تصورْ أنهم لم يكتفوا

بضرب المطاراتِ والمناطقِ العسكرية ، بل تعدوْها إلى حيثُ يسكنُ الآمنون من الأطفال والنساء والشيوخ ، سواء فى منطقة القنال أو غيرها . .

— عجباً لك ياسعيدُ ، ليست هذه أولَ مرة يدوسون فيها الإنسانية . .

— لن نُسلِّمَ لهم بما يريدون ولو رصفوا الأرض بأجسادنا .

فابتسمت وقلت : بهذه المناسبة ، لعلك سعيد جدا . . ستثأرُ كيف شئت من الإنجليز هذه المرة . .

فقال وهو يضغط بأسنانه :

— أجل سأثأرُ . . .وأثأرُ . . وأثأرُ . .

وربت بيده على كتفى وقال :

— الوقت ضيق ، ولا مجال فيه للعواطف والكلام ، اذهب من فورك إلى المكان « ج » واتصل (بالأومباشى) (. . .) فسيضمُّك إلى فريق الخِدمة الطبية مع المتطوعين ، وسيدفَع إليك الملابسَ اللازمةَ والشاراتِ الخاصَّةَ . . هيا فإن الجرحى كثيرون فى شتى نواحى بور سعيد . . ومن يدرى لعل عددَهم يتضاعف فى الغد . .

وفعلا كانت بور سعيد فى انتظار الضربات المركزة من الأعداء . . وكانت كتائبُ المتطوعين والحرسِ الوطنى وأفرادِ الشعب يتدفقون

فى الشوارع حاملين السلاحَ ، وأصبحت أعصابُ الناس من القوة بحيث لم يعودوا يعبئون بأزيز الطائرات الذى لا يصمت لحظة واحدة ولا بمناظر العمارات الضخمة وهى تنهار على من فيها ، ولا بمناظر الدماء التى تُضرِّج الأرض هنا وهناك . .

عجباً ، ألا يعلم الناسُ أن إنجلترا بقضها وقضيضها هى التى تسيِّرُ الجيوش لتعتدىَ علينا ومعها فرنسا وإسرائيل ؟ ؟ هل عقولهم فى غيبة بحيث لا يقدرون الكارثةَ تمامَ التقدير ، أم الشياطين الحمر أصبحوا أسطورة وهمية لا ترهب إنساناً ولا تخيف شعباً ؟ ؟ ؟ أم أننا أمة تعتصم بحقها وحريتها ولذلك فهى لا تضن فى هذا السبيل بأى تضحية مهما غلت . . ؟ ؟

وتحرك الضمير العالمىُّ ، وتوالت الاحتجاجاتُ على الدول المعتدية ، وثارت هيئةُ الأمم من أجلِ السلام الضائع ، وروسيا تهددُ لندن وباريس بإطلاق الصواريخ الموجهة و . . . و . . . دول كثيرة ساخطة ، ناقمة على هذا التصرف الأحمق ، والشعبُ المصرى مستميتٌ فى كفاحه الدامى لا يحيد ولا يكل . . . ولواء المظلات يحاول احتلال بورسعيد ، ويقذف بقواته ونيرانه من الجو ، والشعبُ والجيشُ رابضان فى الشوارع والحوارى يقتنصون الهابطين من السماء . . .

وكان شارع فؤاد فى بورسعيد ميداناً لمعركة رهيبة ، وكان فى مقدمة المدافعين فى هذه المنطقة الملازم « سعيد حافظ شيحا » . . إنه يتحرك وراء المتاريس مُغْبرّ الوجه ، مُسْوَدّ اليدين ، وسترته ملوثة بالدماء ، يوجه بعضَ الجنود لإطلاقِ الرصاص صوبَ السماء حيثُ الهابطون بالمظلات ، ويأمر آخرين ليضربوا هؤلاء المتقدمين ناحية المتاريس ، ثم يشير لنا — نحن رجال الإسعاف — كى نحملَ جريحاً أو ننقلَ شهيداً ، ثم يعود إلى مدفعه ليقذف منه الحمم والموت فى حقد وإصرار إلى صدور المعتدين . .

كنت أرمُقُ سعيد حافظ بإعجاب وهو يطلقُ الرصاصَ ، وقد تقلصت عضلاتُ وجهه ، والشررُ الثائر يثِبُ من عينيه ، وشعرُه الأشعثُ المنفوشُ يهتزُّ مع اهتزازات جسدِه بتأثيرِ حركةِ المِدفع عند إطلاقه . . . لقد حانت الساعةُ لأن ينتقمَ سعيدٌ لجده الضابطِ القديم ولعرابى معه ، وينتقم لأبيه الذى قاسى كثيراً ، ولبسيمةَ التى عادت وليتَها ما عادت . . . إنه ليتذكرَ يوم أن وقع أسيراً فى معسكرات الإنجليز ، ويتذكرُ الكلابَ والسياطَ والماء الباردَ والجوعَ وألوانَ العذابِ التى قاساها . . . وخيل إلىّ أنه ينتقم لى أنا الآخر من هؤلاء الذين قهقهوا حينما وقعتُ فى المجرى المجاورِ

لطريق المعاهدة فى ميت غمر ، ولسيد ابن عم سالم بائع الجميز ، ويثأرُ لعمى الذى لم يستطعِ الحصولَ على عمل بلا رِشوة أو توصية كبيرة . . . ويثأر للكثيرِ جداً الذى لا يستطيع حصرَه فى هذه اللحظات الرهيبة . . .

وكنت أنظرُ خلفَ الضابط سعيد حافظ فأرى عجباً . . . فهنا جنود رسميون بملابسِ الميدان المعروفةِ ، وبجوارهم لابسُو الملابس الأفرنجية ، وفريق ثالث يرتدى الجلابيب والمنامات (البجامات) ، وهناك فريق رابع يلبس المهلهل الرثّ من الثياب ممن كانوا بالأمس يجمعون أعقابَ اللفائف أو يمسحون الأحذية أو يبيعون أوراق اليانصيب . . . خليط من الغِلمان والشباب والكُهول ، فيهم الطالبُ والشيَّال والموظف والجنديُّ والضابطُ وبعض الفتيات ، بل لقد رأيت امرأةً تظهرُ فى شُرفة بيت نصفِ متهدم ، وتقذف بإناء نحاسى فوق رأس أحدِ الجنود المعتدين ، ثم همّت بالدخول — ولعلها أرادت أن تحضرَ إناءً آخرَ — لكنَّ رصاصةً غادرةً باغتتها فى رأسها فتكومت حيث هى فى شرفتها والدمُ ينبثقُ من رأسها . . .

كانت معركةً عجيبة استعمِلَتْ فيها الزجاجاتُ الفارغةُ والأسلحةُ الحديثةُ والطوبُ والأحجارُ وسكاكين الجزارين ، وأوانِى الطبخ

النحاسية . . . أمة تبنى مجدَها وتدافعُ عن حريتها بكل شىء . . . أى شىء . .

ولم يكن نقلُ الجرحى والمصابين تحت وابل الرصاص بالعمل الهين ، ومع ذلك فقد أنستنى رهبةُ الموقف ، وجلالُ المقاومة ما أنا فيه من إنهاك وتعب و . . . وخوف ، ويبدو أن امتدادَ المعركة وعنفَها جعلا من القتال أو الموت صنعةً عاديةً من السهل مزاولتها . . .

وكانت الدفعة الأولى من لواء المِظلات قد أبيدت ، ثم الثانية . . . ثم الثالثة . . . وأصبح جلياً لى أن بور سعيد تخوضُ أتُونَ معركةٍ خالدة ، لا أستطيعُ أن أشبهها بمعركة ستالينجراد التى لم أرها . . . إن معركة بور سعيد علم وحدها ، معركة فريدة رائعة فى تاريخ وطننا . .

وعشت فترةً بين الدُّخان والصَّرَخات وأصواتِ المدافع والقنابلِ المتفجرة ، دنيا من الأشلاء والدماء والمكافحين . . .

ونظرتُ إلى حيث يتحركُ سعيد حافظ فلم أجدْه . . . وهممت بالتسلل إلى حيث كان كى أستفسرَ أين ذهب ، لكننى لمحت جريحاً فى النزعَ الأخير يستنجدُ بى فكان علىَّ أن أسارعَ بنقله ، وأؤجلَ موضوعَ الاستفسار عن صديقى . وحينما بلغتُ المركز الطبى أرقدت الجريحَ على فِراش مُعَدٍّ لذلك ، وسارعت إلى حيث

ينتظرُ الطبيب ، فوجدته يقوم بعمليـــة جراحية فى بطن أحد الضباط ليستخرجَ منهـا رَصاصة . . . وتفحصت فى وجه الضابطِ الجريحِ . . .

لقد كان سعيد حافظ بلحمهِ ودمهِ . . . فصرختُ من فورى :

— من هذا . . ؟ ؟

— إنه مسكين . . . لقد أخرجنا له رصاصةً من كتفه اليمنى ، ونحن على وشك إخراج الثانية من بطنه .

فنظرت بحزن إلى وجه سعيدٍ الشاحبِ الذى لم يستطعْ المخدِّرُ أن يُذْهِبَ عنه جمودَ ملامحه وإصراره العنيد ، وقلت بلا وعى :

— هل هو الملازم سعيد حافظ ؟

فرد الطبيب بهدوء :

— لا ندرى . . إنه مواطنٌ يقال إنه أبدى ضروباً من البَسالة والتضحية يُحْسَدُ عليها . . .

فقلت فى لهفة واضطراب وتوسل :

— أتعتقدُ يا سيدى أنه سيشفى . . ؟ ؟

— ولم لا ؟ نحن الآن فى مصر أرضِ المعجزات . . .

— إذاً فالجرحُ خطيرٌ جداً . .

— ليس خطيرا جدا ، وأعتقد أن عمليةَ نقل الدم قد أفادته كثيراً . .

— وفقك الله يا سيدى الطبيب . .

* * *

بعد قرارِ وقفِ إطلاق النار بأيام كنت أتنقلُ فى أنحاء مبنى المستشفى الذى يضمُّ بعض جرحى المعركة ببور سعيد ، فلمحت الشيخ حافظ بعمامته وجلبابه الصوفى الأسود يدلف إلى الداخل فى حالةٍ من الحزن والخوف يُرْثَى لها ، والحقيقةُ أن رؤيتَه أدهشتنى فى هذا الوقت ، فأسرعت خلفه ، وما إن دخلتُ الحجرَة التى ينام فيها سعيدٌ حتى رأيتُ مشهداً مثيراً ، إذ وجدت الشيخ حافظ ينحنى على سعيدٍ و يقبلُه وهو يبكى — بينما يحاولُ سعيدٌ الابتسامَ و يقول :

— فيم البكاء يا أبى ، إننى بخير والحمدُ لله . .

وتدخلت أنا فى الحديث محاولا تهدئةَ الشيخ :

— يا عم الشيخ حافظ ، إن سعيداً قد أثبتَ بطولةً نادرة ، عندما تسمعُ تفاصيلَها سينشرحُ لها قلبك ، وتسعَدُ بها نفسُك ، ولعلك قرأتَ طرَفا منها فى الصحف التى تكتب عن الفدائى العظيمِ الضابطِ سعيد حافظ حفيدِ أحد المشتركين فى ثورة عرابى . .

فرد الرجل فى تواضع :

— الحمد لله . . . هذا ما كنت أنتظرُه من ولدى . . بل إنى لو مت الآن لـكنت سعيداً بذلك ، أما دموعى التى أذرِفُها فلا أستطيع منعها . . . فلتعذرونى . .

وطالت الزيارةُ وطال بنا الحديثُ ، وتكلمنا فى أشياء كثيرة ، وعند خروج الشيخ حافظ ، انفجر باكيا للمرة الثانية ، فقلت له :

— لماذا تبكى من جديد ؟ ؟ ألم يطمئنّ قلبُك على حال سعيد ؟

— لقد اطمأننت جدا لـكن . .

— لـكن ماذا ؟ ؟

— لقد سألنى سعيدٌ عن بسيمةَ . . .

— وماذا فى ذلك ؟

— لقد كذبت عليه وقلت إنها بخير . .

— وماذا كنت تريد أن تقول له غير ذلك ؟ ؟

— كان من الممكن أن أخبرَه بأننا وجدناها ذاتَ صباح أشلاء ممزقةً على شريط القطار ولم ندر كيف خرجت من البيت ولا متى وكيف كان ذلك . . . لقد انتحرت المسكينةُ ، وكنا نحسب أنها لا تعى شيئا على الإطلاق ، فما بالُك بالتفـكيرِ فى الانتحارِ على هذه

الصورة البشِعة التى لم نـكن نتصورُها ؟ ؟

— يا إلهى . . ! ! ! هذا كثير . . . ! ! !

فلم يجبْ الشيخ حافظ بغير الدموع التى أخذ يجففها بمنديله ، وطافت بذهنى صورةٌ سريعةٌ لمـاضى هذه الأسرة ، ثم تبصرت فى مآل بسيمةَ ومآلِ سعيد البطل المحبوب ووجود الشيخ حافظ بين الاثنين ، وفؤادى يتفطّر من الحزن والأسى العميق ، وهتفت قائلا :

— لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله . .

وقبلَ أن أودعَ الشيخ حافظ على المحطة همست له فى صوت خفيض يخالطه الألم :

— أرجو أن تخبرَ عمى عند مرورك بالقاهرة بأنى سأعودُ بعد أسبوع ، كى أستأنفَ دراستى فى الـكلية وأستعدّ للامتحان ، وسأبقى هذا الأسبوع ، بجوار سعيد حتى يتمّ شفاؤه . .

— أعانك الله . . . سأفعل . .

— مع السلامة . . .

— سلمك الله . . .

« تمت »

كتب للمؤلف

الطريق الطويل :

الرواية الفائزة بجائزة وزارة التربيةوالتعليم عام١٩٥٧ ــ نشرتها وزارة الثقافة والارشاد (الطبعةالثانية)

اقبال الشاعر الثائر :

الفائز بجائزة وزارة التربية عام ١٩٥٧

فى الظــلام :

الرواية الفائزة بجائزة وزارة التربية عام ١٩٥٨

المجتمع المريض :

الكتاب الفائز بجائزة وزارة التربية سنة ١٩٥٨

شوقى فى ركب الخالدين :

الكتاب الفائز بجائزة وزارة التربية سنة ١٩٥٨

اليوم الموعــود :

الرواية الفــائزة بجائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب (١٩٦٠) عن حملة لويس التاسع الصليبية وأسره فى المنصورة

عــذراء القرية :

رواية مصرية .

على أسوار دمشق :

مسرحية تاريخية من خمسة فصول .

ليـــل الخطايا :

رواية مصرية (منشورات دار الفكر بدمشق)

طلائع الفجر :

تكملة قصة فى « سبيل الحرية » التى بدأها الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٣٥ (منشورات دارالفكر بدمشق) .

موعدنا غـــدا :

وقصص أخرى ـ مجموعة قصص قصيرة ، وبها القصة الفائزة بالجائزة الأولى فى مســابقة نادى القصة ، وبالميدالية الذهبية المهداة من الدكتور طه حسين عام ١٩٥٩ .

أرض الأشواق :

قصة فلسفية .

نحـو العـــلا :

شعر (نفـد) .

اغانى الغـرباء :

شـــعر .